تاريخ يهود النيل

تحرير

جاك حاسون

ترجمة

يوسف درويش



دار الشروق

تاريخ يهود النيل

Histoire des Juifs
du Nil

Jacques Hassoun

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٣٩١٦
ISBN 978-977-09-2067-5

الطبعة الأولى ٢٠٠٧
الطبعة الثانية ٢٠٠٨

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر القاهرة مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

تاريخ يهود النيل

تحرير
چاك حاسون

ترجمة
يوسف درويش

دار الشروق

في ذكرى صديقنا وأستاذنا
ألفريد مورابيا

إهداء

هذه الترجمة إهداء من يوسف درويش إلى جميع المصريين الذين لا يعرفون هذه الحقبة من تاريخ الوطن؛ وإلى المصريين الذين يناهضون جميع أشكال التمييز فى مصر؛ فهم قلة، ويستحقون الدعم الكامل فى نضالهم الصعب.

كما تتقدم الأسرة بالشكر لكل من ساهم فى إخراج هذا الكتاب إلى النور.

أسرة المرحوم
«يوسف درويش»



المحتويات

مقدمة المترجم

كان «چاك حاسون» قد أهدانى هذا الكتاب فى إحدى زياراته للقاهرة؛ حيث كان يمضى فى منزلى فترات طويلة، نجرى معًا المناقشات والحوارات، ونتبادل ذكريات الماضى وتاريخ بلادنا.

لم أهتم كثيرًا آنذاك بقراءة هذا الكتاب، واكتفيت وقتئذ بالاطلاع على الفهرس وعلى بعض أبوابه.

ولكن عندما لاحظت فى الفترة الأخيرة أن اهتمامًا خاصًا أخذ ينصب من بعض المثقفين والكتاب على ما كان عليه اليهود فى مصر وقصة هجرتهم، قررت القيام بترجمة هذا الكتاب الذى استرعتنى فيه المعلومات والتوضيحات فى كثير من الأمور التى كنت أجهلها تمامًا، وأردت أن يكون مضمون هذا الكتاب فى متناول القارئ العربى وخاصة القارئ المصرى.

ليس فى نيتى أن أقدم تحليلًا لما جاء فى هذا الكتاب فهو شىء لست فى الواقع قادرًا عليه، غير أننى رأيت أن من واجبى أن أدلى للقارئ بكل ما لدى من معلومات وأبحاث وانطباعات عن الموضوع الذى يتضمنه جزء من هذا الكتاب؛ فهى أحداث وحقائق لمستها بنفسى وعشتها وعايشتها وأنا قد بلغ بى العمر الآن أكثر من ٩٥ سنة.

بادئ ذى بدء، يجب التأكيد فى هذا المقام أن الصهيونية ليست اليهودية وليست اليهودية هى الصهيونية، فاليهودية ديانة والصهيونية سياسة. ليس اليهودى من الصهاينة وليس كل يهودى يؤمن بالصهيونية، بل أغلب اليهود لا يؤمنون بها ولهم اتجاهات سياسية مختلفة ومتنوعة فيما بين الرأسمالية والليبرالية، ومنهم من اعتنق صراحة الفكر الاشتراكى والفكر الشيوعى.

أقول ذلك وأؤكد عليه لأن هناك فى هذا الشـأن لبـسًا خطـيرًا بل مفتـعلًا إن لم يكن مقصـودًا؛ وهذا ما قد يؤدى إلى العديد من التعامل الخاطئ، بل قد أدى بالفعل فى بلادنا وفى غيرها من البلاد العربية إلى العديد من صور الأحداث السيئة والمضايقات والمعاملات المشينة.

لعل من المهم فى هذا المقام أن نلاحظ أن هناك عديدًا من اليهود المعروفين عالميًا الذين يرفضون رفضًا كليًا الفكر الصهيونى بأكمله. أكبر شاهد على ذلك هؤلاء الحاخامات (اليهود طبعًا) الذين نراهم فى الفضائيات (ولا سيما فى قنوات الجزيرة والعربية) وفى قنوات أخرى بشعرهم الطويل المتدلى بالضفائر على جانب من الوجه وهم يعلنون بصراحة معاداتهم للصهيونية ومناهضتهم لإقامة دولة إسرائيل استنادًا منهم إلى أن التوراة لم تأت بأى شىء من هذا القبيل. إن هؤلاء الحاخامات موجودون لا سيما فى نيويورك (أمريكا) وأيضًا فى إسرائيل!

وهناك أيضًا من اليهود المعروفين عالميًا، والذين ليسوا من رجال الدين، الذين أعلنوا بغضهم للصهيونية ورفضهم لأساس دولة إسرائيل، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

(١) تونى كليف (وكان اسمه عمانوفيل بلوكشتاين) وهو أحد مؤسسى الحركة الشيوعية ذات الاتجاه التروتسكى. لقد كان يعيش فى فلسطين قبل إقامة دولة إسرائيل، وفى العام ١٩٤٤ هاجر منها وعاد إلى إنجلترا وطنه الأصلى.

(٢) وهل ننسى الكاتب والمحلل العظيم «ناعوم تشومسكى» الذى ملأت تصريحاته كافة الصحف بمعاداته للصهيونية وعدم رضائه على إقامة دولة إسرائيل.

(٣) ثم هناك شخصية مهمة معروفة تمامًا فى مصر بين أوساط المثقفين والكتاب وهو «جوئيل بنين»، أستاذ التاريخ بجامعة ستانفورد بأمريكا، والذى له عديد من المؤلفات المهمة فى هذا الشأن ومنها:

- معاداة الصهيونية، معاداة السامية، الطائفة اليهودية فى مصر فى العام ١٩٣٥ (باللغة الإنجليزية).

- الهوية اليهودية المصرية (باللغة الإنجليزية).

ـ العلم الأحمر بين مصر وإسرائيل (باللغة الإنجليزية).

لقد أعلن «جوئيل بنين» أكثر من مرة أنه يعادى الصهيونية ويرفضها رفضًا قاطعًا وغير مرتاح لما يحدث على أرض فلسطين.

من المهم فى هذا المجال أن نتذكر ما جرى لليهود فى فرنسا فى أوائل القرن التاسع عشر عندما اندلعت الثورة الفرنسية الشهيرة، وذلك أنه عندما استولى نابليون بونابرت على السلطة وأصبح امبراطورا لفرنسا، قرر فى العام ١٨٠١ إجراء انتخابات برعايته مستبعدًا اليهود منها تصويتًا وترشيحًا على اعتبار أن اليهود كانوا يقولون عن أنفسهم إنهم شعب وقومية، فلا يمكن إذن أن يشاركوا فى تقرير مستقبل ومصير أى شعب. غير أن اليهود فى كل من فرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا انزعجوا من هذا الوضع وهذا التفسير وقرروا عقد اجتماعين مهمين فى إحدى المدن غرب فرنسا وشرق ألمانيا؛ حيث عقد مندوبو حاخامات تلك البلاد اجتماعًا لهم فيها، كما عقد اليهود من غير رجال الدين اجتماعًا آخر. وقرروا فى الاجتماعين بالإجماع أن أى يهودى فى أى بلد هو مواطن لهذا البلد، وليس له وطن غير الذى يقيم فيه. كل هذا اطلعت عليه بنفسى فى «مجموعة القوانين والشرائع واللوائح الفرنسية منذ العصور الوسطى» وهى باللغة الفرنسية باسم «بانديكت» Pandectes؛ وللعلم، أعطيت تلك المعلومة المهمة بمرجعها الأصلى للدكتور «جمال العطيفى» عندما كان سكرتيرًا عامًا «لجمعية الاقتصاد السياسى والتشريع»، وكنت أشغل فيها وظيفة السكرتير الإدارى. كان هذا بعد عام ١٩٦٧، وغالبًا فى أوائل السبعينيات. ولقد اهتم الدكتور العطيفى بتلك الوثيقة، وقام بنشرها أو نشر مضمونها فى إحدى مقالاته آنذاك فى جريدة الأهرام.

معنى ذلك أنه لم يكن باديًا آنذاك أى اتجاه صهيونى أو شبه صهيونى، بل قد يكون من المفيد أن نذكر فى هذا المقام بشكل عام كتاب «نهاية اليهودية» للمؤلف الألمانى الماركسى «اوتو هيللر» الذى أوضح أن اليهودية التى كانت معروفة فى العصور الوسطى وفى عصر الاقطاع بأنها كانت تقوم على أساس النشاط المصرفى وتقديم القروض للنبلاء بالفوائد قد انتهى شأنها واحتكارها لهذا النشاط مع سقوط الاقطاع وقيام البورجوازية مع الثورة الفرنسية، حيث أخذت العناصر كافة من غير اليهود تهتم بالنشاط المصرفى وبالإقراض بالفوائد.

معنى ذلك كله أن الصهيونية لم يكن لها وجود أو جذور فى هذا الوقت وأنها ظهرت واكتملت مع عهد الرأسمالية العالمية والاستعمار.

ولنرجع الآن إلى مصر لنتساءل ماذا كانت عليه الدعوة الصهيونية فى تاريخها الحديث. أؤكد تأكيدًا جازمًا أنه لم يكن فى مصر حتى أواخر الأربعينيات من القرن الماضى أى مظهر واضح من مظاهر الصهيونية. نعم قد يكون هناك واحد أو اثنان أو عشرة أو أكثر من اليهود فى مصر الذين كانوا يدينون بالصهيونية ويروجون لها..ولكن ذلك لا يشكل ظاهرة على الاطلاق.

بيد أن تلك الظاهرة قد بدأت بالفعل فى وسط وأواخر الأربعينيات من القرن الماضى. لقد ظهرت بوقوع حادثين هامين:

ـ الأول هو ما قام به «الإخوان المسلمون» فى العام ١٩٤٧ بالهجوم على حارة اليهود، وتدمير عديد من المنازل، وقتل عدد كبير من اليهود الغلابة الذين كانوا يقيمون فى حارة اليهود سواء من القرائين أو الربانيين.

ـ الحادث الثانى الذى له أهمية كبيرة للغاية هو انتشار المعلومات والشائعات والأخبار عن قرب تبنى هيئة الأمم المتحدة قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وما جاء بتلك الأخبار من تأثير فى نفسية الشعب المصرى ليس فقط بين المسلمين ولكن أيضًا بين المسيحيين وبعض اليهود المصريين.

ولنقل أولًا حقيقة لابد من ذكرها على الملأ، ذلك أن أول من هاجم الصهيونية فى مصر هم اليهود، بل إنهم من أكثر من هاجم الصهيونية علنًا وجهارًا.

أذكر فى هذا الصدد أن كلينًا: ريمون دويك ويوسف درويش كانا يقومان بتوزيع منشورات باللغة الفرنسية واللغة العربية فى شوارع القاهرة، ولاسيما فى آخر شارع عماد الدين أمام محلات «الأمريكين»، وعند نهاية ترام مترو مصر الجديدة، وكان ذلك فى الأعوام من ١٩٣٥ حتى قيام الحرب العالمية الثانية. فلقد كان كل منهما أعضاء فى فرع عصبة أنصار السلام بالقاهرة، وهى تلك العصبة العالمية التى نشأت فى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى وكان مقرها «مدينة امستردام» (هولندا)، وكان نهرو نائب الرئيس فيها، وهى الهيئة الأولى فى العالم قبل «هيئة الأمم المتحدة» وأية هيئة عالمية أو قومية التى أعلنت بصوت عال أن «الصهيونية شكل من أشكال العنصرية»،

وكافحت ضدها منذ ذلك الوقت. ولقد تربينا نحن اليهود وغيرنا فى أحضان تلك العصبة وفى إطار مبادئها الشامخة.

ثم كيف لنا ألا نتذكر أنه عندما قامت انتفاضة فى العام ١٩٣٦ بفلسطين ضد اضطهاد وملاحقة المستعمر البريطانى، وضد محاولات اليهود المهاجرين إليها آنذاك، أن لجأ كل من «موسى الخالدى» و«الحاج أمين الحسينى» إلى مصر ونزلا بفندق الكونتننتال بميدان الأوبرا، وتوجه إليهما كل من «ريمون دويك» وكاتب هذه السطور ليعلنا تحيتهما باسم عصبة أنصار السلام وتأييدهما الكامل لهما وللانتفاضة الفلسطينية.

ثم لابد أن نذكر هنا المقال الذى تم نشره فى مجلة «الضمير» العمالية فى العدد ٢٧٤ بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٤٥ بقلم «خيرى محمـود» ـ وهو الاسم الـمستعار لـ «يوسف درويش» فى تلك المجلة ـ وهو المقال الذى كان بعنوان «لن تمروا» موجهًا إلى الصهاينة، مقارنًا بينهم وبين الفاشيين، ومستخدمًا العبارة الشهيرة للمناضلة الإسبانية « لا باسيوناريا» (دولوريس إيبارورا) بمعنى أن الصهيونية لن تمتد فى الشرق العربى كما كان الشأن للفاشية فى إسبانيا.

هناك شىء آخر، ذلك أنه عندما دارت المناقشات فى «الأمم المتحدة» حول بناء دولة إسرائيل، عمدت المنظمة العالمية إلى إيفاد لجنة لتقصى الحقائق فى الشرق الأوسط فى العام ١٩٤٧ لمعرفة رأى شعوب تلك المنطقة فى هذا الشأن ونزلت تلك اللجنة فى مصر بفندق «شبرد» (الذى احترق بعد ذلك) بشارع إبراهيم باشا، وهو شارع الجمهورية حاليًا. لقد ذهب كاتب تلك السطور موفدًا من «الطليعة الشعبية للتحرر» (وهى المنظمة الشيوعية التى أعلنت عن قيامها فى العام ١٩٤٦)، وقررت تلك اللجنة أننا ضد قيام دولة إسرائيل لسببين رئيسيين، وذلك لأن تلك الأرض ليست أرضهم ولكن ملك من يقيمون فيها الآن من مسلمين وعرب ويهود وليس غيرهم؛ والسبب الثانى لأننا ـ كما أعلنت ذلك لاحقا ـ لا نقبل الصهيونية، ولا يمكن أن نعتمد قيام دولة أو وجود يستند إلى الصهيونية.

وما القول فى أن صادق سعد هو الذى وضع كتاب «فلسطين بين مخالب الاستعمار والصهيونية»، وكان لا يزال يهوديا حينئذ. وهو أول كتاب من هذا النوع فى مصر، كما يشيد به الفلسطينيون حتى الآن.

والحقيقة التى لابد من التركيز عليها أن الوضع فى مصر حتى الأربعينيات من القرن الماضى كان فى غاية الهدوء بين كل عناصر الأمة من مسلمين وأقباط ويهود، فقد كانوا يتزاورون بانتظام فى كل المناسبات من الأفراح والأحزان، بل كانت علاقتهم فى غاية الجمال. أنا شاهد على ذلك، ففى تلك الأيام قام «نجيب الريحانى» بتأليف وعرض مسرحية «حسن ومرقص وكوهين» وقدم عادل خيرى فيما بعد مسرحية «فاطمة وماريكا وراشيل».

لقد كان أعز أصدقائى آنذاك بمدرسة الفرير الثانوية بالخرنفش كل من «حامد سلطان» الذى أصبح بعد ذلك أستاذ القانون الدولى بجامعتى القاهرة والإسكندرية، و»أحمد بدرخان» الذى أصبح من كبار رجال السينما و«يحيى حسن» الذى عمل فى السلك الدبلوماسى؛ حيث كان هؤلاء الأصدقاء الثلاثة كثيرًا ما كانوا يترددون علىَّ فى منزل عائلتى بمصر الجديدة، وكانت والدتى تعاملهم معاملة أولادها، وهم كانوا يلتفون حولها شاهدين بحنانها كأم وخاصة «حامد سلطان» الذى كان فى حاجة إلى مزيد من العطف لأنه كان يتيم الأبوين، كما كنت أزور من وقت لآخر الصديق أحمد بدرخان فى بيت عائلته، وهو بيت جميل على الطراز العربى وأعتقد أنه كان فى جهة القلعة وكانت والدته تعاملنى أحسن معاملة. ليس هذا هو النموذج الوحيد بل هناك أمثلة عديدة فى هذا الشأن.

ولنعد إلى التاريخ العام. ألم يكن الحاخام الأكبر فى مصر من المشاركين مع علماء الدين الإسلامى ورجال الدين المسيحى، فى تأييد ثورة عرابى فى العام ١٨٨٢، بل والأقرب من ذلك، ألم يشارك حاخام اليهود مع كل من شيخ الأزهر وأنبا المسيحيين الأقباط فى المسيرة الكبرى فى أكتوبر ١٩٥١ بالقاهرة.

وأين نضع يعقوب صنوع الذى دافع عن مصر واستقلالها لأنها وطنه، وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر؟.. وأين نضع موسى قطاوى الذى كان وزيرًا للمالية، وكذلك الحاخام ناحوم أفندى الذى كان عضوًا بمجلس الشيوخ، بل عضوًا فى مجمع اللغة العربية؟.. وأين نضع «ليون كاسترو» الذى كان سكرتيرًا فنيًا للوفد آنذاك. وماذا نقول عن مجلة «الشمس» التى كان يصدرها بعض اليهود وكانت منتحية للوفد وتؤيد الوفد؟.. ثم ما الرأى فى أن مجلة «الشبان القرائين» التى كانت تصدر فى القاهرة

باللغة العربية،جاء فيها مقال باللغة الفرنسية بقلم كاتب هذه السطور بعنوان «التسامح فى الإسلام»؟!

لماذا نسيان كل هذا؟.. أليس ذلك مقصودًا ؟.. أليس الجهل المتعمد يعد فى هذا الشأن من الجرائم السياسية؟!

وهل ننسى أيضًا أن مراد بك فرج، وهو يهودى قرائى، كان محاميًا للخديو حلمى الثانى، وكان ينظم شعرًا باللغة العربية، وله ديوان شعرى؛ كما له عديد من المؤلفات باللغة العربية فى بعض الشئون الدينية؟! وما القول عن «داوود حسنى» اليهودى القرائى الذى هو محل تقدير حتى الآن من أهل الفن والمثقفين. أين نضع زكى مراد وليلى مراد وكذلك توجو مزراحى وهو من أوائل الذين اهتموا بالسينما فى مصر؟

ثم مع اعتذارى للقارئ لابد أن أقول شيئًا مرتبطًا بأهلى، بإخوتى وهم يهود قراءون، ذلك أنه عندما كتب مؤخرًا الصحفى وائل عبد الفتاح خمس مقالات فى «الفجر» عن سيرتى الذاتية الاجتماعية والسياسية، علمت منه أن «جورج إسحاق» الناشط الكبير فى حركة «كفاية» اتصل به ليبلغه أن إخوتى عملوا على مساعدة والده للخروج من مأزق مالى. إنهم يهود ووالد جورج إسحاق مسيحى.

ثم ما القول إذا عرف القوم فى مصر والبلاد العربية والعالم أجمع أن أول من اكتشف السيدة الكبيرة والعظيمة «أم كلثوم» هم جماعة من اليهود القرائين. أعنى بذلك عائلة «ليتو باروخ» التى كانت تملك المحلات الكبرى لبيع المصاغ والمجوهرات فى آخر شمال شارع عبد الخالق ثروت باشا، بالقرب من ميدان الأوبرا. وكانت تملك فى ذات الوقت عزبة كبيرة من آلاف الأفدنة بالقرب من المحلة الكبرى (حسب ذاكرتى). كانت «أم كلثوم» وهى لا تزال صغيرة للغاية (طفلة) تعمل فى تلك الحقول مع الآخرين فى جنى القطن، وكانت تردد بعض الأغانى بصوتها الجميل، مما استرعى انتباه أحد أفراد تلك العائلة الذى كان يتجول آنذاك فى الحقول، وهنا اهتم بها اهتمامًا بالغًا وجاء بها إلى القاهرة وقدمها لشركة «أوديون» لتسجيل وبيع الأسطوانات؛ وكان مقر تلك الشركة فى الموسكى، ثم انتقلت بقرب (أو أمام) مكتب بريد العتبة.

إنه التاريخ العتيد الذى لا يعرف المراوغة والمساومة والهروب من الواقع، فلنعترف بالحقائق ولنقدمها دون خجل.

ثم كيف لنا أن نتجاهل زيارة «محمد نجيب» ـ وكان آنذاك على رأس الدولة ـ التى قام بها لليهود القرائين وكيف لنا أن نغمض العين عن أن جمال عبد الناصر عندما كان شابًا ويخشى من ملاحقة البوليس لنشاطه السياسى كان يأوى إلى إحدى العائلات القرائية فى السكاكينى، وهى تلك العائلة التى قامت بزيارته وهو فى قمة السلطة تطلب منه عدم تنفيذ حكم الإعدام فى «دكتور مرزوق» الذى كان متهمًا فى قضية «لافون» (وهو لم يمتثل لذلك إطلاقًا).

هناك أيضًا حقائق أخرى: فقد كانت السلطات المصرية حتى العام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ تتهاون مع العدد القليل من الصهاينة فى مصر؛ فلا يمكن أن أنسى أنه حينما كنت أقيم مع عائلتى بمصر الجديدة بشارع رشيد، كان فى الشارع المجاور ـ وهو شارع مراد ـ ناد مكتوب بخط واضح على يافطته «النادى الصهيونى»، وكان فى حراسة رجال الشرطة، ثم ألم يحدث أنه جرت فى بداية القرن الماضى مفاوضات بين السلطات المصرية والسلطة الاستعمارية الإنجليزية لتصبح شبه جزيرة سيناء وطنًا قوميًا لليهود وحمدًا لله أنه لم يتم هذا، بل استمرت تلك السلطات الاستعمارية الإنجليزية فى التفاوض على هذا «الوطن القومى اليهودى» فى أوغندا ولم تفلح تلك المفاوضات. أليس ذلك معناه ـ فى واقع الأمر ـ أن الاستعمار الإنجليزى لم يكن يهتم ـ بشكل خاص ـ بإرضاء اليهود لإقامة «دولتهم» على «أرض الميعاد»، بل المهم بالنسبة للاستعمار البريطانى غرس كيان فى المنطقة ليكون شرطيًا لهذا الاستعمار، أليس هذا ما تم بالفعل فى العام ١٩٤٨ وما بعدها؟.. وأليس هذا هو الحاصل الآن لصالح الإمبريالية الأمريكية؟

وعندما انطلقت قوات إيطاليا الفاشية فى العام ١٩٤٤ من ليبيا فى اتجاه مصر لاحتلالها، وبالتـالى إقامة دولة تابعة تطبق مبادئ الفاشية والنازيـة وتهدد اليهود الذين كانوا يقيمون فيها مما اضـطر عديدًا من أغنيائهـم للهروب من مصر واللجوء إلى القدس فى حماية الاستعمار الإنجليزى، غير أن الذين كانوا لا يزالون يهودًا حتى ذلك الوقت قد قرروا البقاء فى البلاد لتنظيم المقاومة ضد المعتدى على الوطن؛ وقام كل من صادق سعد فى الصعيد، وريمون دويك فى الإسكندرية، ويوسف درويش فى القاهرة، بتنظيم المقاومة ضد المحتل الغاصب؛ على أن هذا لم يستمر طويلًا بعد أن استطاعت الجيوش البريطانية إبعاد الجيوش الإيطالية من ضواحى الإسكندرية.

ثم ماذا نقول إذا عرفنا أن السلطات المصرية هى التى حظرت فى العام ١٩٤٧ إقامة ونشاط «الرابطة الإسرائيلية لمكافحـة الصهـيونية»، والتى كان من مؤسسيها المرحوم «شحاته هارون» صاحب كتاب «يهودى فى القاهرة»، وكذلك الرفيق «ألبير إرييه» المقيم الآن فى القاهرة. ثم ماذا كان تصرف السلطات المصرية نحو اليهود الصهيونيين حين اعتقلتهـم فى العام ١٩٤٨ فى هاكستيب الذى كان به أيضًا الشيوعيون والإخوان المسلمون. لقد كانوا يعاملون معاملة خاصة، وكان العنبر الخاص بهم مزودا بوسائل الترف، بل كان يسمح لرؤسائهـم بالتوجـه يومًا فى الأسبوع إلى منازلهم للالتقاء بزوجاتهم وأولادهم. وأخيرًا ألم يكن فى علم السلطات المصرية وبمعرفتها أن اليهود «بدون» ـ أى الذين لا جنسية لهم وبالتالى ليس لديهم جوازات سفر ـ عمدت الحكومة المصرية إلى تزويدهم بـ «ورقة طريق» للتوجه إلى روما فى إيطاليا حيث كان ينتظرهم «بعلم السلطات المصرية» رجال الموساد لتوصيلهم للعيش فى «إسرائيل».

ثم إذا أردنا أن نعالج قضية اتجاه يهود مصر إلى إسرائيل، فلا بد لنا من ملاحظة أن الطبقة العليا والفئة العليا من الطبقة الوسطى اتجه كافة عناصرها ـ دون استثناء يذكر ـ ليس إلى إسرائيل بل إلى كل من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا والولايات المتحدة وبعض دول أمريكا اللاتينية، إذ كان لديهم الإمكانات المادية والمعارف والأصدقاء فى تلك البلاد؛ فلجأوا إليها ورفضوا الذهاب إلى إسرائيل. معنى هذا أنهم لم يكونوا مقتنعين تمامًا بالصهيونية وإقامة دولة إسرائيل لتكون مأوى لهم.

أما الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى وكذلك الطبقة الدنيا، فقد لجأ عناصرها بالفعل إلى إسرائيل بسبب ضيق ذات اليد وانعدام الإمكانيات المادية لديهم، مما اضطرهم للذهاب إلى إسرائيل ليس حبًا فيها أو تعلقًا بالصهيونية.

وأخيرًا كان اليهود أقلية فى مصر، والأقليات موجودة فى كل بلدان العالم على المستوى الاثنى أو الدينى أو غيره. وأقول إن أية أقلية فى أى بلد من البلدان ـ وليس فى مصر فقط ـ قد تقع فى بعض الأخطاء، وقد تمثل أخطارًا جسيمة، غير أننى أرى بكل أمانة أن السبب فى ذلك يعود للأغلبية فى هذا البلد أو ذاك التى لم تهتم بشئون تلك الأقلية ولا تعتنى بما تلاقيه من اضطهاد وتمييز وتعسف؛ فهى لم تسع إلى احتضان تلك الأقلية، وجعلها مندمجة اندماجًا كافيًا فى المجتمع الذى تتحكم فيه وفى مستقبله.

لا بد من القول إننا فى مصر نعانى من بعض الأمور فى هذا الشأن، لن أتكلم عن الأقباط، فلقد كتب عديد من المفكرين والباحثين فى هذا الموضوع لاهتمامهم بشئون الوطن، ولكن دعونى أذكر النوبة وبدو شبه جزيرة سيناء وبدو الصحراء الغربية، علينا أن نهتم بهم جميعًا وأن نعبر لهم عن تعاطفنا واهتمامنا بمشاكلهم وقضاياهم.

أقول بصوت عال ويسمعه الجميع: حذار، حذار من التدخل الأجنبى فى شئون البلاد.

يوسف درويش

مايو ٢٠٠٦

مـدخـل المحـرر

بقلم: جاك حاسون[1]

- مونتريال (كندا): أحد الرجال يبلغ ٧٦ سنة، أخذ يتذكر والده الذى كان فلاحًا فى المحلة الكبرى.

- ميلانو (إيطاليا): أغسطس ١٩٥٦ كان بعض الشيوعيين والديمقراطيين المصريين مجتمعين حول يوسف حلمى قائد حركة السلام[2]، إنهم يعملون على إعداد اجتماع عام لمساندة البكباشى جمال عبد الناصر الذى قام على التو بتأميم قناة السويس، إنهم جميعًا من المنفيين السياسيين، وهم يهود من القاهرة والإسكندرية.

- نيويورك، شارع ٤٧ (الولايات المتحدة الأمريكية): أخذ أحد الصُيّاغ يتحدث عن سوق الصاغة فى الإسكندرية، وكان له محل بها حتى عام ١٩٧٢.

- فيما بين بلدة «فيليه لى بل» و«جارج لس جونس» (فرنسا): كان هناك فى أحد المتاجر مجموعة من الشبان ومن كبار السن يتناقشون ويلعبون القمار، وكانوا على

---

(١) ولد جاك حاسون بالإسكندرية فى أكتوبر ١٩٣٦ (شعبان ١٣٥٥ هشفان ٥٦٩٧) وعاش فى فرنسا منذ ١٩٥٤، وقد جمع عدة نصوص من هذا الكتاب، إلى جانب نصوص بقلمه.

(٢) تأسست حركة السلام بزعامة يوسف حلمى المحامى بإيعاز من الحركة المصرية للتحرر الوطنى (حدتو) والتى كان يقودها هنرى كورييل، وقد تم تأسيس تلك الجمعية بعد قيام دولة إسرائيل فى ١٩٤٨ مستهدفة تحقيق السلام بين إسرائيل والدول العربية، ويجب هنا أن نلاحظ عدم الخلط بين تلك الحركة من أجل السلام مع إسرائيل بما كانت عليه «عصبة أنصار السلام» التى تكونت قبل الحرب العالمية الثانية، وهى الهيئة الأولى فى العالم أجمع التى قالت إن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية، وكان لها وجود فى مصر فى كل من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد، وكان من أعضائها فى القاهرة يوسف درويش وهى الوحيدة التى كانت تقوم بتوزيع النشرات فى وسط القاهرة ضد قيام دولة إسرائيل (المترجم).

هذه الحال منذ ٢٣ سنة؛ أحيانًا يضحكون بصوت عال من سماعهم زلة لسان أحد الحاضرين، وعندما كان أحدهم يخسر خمسة فرنكات يصيح «لقد خسرت خمسة قروش». عندئذ تدخل إحدى السيدات لتعلن بالعربية أن المغنى موسى موجود الآن فى مدينة «سارس». لقد كانوا جميعهم قادمين من طنطا أو المنصورة أو من حى الظاهر بالقاهرة، أو من سوق السمك بالإسكندرية.

- لوزان (سويسرا): أحد البكوات يتصفح، والحزن يملأ قلبه، جريدة «الشمس» متذكرًا الماضى، وهى تلك الجريدة التى كانت تصدر فى القاهرة ورئيس تحريرها سعد المالكى، وهو يهودى قريب من حزب الوفد[١].

- باريس (فرنسا): تواجدت فى أحد صالونات الضفة الغربية لنهر «السين» مجموعة من السيدات اللاتى كتب لهن النجاة، وهن من أعلى الفئات البرجوازية بالقاهرة، كانت هناك إحدى السيدات من اللاتى قمن بتأسيس رابطة خريجى مدرسة الليسيه الفرنسية بالقاهرة (شارع يوسف الجندى، باب اللوق ـ المترجم)، كما كانت بعض السيدات الأخريات قد تعرفن على «كفافى» أو «تسيركاس»[٢] و«إنجى أفلاطون»[٣]، و«ويصا واصف» و«ادموند جابس»، كانت صحبتهن ممتعة للغاية؛ فهن يتحدثن العربية الفصحى، ويستعملن اللغة الفرنسية الكلاسيكية، إنهن جميعًا من القاهرة.

- الإسكندرية، سوق الطباخين ١٩٧٨ : أخذ إبراهيم القهوجى يستعيد من ذاكرته بعض الصور التى علقت فى ذهنه، ومنها صورة جارته أم سعد التى كانت تتسوق حاجاتها بصحبة شقيقها حبيب، أو بصحبة زوجها الذى كان يعمل نجارًا. يستعيد أيضا إبراهيم القهوجى صور كل من «كاسترو» الصيدلى، و«هابر» الترزى، و«زاخاريا»

(١) على ذكر هذا، فلقد كانت جريدة الشعب تعبر عن اليهود الربانيين بينما كانت للقرائين مجلة «الشبان القرائين» التى جاء فى إحدى افتتاحياتها مقال باللغة الفرنسية من يوسف درويش بعنوان «التسامح فى الإسلام».

(٢) شاعر يونانى.

(٣) كانت إنجى أفلاطون مصرية مسلمة من عائلة عريقة وكانت شقيقتها متزوجة من د. إسماعيل صبرى عبد الله وزير التخطيط السابق، وهى من قريبات جميل راتب وعائشة راتب، كان لها نشاط كبير، وكانت عضوًا فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) وكانت أيضًا فنانة.

صاحب المطبعة، وكذلك صورة «برتو» تاجر المانيفاتورة وأولاده الثلاثة الذين كانوا دائمى الشجار فيما بينهم، حيث كان أحدهم وفديًا والآخر صهيونيًا والثالث عضوًا فى العصبة اليهودية ضد الصهيونية[1].

- باريس الدائرة رقم ١٥ (فرنسا): نشاهد فتاة صغيرة رائعة الجمال والرقة، تبحث فى كتاب التاريخ عن باب يتعلق بمصر، بينما يقوم والدها بالبحث فى أسعار البورصة، يتذكر الاثنان أنهما كانا يعيشان فى الإسكندرية أمام نادى سبورتنج الرياضى، كما يفكران فى طفلة صغيرة أخرى ماتت.

- باريس الدائرة رقم ٩ (فرنسا) ١٩٨٠: نحن أمام رجل اسمه يعود إلى جذور الدلتا فى مصر، وهو يفكر فى مصر التى تركها منذ تسع سنوات بعد أن عانى مرارة الاعتقال والآلام لمدة ثلاث سنوات، إنه لايزال على حاله. لم يتغير إثر ذلك الاعتقال وهذا المنفى.

- ملبورن (أستراليا): امرأة تفكر فى ابنتها التى تعيش فى باريس، كما تفكر أيضًا فى أولاد خالتها وعمتها الذين يعيشون فى كاركاس (فنزويلا)، وسترازبورج (فرنسا)، ولا تزال أحلامها تعيدها بذاكرتها إلى الإسكندرية.

- باريس ـ حى لو بير لاشيز ـ مايو ١٩٧٨: يحمل رجال ونساء فى أياديهم باقات من الورد؛ حيث يجرى دفن «هنرى كورييل»، مؤسس الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو).

- مارسيليا (فرنسا): إنه احتفال مصرى بعيد الابتهاج بالتوراة:

- يحمل المؤمنون مخطوطات «أسفار موسى الخمسة»، والواردة فى أغلبها من مصر، وهم يقومون بالغناء والرقص والتصفيق على كفوف أيديهم بأصابع غير ملتصقة، ولمدة ساعة تختلط الضحكات والنكات بالصلوات والأغانى، وعند تلك النهاية الصاخبة يتولى القوم غناء النشيد الدينى مصاحبًا لتلك الموسيقى التى تصبح عندئذ جزءًا من الشعائر التقليدية، إنه النشيد الوطنى المصرى.

(١) تأسست هذه العصبة عام ١٩٤٧ من بعض الشبان اليهود المصريين، لكن تم حلها ومنعها من قبل السلطات المصرية.

- الزقازيق: الحاج عمر الذى بلغ ٨٢ سنة يفكر فى صديقه «داوود» الذى اختفى مع الزوبعة عام ١٩٥٧.

إن يهود مصر مثل أجدادهم يجمعهم المصير نفسه، على الرغم مما بينهم من فوارق، لقد ظلت أشباحهم طيلة ٢٥ قرنًا تعيش فى مجرى النيل من جزيرة فيلة (فى أسوان) إلى دمياط ورشيد، ومن الإسكندرية حتى شبه جزيرة سيناء؛ حيث كانت تسمع أغانيهم ومشاجراتهم وهمساتهم، ومع ذلك إذا كان من شأن هذا الوضع أن يغمرنا بالرضاء فإنه يصبح من الحماقة البحث عن يهودى من مصر لم يتغير عبر التاريخ؛ فلقد اندمج يهود مصر وتشبعوا بالثقافات والغزوات؛ وكذلك بالانقسامات والهرطقة، أى ما أصاب مصر بلدهم وما أصاب طائفتهم.

هكذا قد يكون اليهودى من مصر مجرد خيال أو حتى ملحمة شعرية تشكلت من الشتات الذى شهدته إحدى الأقليات، كان هذا اليهودى فى مسقط رأسه متعدد الهويات؛ فهو متنوع على مر الزمان، ومتعدد فى المجتمع الذى انخرط فيه. وهو إذا كان تارة يؤكد على أصوله الوطنية، وتارة على استمتاعه بنظام الحماية، فهو أيا كان الحال يجد نفسه على الدوام أحد أفراد أقلية من الأقليات.

إن مجموعة النصوص التى نقدمها فى هذا الكتاب شاهدة على مصير تلك الأقلية، وعلى أسلوب حياتها، وعلى فترات المجد التى تمتعت بها، وعلى شتاتها، وانقراضها.

ليس من شأننا إضفاء نظرية ما على التاريخ الذى يعرض فى ذات الوقت قضية الأقليات ومصيرها، فى الزمن الذى ترتسم فيه التحولات السياسية ـ الاجتماعية ذات الطابع الراديكالى، وفى الوقت الذى يظهر فيه التنافر فى مصر فيما بين النزعة القومية العربية والروح الوطنية تجاه ضفاف النيل.

ذلك أنه إذا كانت الأقليات المهيكلة كأمم تعد من المفارقات التى انبثقت من توليفات وتوافقات حاذقة، قد انطلقت من تسامح الدولة الإقطاعية أو الدولة المرتبطة بالسوق، بل الدولة التى تشجع أسلوب الإنتاج الرأسمالى فى بلد لا يزال بنيانه متخلفا، فإن المواجهة فيما بين مجتمع تقليدى وقيم جديدة ثقافية واقتصادية، إلى المنافسة فيما بين البرجوازية المرتبطة تاريخيًا بالأوضاع القديمة من ناحية وبين الطبقات القيادية

الجديدة، من ناحية أخرى، يمكن أن تدفع إلى حل قضية الأقليات دون الانشغال بالفروق الدقيقة.

ويهمنا من ناحية أخرى، أن نلاحـظ أن عديدًا من اليهود ـ على غرار يعقوب صنوع ـ قد شارك فى معارك الحركة الوطنية المصرية؛ وكان لهذه المشاركة أن تتعمق وتتضاعف بفعل الشعور بمعاداة الإنجليز العميق والمشترك، غير أن صحوة القومية العربية سوف تساهم فى تغيير هذا الوضع، ذلك أن هذا الشكل من الوطنية الإقليمية ـ وهى التى لم يدركها اليهود جيدا ـ سوف تتسع أبعادها مع إندلاع الحرب بين مصر وإسرائيل؛ فمنذئذ، أخذت علاقات الشك المتبادلة تحل محل حسن الجوار وصولاً إلى الانفصال والتخندق بين الطائفتين.

عندما قمنا بإعداد هذا الكتاب لم يكن من أمالنا إعطاء صورة يتعرف بها أبطال الأمس على بعضهم البعض، ولا إقامة صرح ينحنى أمامه المارة بكل خشوع.

إن هدفنا الوحيد هو إعادة امتلاكنا التاريخ حتى نتفادى الوقوع فى فخ الحنين والورع، على أنه كان لابد لنا من اقتياد تلك الأفخاخ عبر مسارات ما كتب فى هذا الشأن وصولاً إلى أصول ماضينا العريق.

لا شك أن التعاطف ليس مستبعدًا على الدوام من صفحات هذا الكتاب، وحتى نستطيع استعادة ذلك الأسلوب الخاص للحياة اضطررنا للتوجه إلى شخصيات يبدو عليها أنها تحمل طابعًا من القدم وممن عفا عليهم الزمن بصورة واضحة، ومع ذلك فإن الفاعلين فى هذا التاريخ هم من معاصرينا الذين عاشوا ولا يزالون يعيشون اليوم كما كان يعيش أجدادنا.

وإذا كانوا قد أصبحوا لا يشبهوننا، فنحن لن نسمح لأنفسنا أن نعظمهم إلى حد اعتبارهم شخصيات لا مثيل لها، ولا أيضًا الإلقاء بهم فى سلة المهملات؛ المسألة هنا تتعلق بالتأكيد على وجودهم.

لقد كان أمامنا أن تكون تلك الشهادة التى نقدمها متعددة الجوانب، ولقد بدت بعض التباينات التى ظهرت على السطح أنها غير قابلة للاحتواء، ونحن نتساءل فى هذا المجال، أليس هذا التنوع يعكس صورة تاريخ مصر، كما هو الحال بشأن كل تلك

الأقليات؟ أليست تلك التعددية المقبولة ـ والتى كانت محل احترام وتسامح ـ هى التى أتاحت عقد علاقات بتلك القوة فيما بين مصر وسكانها؟

ومن أجل ذلك فإننا نقدم هذا الكتاب هدية لكل الذين يجهلون الكثير عن الحياة المثيرة للاهتمام لتلك الطائفة، ونهديه أيضًا للمصريين ـ مسلمين وأقباطًا ـ الذين يتعرضون للنسيان بأن كان هناك من يعيش بجانبهم ممن يطلق عليهم يهود مصر، والذين يعرفون عن أنفسهم بتلك الصفة.

نقدم الشكر هنا لكل من «أدموند هرارى» و«روبير حكيم» و«يوسف درويش»[1] (المقيم فى باريس) و«فيلكس أشكنازى» (من تكساس فى الولايات المتحدة الأمريكية)، وهم الذين قدموا لنا كل ما يعرفونه عن اليهود فى حارة اليهود بالقاهرة، وكذلك الشكر إلى «روبير عتال» (المسئول عن مكتبة معهد بن زيفى بالقدس)، و«جوزيف ناعوم» (باريس) و«جيمس حكيم» (من رجال القانون فى لوس أنجلوس بأمريكا والعضو السابق فى المحكمة الربانية العليا بالقاهرة)، وكذلك «مدام ليفين» (مسئول مكتبة التحالف الإسرائيلى العالمى فى باريس)، ونقدم لهم هذا الشكر لمساهمتهم المهمة فى تزويدنا بالكتب والمراجع، كما نقدم الشكر إلى «جمعية الحفاظ على التراث الثقافى ليهود مصر» (باريس)، وأيضًا إلى هيئة تحرير مجلة «نهار مصرايم» (باريس).

---

(١) يوسف درويش الوارد اسمه هنا ليس هو يوسف درويش (المترجم) المعروف فى مصر، فالشخص الذى يذكره الكتاب هذا هو غير الشخص الذى يحمل نفس الاسم والوارد ذكره فى باب «أحداث الحياة اليومية»، بقلم «جاك حاسون»، ويوسف درويش المقصود هذا هو شخص مقيم فى باريس حيث هاجر إليها من مصر منذ فترة طويلة، وعندما أراد أن يحصل على الإقامة فى فرنسا نصحه الموظف المختص بأن يتخذ لنفسه اسم يوسف درويش المعروف جيدًا لدى السلطات والأحزاب الفرنسية، والمشهور بنشاطه السياسى والاجتماعى، كما أنه عضو بارز فى رابطة الحقوقيين الديمقراطيين العالمية، وهى معلومات عرفتها منه هو نفسه فى مقابلة معه أثناء زيارتى لباريس خلال الثمانينيات (المترجم).

يهود مصر فى العصور القديمة

الروائع الإغريقية
ومواطن البؤس والهوان الرومانية

بقلم: جوزيف ميليز مودرزجويسكى[1]

إن وجود اليهود فى مصر اثنى عشر قرنًا قبل الفتح العربى، يعنى أن الطائفة اليهودية فى مصر أقدم حالات الشتات من غرب «يهودا»، وهى على نفس قدر قدم الشتات من الشرق، بل قد تكون أقدم منها بكثير؛ ويمكن أن نميز ثلاث مراحل فى هذا التاريخ القديم لليهودية المصرية:

المرحلة الأولى التى تعد بمثابة مقدمة تقع فى العصر السفلى المصرى، وهو الذى يطبع نهاية الاستقلال الوطنى لمصر القديمة، إنها تلك المرحلة التى تبدأ فى القرن السادس قبل الميلاد وتمتد حتى منتصف القرن الرابع.

أما المرحلة الثانية وهى الأكثر أهمية، والتى سوف يكرس لها هذا الباب، فهى تعنى مصر الإغريقية والرومانية؛ ونظرًا لتطورات يهودية خاصة، فإنها تتوقف بالنسبة إلينا فى بداية حكم «أدريان» فى العام ١١٧ من الميلاد. ويمكن تقسيمها هى الأخرى إلى ثلاث فترات، تعد الأولى منها فترة «التجذر» من الغزو المقدونى إلى حكم بطليموس الرابع فيلوميتور (١٨٠ ـ ١٤٥) قبل الميلاد، ثم تأتى فترة «وسطية» وهى فى ذات الوقت عصر ازدهار ثقافى وأزمة سياسية وهى فترة تجمع قرنين من الزمن، تفصل فيما بين حكم

---

(١) ولد جوزيف مودرزجويسكى فى العام ١٩٣٠ ببولندا؛ وظل أستاذا مساعدا فى التاريخ فى وارسو حتى عام ١٩٥٧. وصل إلى فرنسا فى العام ١٩٥٨ حيث عمل كباحث فى المعهد الوطنى للبحث العلمى، ثم كأستاذ فى التاريخ القديم بجامعة السوربون؛ وقد ألف عدة أعمال علمية حول القانون، والمجتمعات، ومؤسسات العالم القديم.

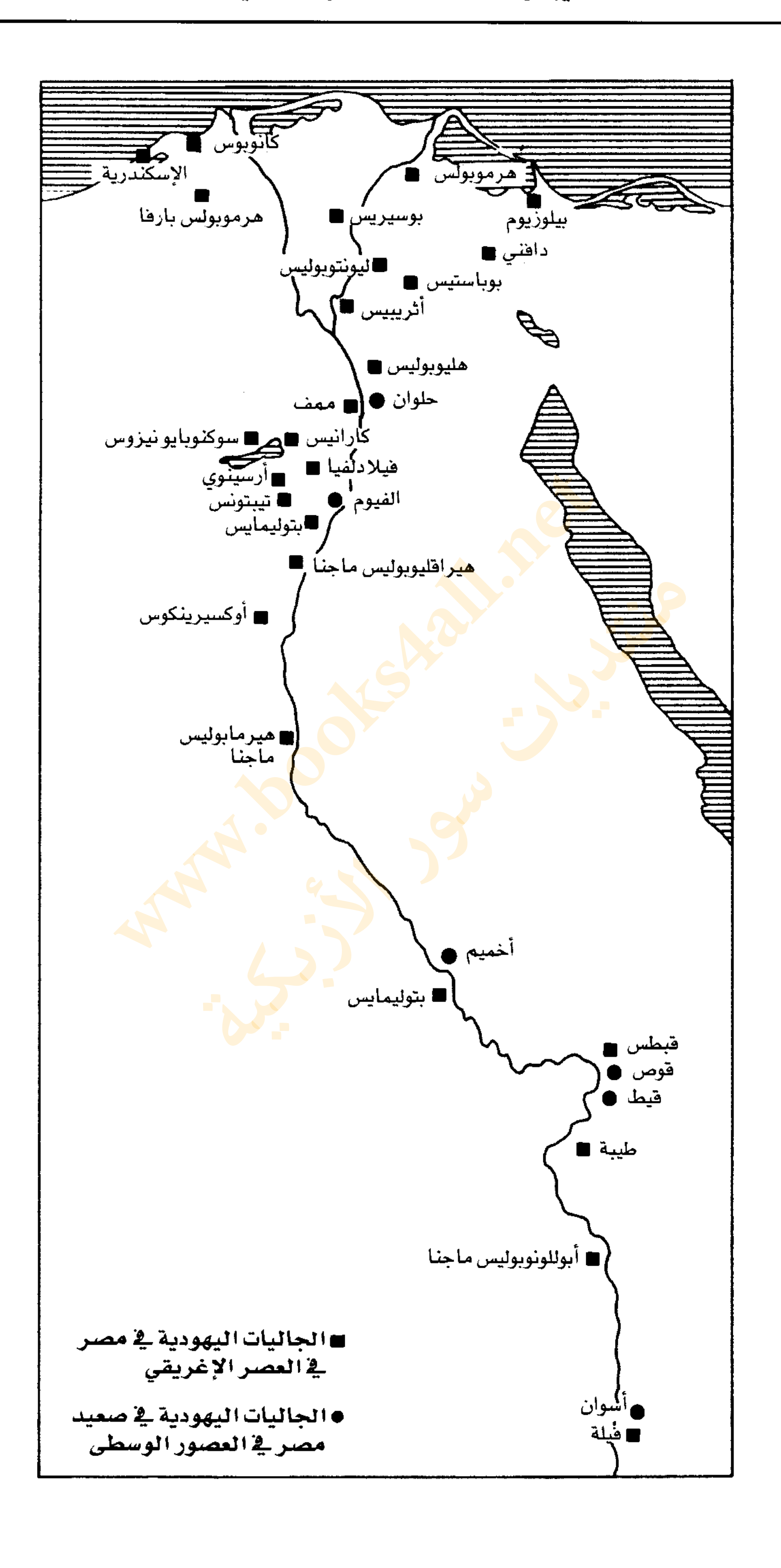
بطليموس السادس والغزو الرومانى لمصر فى أغسطس من العام ٣٠ قبل الميلاد. أما الفترة الأخيرة فقد كانت شاهدة على الانحدار وهى تمتد مائة وأربعين سنة من الغزو الرومانى حتى التمرد اليهودى فى الأعوام ١١٥ - ١١٧.

ثم تأتى بعد ذلك ـ كنهاية طويلة تمتد لأكثر من خمسة قرون ـ المرحلة الثالثة من القضاء على التمرد اليهودى فى العام ١١٧ حتى الفتح العربى لمصر فى ٦٤٠/ ٦٤٤ بعد الميلاد.

مصر الفارسية ومصر الإغريقية

تتطابق الأصول التاريخية للشتات اليهودى فى مصر بالأهداف التى انطبعت بها نهاية مملكة يهودا؛ حيث كان استيلاء «نبوخذ نصر» الثانى على القدس وأسر بابل، فمن المعلوم أنه قد وجدت فى مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد، جالية من الأجراء اليهود المقيمين فى جزيرة فيلة، والتى كانت فى تلك الحقبة إحدى مقاطعات الإمبراطورية الأخمندية، غير أنه مما لاشك فيه أن الجاليات اليهودية فى مصر كانت موجودة فى مصر قبل غزو البلاد من «قمبيز» فى العام ٥٢٥. فهل يمكن القول إن تلك الطوائف كانت موجودة فى مصر قبل عملية النفى من «يهودا» بافتراض أنه قد تم إرسال عساكر «يهودا» إلى مصر فى بداية القرن السادس قبل الميلاد أو فى نهاية القرن السابع موفدين من أحد ممالك «يهودا» لمساعدة فرعون مصر؟ إلا أنه من الحصانة فى هذا الشأن ربط بداية وجود تلك الجاليات بالاضطرابات التى اندلعت بعد تدمير دولة يهودا فى يولية ٥٨٧، والتى كان من شأنها أن جعلت النبى «جيريميا» ومعه مجموعة من الضباط اليهود يتوجهون إلى مصر بعد اغتيال «جيد إلياس» حاكم بابل.

يذكر كتاب «جيريميا» عديدًا من الأماكن فى مصر التى أقامت فيها الجاليات اليهودية، غير أن الأكثر شهرة هى جالية جزيرة فيلة بفضل «وثائقها» التى تم الاحتفاظ بمجموعة كبيرة منها باللغة الآرامية. هناك الكثير الذى يمكن أن نقوله عن يهود جزيرة فيلة: عن معبدهم، عن الأوضاع الدينية التوفيقية، عن ممارساتهم الحياتية ودورهم العسكرى كوحدة من الجيش فى قلعة على مشارف النوبة، وعن حياتهم العائلية وعلاقاتهم بجيرانهم المصريين، والتى كثيرًا ما كانت تتسم بالصعوبة.



كانوبوس
الإسكندرية
هرموبولس بارفا
هرموبولس
بيلوزيوم
بوسيريس
دافني
ليونتوبوليس
بوباستيس
أثريبيس
هليوبوليس
ممف
حلوان
سوكنوبايو نيزوس
كارانيس
فيلادلفيا
أرسينوي
تيبتونس
الفيوم
بتوليمايس
هيراقليوبوليس ماجنا
أوكسيرينكوس
هيرمابوليس
ماجنا
أخميم
بتوليمايس
قبطس
قوص
قيط
طيبة
أبوللونوبوليس ماجنا
أسوان
فيلة
الجاليات اليهودية في مصر في العصر الإغريقي
الجاليات اليهودية في صعيد مصر في العصور الوسطى

إن الوثائق الآرامية تقدم بشأن تلك النقاط معلومات مهمة والتى للأسف لم تستخدم بعد علميًا بما يكفى.

لابد لنا مع ذلك أن نتخلى عن التركيز هنا على تلك النصوص، علمًا بأنه من حسن الحظ أن تلك الوثائق ميسرة للقارئ الفرنسى بفضل المجموعة التى قام فيها «بيير جريلو» بجمع تلك الوثائق والنصوص فى العام ١٩٧٢ فى سلسلة «الآداب النقدية فى الشرق الأدنى».

إن الوثيقة الآرامية الأخيرة لجزيرة فيلة التى تعود لهذا العصر هى رسالة كتبها أحد اليهود من مدينة «ممفيس» واسمه «شاوا بن زخاريا» إلى صديقه «يصلاح» يرجو له «تحية كل الآلهة». ويبلغ صاحب الرسالة إلى الشخص الموجهة إليه عن تولى الفرعون «نفيريتس» العرش، إذ نحن فى هذا العام ٣٩٨ قبل الميلاد (انظر كتاب «جريلو» رقم ١٠٥)؛ وقد انقطعت بفضل «نفريتس» الهيمنة الفارسية على مصر، وهو مؤسس العائلة المالكة الـ ٢٩ (وهى التى كانت قائمة مؤقتًا على أيدى الملك الوطنى «اميرتى الثانى» الذى لم يحكم سوى على جزء من البلاد، وسوف تعود تلك العائلة المالكة إلى الحكم مع «ارتاكسيركس الثالث» لفترة سابقة على الغزو المقدونى). إننا منذئذ نفقد أثر العمال اليهود فى جزيرة فيلة.

قد لا تكون تلك الجالية قد اختفت نهائيًا؛ فمن المعروف أنه فى نهايات القرن الرابع قبل الميلاد، قام أحد التجار اليهود واسمه «أبيهاى بن شلامسيون» وشريكه «يوناثان» بنشاط مكثف فى كافة أنحاء مصر. هذا فعلًا ما جاء فى إحدى البرديات الآرامية التى كانت فى حوزة «أبيهاى» (انظر كتاب «جريلو» رقم ١٣).

يذكر النص عديدًا من أسماء اليهود المصريين واليونانيين وهم من زبائن «أبيهاى» والسؤال هنا هل «أبيهاى» هو أحد أحفاد العمال اليهود من العصر الفارسى. وهل اليهود الذين يذكرهم فى سجل الحسابات الخاص به هم أيضًا من تبقوا من الطوائف التى كانت موجودة فى مصر قبل «الإسكندر»، أو أنهم قد جاءوا معه على غرار الإغريقيين الواردة أسماؤهم فى تلك الوثيقة. حقًا من الصعوبة بمكان الرد على هذا السؤال، غير أنه من المؤكد أن الجالية اليهودية فى مصر قد بدأت حياة جديدة منذ بداية القرن الثالث

قبل الميلاد، ولاشك قبل نهاية القرن الرابع. لقد تغير الحاكم فى بلاد النيل وسوف تتأثر بعمق الحياة اليهودية لعدة قرون.

فى نهاية العام ٣٣٢ قبل الميلاد وقبل استيلاء الفينيقيين على ساحل فينيقيا، رحل إلى مصر «الإسكندر» ملك المقدونيين بمصاحبة الأسطول البحرى بقيادة صديقه «هفستيون». جاءت مقاومة الحاكم الفارسى ضعيفة للغاية. فتحقق النصر بسرعة فائقة، ودون أى جهد، متيسرًا بفضل كراهية مصر للحاكم الفارسى؛ وهو الأمر الذى استطاع «الإسكندر» استغلاله لصالحه؛ حيث ظهر بصورة «المحرر» الذى يؤكد احترامه للتقاليد المصرية، فقام باستشارة الإله «أمون» فى واحة «سيوة»، وعمد على الإعلان عن نفسه فرعونًا من الكهنة المصريين، وأصدر أوامره بإعادة بناء معابد الأقصر والكرنك. كما قام قبل مغادرته البلاد فى ربيع ٣٣١ بتشييد مدينة سوف تحمل اسمه والتى سوف تكون العاصمة الثقافية للعالم الهلينى.

استمر الغزو المقدونى ثلاثة قرون تحت حكم العائلة اللاجيدية المنبثقة من أحد قادة «الإسكندر» وهو «بطليموس بن لاجوس». وفى أوائل أغسطس من العام ٣٠ قبل الميلاد، تم الاستيلاء على مملكة اللاجيدية على أيدى «أغسطس» الذى وضع المملكة تحت «سلطة الشعب الرومانى». ولما كانت مصر إحدى مقاطعات الإمبراطورية، فقد ظلت إغريقية فيما يتعلق بثقافة ولغة المجموعة الحاكمة المكونة من أبناء الغزاة القدامى التى اختار من بينها الرومان كوادر الإدارة المحلية. سوف يستمر هذا الوضع حتى الفتح العربى فى ٦٤٠ ـ ٦٤٢ بعد الميلاد. تلك هى الظروف المحيطة التى تكونت فى ظلها الطائفة اليهودية فى مصر، وهى عبارة عن أول شتات قادم من الغرب.

الشتات الجديد

تتجدد الهجرة اليهودية مرة أخرى فى عهد الإسكندر، ووفقًا لما يقوله «فلافيوس جوزيف»، وكذلك الشهادات السابقة عليه التى يذكرها بإسنادها إلى «هيكاتيه دابدير»، من المحتمل أنه كان يوجد جنود يهود وحارائين فى جيش الإسكندر سواء فى بابل أو فى مصر؛ فليس هناك أى سبب يجعلنا نشك فى تلك المعلومات، كانت الهجرة اليهودية فى القرن الثالث ميسرة للغاية من واقع أنه لفترة أكثر من مائة سنة من ٣٠١ إلى ١٩٨ قبل الميلاد كانت فلسطين جزءًا من إمبراطورية اللاجيدية التى لم تكن تفصلها أى

حدود عن مصر؛ فتشكل على الفور شتات جديد نعلم عنه الكثير بفضل الكم الكبير من وثائق البرديات التى ساهمت فى سد الثغرات، وإلقاء الضوء على ما كان غامضًا فى المراجع الأدبية. إن الأجزاء الثلاثة لكتاب «مجموعة البرديات اليهودية» والتى تم نشرها فيما بين ١٩٥٧ و١٩٦٤ من «فكتور تشريكوفر» ومعاونيه «الإسكندر فوكس» و»مناحم سترن» تعد أداة عمل من الطراز الأول، وسوف نعود إليها هنا باستمرار.

من هم هؤلاء الرجال الذين جاءوا إلى مصر بديلًا عن النبى «جيريميا» وأصحابه؟ ما هذا المصير الذى جعلهم يأتون إلى مصر؟ إنهم من الأسرى، ومن العبيد الذين تم تحريرهم بأمر من الملك وأقاموا فى مصر. إنهم اللاجئون الذين هاجروا من فلسطين بدافع من الضغوط السياسية الداخلية، ولكن قد يكونون أيضا من الناس الذين يغريهم الحصول على ثروة سهلة المنال. أين يقيم هؤلاء القوم؟ لاشك أن الإسكندرية تستهويهم للإقامة فيها ويدعى «فلافيوس جوزيف» أن الإسكندر نفسه هو الذى سمح لهم بالإقامة فيها. قد نصدق بسهولة «هيكاتيه» الذى يذكره والذى يحدثنا عن الحاخام الأكبر «حذقياس» الذى وصل الإسكندرية من «يهودا» فى حوالى العام ٣٠٠ قبل الميلاد بعد معركة «غزة»، مما يفرض وجود تنظيم للطائفة مزود بالقادة الروحيين المؤهلين فى ظل حكم «بطليموس الأول سوتر» (حاكم مصر منذ العام ٣٢٣ ثم ملك من ٣٠٥ إلى ٢٨٢ قبل الميلاد). نحن أمام استقلالية على غرار النمط الإغريقى، أى تحت مسئولية والى أو قائد؛ حيث يكون لتلك الطائفة حى خاص باليهود لن يمنح لهم إلا لاحقا، على ما يبدو فى القرن الثانى، من قبل الملك «الفيلوزومى» وهو «بطليموس السادس فيلوميتور» (١٨٠ ـ ١٤٥ قبل الميلاد).

على أية حال، تشهد النقوش الجنائزية على الوجود اليهودى بالإسكندرية منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد؛ ولكن كانت هناك أيضًا مظاهر لإقامة اليهود فى الفيوم وفى مناطق أخرى، أى ما يسمى بـ«الشورا» (الأراضى المسطحة). إن قائمة القرى التى ظهر اليهود فيها وفقًا للوثائق قد تكون طويلة لا تحصى.

كم كان عددهم؟ تشير الأرقام التى يذكرها «خطاب اريستى الى فيلوكرات» (الفقرات ١٢ ـ ١٤) ـ والذى سوف نعود إليه كثيرًا فى هذا المقال ـ إلى عدد ١٠٠,٠٠٠ سجين يهودى، وهو رقم مبالغ فيه دون شك مقارنة بعدد سكان فلسطين آنذاك الذى

لم يكن يفوق غالبا عدد سكان دولة إسرائيل اليوم. يتكلم «فيلون» فى كتابه («ضد فلاكوس» ٤٣) عن مليون يهودى، علمًا بأن هذا الرقم يتناسب مع ثلثى مجموع المهاجرين المتحدثين باللغة الهلينية، ومنهم اليهود الذين لم يمثلوا سوى جزء قليل من هؤلاء. من الصعوبة بمكان مجرد ذكر «مدى حجم» مفترض يتراوح ما بين ١٥٠,٠٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ أكثر من نصفهم موجود بالإسكندرية. ففى بلد قد يبلغ عدد سكانه فى بداية العهد الرومانى ٨ ملايين نسمة (إذ يتحدث «فلافيوس جوزيف» فى كتاب «حرب اليهود» عن ٧ ملايين ونصف داخل البلاد فى الأراضى المسطحة فى عهد «نيرون»)، منهم أكثر من مليون من المهاجرين، وما يقرب من ٧ ملايين من الأهالى الأصليين، قد نجد أن اليهود يمثلون ما يقرب من ٣٪ من مجموع السكان، أى ضعف ما كانوا عليه فى فرنسا فى العام ١٩٨٠.

ما الذى يقومون به؟ كان عديد منهم فى خدمة الملك، أو عاملين فى المعارك، أو من رجال الشرطة، أو موظفين محليين ومحصلى الضرائب؛ سوف تؤسس فى القرن الثانى قبل الميلاد جالية عسكرية يهودية فى «ليونتوبوليس» (تل اليهودية) بالقرب من «ممفيس» بمبادرة من الحاخام الأكبر «أونياس» الذى كان قد لجأ إلى مصر. سوف نتحدث فى مناسبة أخرى عن «أونياس» الذى كتب عنه الكثير بسبب معبده فى «ليونتوبولس»؛ وتؤكد لنا إحدى البرديات البطلمية أنه كان بالفعل هو القائد الحربى لمقاطعة «هليوبوليت» (حيث توجد «ليونتوبوليس»)، وكان من الشخصيات المقربة من الملك؛ غير أنه قبل «أونياس» بفترة طويلة كان من المعروف منذ النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد (أقدم وثيقة تعود إلى ٢٦٠ قبل الميلاد) أن جنودًا من اليهود قد حصلوا من الملك على بعض قطع من الأراضى فى مختلف قرى الفيوم فى كل من «كروكوديبوليس» و«كركى أوزيريس» و«سامريا كركسيفيس»، وفى «تريكوميا». كان يهود آخرون يقيمون بنفس الطريقة فى بلدة «هليوبوليت» التى هى أكثر اقترابًا من النيل (انظر مجموعة البرديات اليهودية: ١٨ ـ ٢٦ و٢٨ ـ ٣٢).

هناك أيضًا يهود يعيشون فى الصعيد، ففى العام ٣٣٥ قبل الميلاد، نجد يهودى يدعى «يازيبيس» (من «يعسوب» بمعنى فليعد الرب)، وهو ضابط من الفرسان، بصحبة شخصيات محلية أخرى وهو يتابع مزادا علنيا فى «ديوسبوليس الكبيرة» (وهو الاسم الرسمى الإغريقى لمدينة «طيبة») (انظر مجموعة البرديات اليهودية ١ ـ ٢٣). وسوف

نرى فيما بعد كلمة إهداء على جدار الكنيس تفيد بأن هناك ضابطًا يهوديًا آخر يعمل فى جهاز الشرطة.

نجد أيضًا يهودًا يمارسون نشاطات أقل مستوى، يعملون أجراء أو عمالًا زراعيين أو حرفيين. وفى إحدى قرى الفيوم المعروفة بـ«القرية السورية» كان هناك صانعا فخار يهوديان، هما «سباثيوس» وابنه «دوزاس» اللذان كانا يشاركان المصرى «بتيسوشس» فى ورشة لصناعة الفخار، وذلك فى مدينة «نيلوبولس» (مجموعة البرديات اليهودية ١ ـ ٤٦ القرن الأول أو الثانى قبل الميلاد). كما حظى أحد اليهود واسمه «بازيس اليهودى» بثقة «زينون»، القائم على شئون الأملاك التى أهديت له من الملك «بطليموس الثانى فيلادلف»؛ فأشرف على شئونه المالية (نوع من وزير المالية)، وكانت تلك الأملاك تقع فى «فيلادلفى» بالفيوم (مجموعة البرديات اليهودية ٩). وأخيرًا، علينا ألا ننسى رجال الفكر: الفيلسوف «فيلون»، وآخرين أيضًا مثل: المؤرخين «ديمتربوس» و«أرتابانوس»، والشعراء «أزخييل» و«فيلون» (مع عدم الخلط بينه وبين «فيلون» الآخر)، وكذلك الفيلسوف «أريستوبول»؛ علينا أن نذكر أيضًا من سوف تظل أسماؤهم مجهولة بالنسبة إلينا؛ وهم مؤلف كتاب «الجيل الثالث» فى نسخته الأولى، ومؤلف كتاب «رسالة إلى فيلوقراط» وهو يهودى يدعى أنه يونانى، وكذلك مؤلف «الكتاب الثالث عن المكابيين»، وكاتب قصة «جوزيف واسنيث». ولا بد أخيرًا أن نذكر كبار مترجمى التوراة الذين عرفوا تاريخيًا بـ«السبعة»، والذين ضموا عدة أجيال من الكتاب، بالإضافة إلى أولئك الذين ترجموا «التوراة» فى القرن الثالث قبل الميلاد، وأيضًا الذين استمروا فى عملهم من أجل كتاب «الأنبياء والمخطوطات الأخرى»، وذلك فى القرن الثانى حتى بداية القرن الأول.. سوف نعود إلى ذلك فيما بعد.

نرى بشكل عام أن اليهود قاموا بما كان يقوم به الإغريقى أو ـ بصورة أدق ـ ما كان يقوم به المهاجرون الآخرون الناطقون بالهلينية، وهم الذين توافدوا على مصر على أثر الغزو المقدونى. لم يكن هناك «مهنة يهودية»، فلقد لوحظ بحق أن اليهود فى مصر الهلينية «كانوا متواجدين فى عدد كبير من مجالات النشاط، مما لم يشكل داعيًا للإزعاج بالنسبة للآخرين» (موميجليانو ـ ندوة سيريزى ١٩٧٥).

هذا من شأنه أن يعطينا فكرة عن اندماج الطائفة اليهودية فى «المجتمع السائد» فى مصر اللاجيدية. فى مواجهة تلك المعطيات الاجتماعية، هناك على المستوى الثقافى

مجموعتان من المعطيات الخاصة باللغة التى كان اليهود يتحدثون بها وكذلك الأسماء التى كانوا يحملونها.

عن اللغة والاسم

سريعا ما اختفت اللغة الآرامية من المعاملات التجارية وفى الممارسات اليومية، وهى التى كانت لغة يهود جزيرة فيلة ولغة يهود «يهودا» فى الوقت الذى بدأ فيه تشكل الشتات فى مصر. وعلى كل حال، لم تعد اللغة الإغريقية عند المهاجرين لغة أجنبية، فقد كانوا يسمعونها فى فلسطين وفى الأردن وبعد ذلك أيضًا فى جبال «يهودا»، على أنه يبدو أنه لم يتم استبعاد اللغة الآرامية بصورة نهائية، وهو ما تشهد عليه إحدى البرديات سبق أن جاء ذكرها (مفكرة تجارية لـ «أبيهاى»)، وبنص البرديات التى ضمنها ـ من حسن الحظ ـ «جريلو» فى كتابه (رقم ١٢ ـ ١٣ ـ ٢٤). هذا القدر قليل مقارنة بالـ ١٤١ بردية بطلمية إغريقية التى تشكل الجزء الأول من مجموعة البرديات اليهودية (والواقع أن عددها أكبر كثيرًا، حيث تتضمن بعض الأرقام عديدًا من الوثائق المرقمة أ، و ب، و ج) على أنه من المهم أن نلاحظ ـ كما لاحظ «بيير جريلو» ـ أن استخدام يهود مصر للآرامية قد استمر فى العصر الإسكندرى، ويتوجب علينا أن نقدر أن اللغة الآرامية قد استعملت فى تلك الفترة نفسها من شرقيين آخرين من غير اليهود جاءوا إلى مصر. هذا بالفعل ما تكشف عنه مراسلات إحدى العائلات من أصول سورية، والتى تظهر على هيئة مخطوطات مرسومة على كأس فى «هرموبولس»، وتم نشرها فى ١٩٦٦ (جريلو رقم ٢٥ ـ ٣١).

على الرغم من ذلك، فقد كان انتصار اللغة الإغريقية ساطعًا. أما الأسباب الاجتماعية والسياسية لتلك الظاهرة، فهى واضحة كل الوضوح، والتى سوف نتكلم عنها فيما بعد. ومن الجلى أيضًا أنه فى المجال الثقافى عندما نفكر فى الأدب اليهودى الإسكندرى فى التوراة المعروفة «بالسبعينية»، فإنما تكون المرجعية لتلك الترجمة، وليس إطلاقًا الأصل العبرانى الذى لا يرجع إليه الفيلسوف «فيلون» فى مؤلفه. ولذلك فلقد جرى التساؤل حقًا إذا كان «فيلون» يعرف اللغة العبرية. وفى الواقع لم تترك اللغة العبرية أى آثار لها فى برديات مصر قبل القرن الثانى من الميلاد (بردية ناش: انظر مجموعة البرديات اليهودية ١ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨).

هل يمكن أن نعثر فيما وراء خصوصية أسلوب لغة «السبعينية» على وجود لغة يهودية ـ إغريقية؟ لو صح ذلك، لأصبحت تلك اللغة الأولى فى سلسلة الإبداعات اللغوية التى نعرف ما تلاها، أى: اليهودية ـ الأسبانية، واليهودية العربية، واليهودية الألمانية.. إن اللغة المستخدمة فى الوثائق وفى الرسائل الصادرة عن يهود مصر لا تظهر اطلاقًا أى شىء يمكن أن يعد نموذجًا للغة إغريقية خاصة بهم؛ ومع ذلك، فقد كان يتم تحرير الوثائق بواسطة موثقى عقود إغريقيين، أو وفقا للنماذج الإغريقية. إن الخطابات اليهودية الخاصة التى كتبت باللغة الإغريقية والتى تم حفظها نادرة للغاية، فلا يوجد منها سوى خطابين أو ثلاثة خطابات لمجمل العصر البطلمى، وبداية العصر الرومانى. وفى المقابل هناك شىء أكيد وهو الغياب الكامل عند يهود مصر لأى اهتمام باللغة المصرية؛ فلا يوجد فى علمى أية وثيقة ديموطيقية (وهى اللغة التى كان يستعملها المصريون فى حياتهم اليومية ـ المترجم) صادرة عن يهود أو تخص يهودًا. لا يختلف اليهود فى هذا الشأن عن باقى المهاجرين الذين اتخذوا الهلينية لغة لهم، حيث الفضول نحو اللغة الأصلية للبلاد محدود للغاية ومحكوم فى الأساس بأسباب يمكن وصفها بأنها من «الماديات»، ومنها تفسير الأحلام، أو الطب المصرى الذى لا يبوح بأسراره سوى للذين يجيدون لغة البلاد.

أما النقطة الثانية، فهى خاصة بالأسماء. لا نجد فى مراجعنا سوى قليل من الأسماء التوراتية، خاصة تلك الأسماء التى تعد اليوم يهودية نمطية، مثل: سارة، وراشيل، وأبراهام، وإسحاق، ويعقوب.

وعندما تظهر تلك الأسماء، فلا تكون فى أشكال قريبة من الأصل العبرى مع أنها وردت فى كتاب «السبعينيات»؛ بل تتحلى بالنغمة الإغريقية فتصبح «أبراميس»، أو «أبراموس»، أو «أبراميوس»؛ وعلى نفس المنوال نجد «إزاكيس» و«يعقوبيس» أو «يعقوبوس». هناك أيضًا طريقة أخرى لأغرقة اسم عبرى مما هو أفضل من ربطه بنهاية إغريقية. وتتمثل هذه الطريقة فى إضفاء الطابع الإغريقى ـ دلالة أو صوتا ـ على الاسم الأصلى مثل «يهوناثان» أو «مثاثياهو» اللذين يصبحان «ثيودورس». و»دوزيثيوس»؛ كذلك، فإن «يشوا» يتحول إلى «يازون».. إن الأمثلة على هذا النحو كثيرة عند يهود مصر.

لا يجب مع ذلك الاعتقاد بأن وراء كل «دوزيثيوس» أو «ثيودورس» يختفى

«مثاثياهو» أو «يهوناثان»؛ فالاسم اليونانى يستخدم فى العلاقات مع الوسط الخارجى، والاسم اليهودى يحتفظ به للاستعمال الداخلى. وخلافًا لما يمكن اعتقاده من بعض العلماء، فإن استعمال هذا الاسم المزدوج يفترض أسلوبًا مزدوجًا لتحديد هوية اليهودى؛ إلا أن ذلك لم يمارس يومًا ما فى مصر الهلينية على ما يبدو. نجد بالفعل فى القرن الثالث (انظر مجموعة البرديات اليهودية ١٢٦ K) أحد اليهود مديونًا وعاجزًا عن سداد دينه، وهو «يهب» هذا الدين بموجب وصية إلى زوجته وبناته (وهو فى الواقع لم يهب سوى ما له من دين). اسم المدين «إيوناثاس» وهو الشكل الإغريقى لـ«يهوناثان»؛ كما يحمل فى ذات الوقت اسمًا إغريقيًا يبدأ بكلمـة «أبـول». إذا استعادنا «أبولودوتس» أو «أبولودورس» (فضلا عن «أبولونيوس»)، سنحصل فى الواقع على نوع من التعادل بين الاسمين، ومن هنا فإن اسم «لقد أعطى الرب» يتناسب مع «لقد أعطـى أبولون». هناك حالة قد تكون شبيهة وهو اسم «يوانا» («يوحنا» ـ لقد أبهج الرب)، والتى تقـال أيضًا «أوفروزينه» (العفو، أو البهجة) والتى سوف نعثر عليها فيما بعد. ولكننا حينما نعثر لاحقا على أحد اسمه «سمباثيون» (شابتاى)، أو بعبارة أخرى «يشوع» (وهو اسم المسيح أيضًا ـ المترجم) فنحن أمام اسمين يهوديين حقا؛ ومن هنا يتضح تمامًا أنه من الخطأ محاولة البحث فى دراسة أسماء يهود مصر على أثر ما من الازدواجية من شأنه التأكيد على أى نوع من الغموض اليهودى. إنه نفس الشىء عند الإغريق أنفسهم، فالاسم المزدوج مختلط إغريقى ـ مصرى، وهو ما أصبح عادة عامة دون أى معنى فكرى، تمامًا كما هو الحال عندنا فى أسماء «آن مارى» و«جان بول».

هناك حالة خاصة باسم «سيمون»، وهو فى ذات الوقت اسم إغريقى أصيل (على الشكل الإغريقى: شمعون). إن هذا الاسم ـ ومعه «ساباثايوس» بتشكيلاته المتعددة و«جوزيف» (يوسيفوس ـ يوسيبوس) ـ هو أحد الأسماء العبرانية الثلاثة التى تنال أفضلية أكيدة عند يهود مصر. ومما يلاحظ أيضًا أن الأسماء الإغريقية الخالصة أو الإغريقية المصرية عديدة، ففى صفوف المستوطنين من العساكر اليهود فى مصر البطلمية مثلت الأسماء الإغريقية ¾ مجموع الأسماء الواردة حسب المراجع. يعود بعض تلك الأسماء إلى العادات العبرية فى العائلات المالكة، مثل «ألكسندروس» (الذى تحول فيما بعد إلى اسم يهودى) وهكذا الأمر بالنسبة لأسماء «بطوليمايوس» و«أرسينوى». إنها أسماء دارجة عند اليهود وعند غير اليهود، ومن الخطأ الظن فى هذا

المجال عن علامة بالوفاء الحاد من ناحية اليهود لملوكهم الإغريقيين. إن بعض الأسماء الأخرى مشتقة ـ وهو ما قد يصدمنا ـ من أسماء آلهة وثنية. فإن بعض اليهود يحملون أسماء «أبولونيوس»، و«أرتميدورس»، و«ديودوتس»، و«دمتريوس»، و«هيراكليدس»، و«هرمايوس».. على أن الأب الذى كان يعطى هذا الاسم لابنه لم يكن يفكر ـ أغلب الأمر ـ فى «أبولون»، أو «أرتيميس»، أو «زيوس»، أو «ديميتير»، أو «هراقلس»، أو «هرمس»؛ كما أن اليهودى الفرنسى لا يفكر فى القديس الأيرلندى عندما يختار لابنه اسم «باتريك».

إن استعمال اللغة الإغريقية، والأسماء الإغريقية، أو التى يتم تطويعها على تلك الأسماء، برز سريعا على نقوش مدينة الإبراهيمية بالإسكندرية؛ حيث كان الجنود المرتزقة اليهود وأفراد عائلاتهم يتم دفنهم بجوار الوثنيين من زملائهم فى السلاح. تعود تلك الشواهد على القبور (مجموعة البرديات اليهودية ١١١ ـ ١٣٨) ـ كما سبق ذكره ـ إلى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد. إن شهادة (رقم ٤٤٤) منقوشة باللغة الآرامية. لا شك أن المعنى هنا يشير إلى أحد المهاجرين الذين جاءوا حديثا كما يتضح ذلك من اللغة والاسم؛ الشاهد الثانى (رقم ١٤٢٥) مكتوب هو الآخر باللغة الآرامية، وهو يحمل تاريخ «اليوم ١٠» (لا توجد إشارة إلى الشهر أو السنة)؛ وعلى تلك الشواهد نجد بدايات اسم لم يبق منه سوى أربعة حروف وهى ألف، باء، واو، لام؛ قد تكون «أبوللو» (دوروس) أو «أبوللو» (دوتوس). أيا كان الحال، فهو اسم إغريقى. إذ يظهر الاتجاه للهلينية أولا فى أسماء البشر قبل أن يصيب اللغة والكتابة؛ على أن هذا لن يتأخر كثيرا، فنحن أمام نص باللغة الآرامية لا نستطيع تداوله حتى رقم ١٤٢٩، ثم تأتى خمس شهادات مكتوبة بالإغريقية (رقم ١٤٢٧ إلى ١٤٣١). نجد هنا أحدا اسمه «يوزيبوس» وقد توفى وعمره ٣٤ سنة، وأيضا آخر اسمه «فيلون» توفى وعمره ٥٠ سنة، وشخصًا ثالثًا اسمه «بسيلاس»، وامرأتين إحداهما من «سيدون» هى «سيموتيرا ابنة هليودوروس»، والأخرى «يوانا» المسماة أيضا بـ «يوفروسينيه» (رقم ١٤٢٩). إنها حالة ذات أهمية خاصة كما ذكرنا قبلا، لأنها توفر لنا أحد الأمثلة النادرة عن اسم مزدوج: عبرانى مؤغرق وإغريقى صافى.

أيا كان عمق الاندماج على المستوى الاجتماعى، وأيا كانت سرعة واتساع هذا الاندماج على المستوى اللغوى، فإنه يبقى على ما هو أساسى، أى على الهوية الدينية عند اليهودى. لا شك أنه كانت هناك حالات ارتداد وإحداها شهيرة جدا، تستحق أن

نذكرها؛ ونعنى بذلك ارتداد «دوزيثيوس بن دريميلوس» الذى كانت له فى النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد حياة مهنية رائعة فى القصر الملكى، وقام فى العام ٢٢٢ قبل الميلاد بالعمل قسيسا راهبا للإسكندر وللبطالمة المؤهلين. غير أن تلك الحالات تبدو نادرة، كما كانت نادرة أيضا الزيجات المختلطة بين اليهود و«الوثنيين»، والذين سوف يعملون فى أماكن أخرى على تكثيف الانخراط.

إن الحياة الدينية اليهودية فى مصر تتغير بلا شك فى مظاهرها الخارجية مع ملامستها للثقافة الإغريقية، على أن الجوهر يبقى على ما هو عليه. وأيا كان الحال، فإنه من غير الوارد إطلاقا الكلام بشأن هذا العصر عن «توفيقية» يهودية - وثنية. إن يهود مصر يبشرون «بهويتهم» فى أحضان المجتمع الإغريقى، وفى عبارات من الثقافة الإغريقية، ولكنهم يبقون يهودا..ولا يعنى التجذر فى الوسط الإغريقى التخلى عن التجذر إزاء اليهودية.

اليهودية الإغريقية

لقد أصبح الاندماج أمرا واقعا خلال الحقبة الأولى من تاريخ شتات مصر، والذى انطلق من الغزو المقدونى حتى حكم بطليموس السادس فيلوميتور (١٨٠-١٤٥ قبل الميلاد)؛ ويتمثل الحدث اللافت فى هذا الوقت فى ترجمة التوراة إلى اللغة الإغريقية فى ظل حكم بطليموس الثانى فيلادلف (٢٨٥-٢٤٦ قبل الميلاد). كان هذا الحدث موضوعا لأسطورة يهودية أولا ثم إغريقية، وهو ينعكس اليوم مباشرة فى مقاطع من البرديات التى تحتفظ لنا بأجزاء مهمة من نصوص الكتاب المقدس كتبها يهود باللغة الإغريقية من أجل يهود آخرين، وتعود أقدم تلك البرديات إلى القرن الثانى قبل الميلاد.

ليس من الممكن أن نتناول هنا القضايا العديدة التى تطرحها تلك الترجمة، على أنه علينا أن نلاحظ أن التوراة فور ترجمتها إلى اللغة الإغريقية تحولت إلى القانون المدنى الذى يجرى تطبيقه فى حالة مقاضاة اليهود، وذلك فى إطار النظام القضائى فى البلاد الذى تم إقامته حوالى ٢٧٥-٢٤٥ قبل الميلاد على أيدى بطليموس الثانى فيلادلف؛ ومن شأن تلك الدراسة إلقاء ضوء جديد على الجدل القديم حول قضية معرفة من الذى أخذ على نفسه المبادرة لتلك الترجمة، ما إذا كان الملك بطليموس

أو الطائفة اليهودية؛ ولا شك أن هذا التساؤل غير مجد لأن الأمر المهم لا يكمن فى البحث عن المبادر لتلك الترجمة (أى، هل تمت ضمن الممارسة الكنسية، أو من مشروع تم إنجازه لإشباع الفضول الفكرى عند الملك)، بل فى الالتفات إلى تضافر الجهود فيما بين احتياجات طائفة أصبحت تتسم بالهلينية، ما يجعلها مضطرة إلى استخدام النص الإغريقى لقانونها الخاص، وبين مصالح الملك الذى يعنيه تزويد مملكته بإدارة قضائية تأخذ فى الاعتبار التقاليد الوطنية للعناصر المختلفة التى كانت تشكل سكان البلاد.

حقا لم يمنع هذا الاعتراف الرسمى بالتوراة ـ الذى جاء من خلال الإقرار القضائى بها ـ اليهود من تبنى قواعد القانون الإغريقى فى حياتهم اليومية، بدلا من قواعد القانون اليهودى؛ وهو القانون الذى كان يمارس أحكامه المهاجرون الآخرون الناطقون بالهلينية؛ فعلى سبيل المثال، لم يكن لقانون الربا الذى يحذر الاقتراض بالفوائد فيما بين اليهود أى ممارسة عملية، خلافا لما يعتقد به بعض المفكرين؛ بل نرى أن هذا القانون قد تم انتهاكه، أو تحريفه من اليهود أنفسهم بفضل الحيل المأخوذة من الممارسة الإغريقية. يمكن هنا أن نذكر حالة زوجين من اليهود كانا يقيمان بالإسكندرية فى نهاية القرن الأول قبل الميلاد، وكانا يريدان إنهاء علاقة زوجية قليلة الانسجام؛ لقد تم اللجوء منهما لأسلوب لا نرى فيه أى قدر من السلوك التقليدى؛ وذلك بتطبيق صيغة الطلاق الإغريقى بالاتفاق المشترك (انظر مجموعة البرديات اليهودية ١ ـ ١٤٤). إلا أن كل ذلك هو عبارة عن الاندماج الاجتماعى؛ إذ كما هو الحال بالنسبة لاستعمال اللغة الإغريقية، فإن قانون يهود مصر هو أيضا إغريقى؛ إنهم على سبيل الاستباق يطبقون بقدر كبير من الاتساع المثل الشهير للأمورا البابلى «مار صموئيل» القائل بأن «قانون البلاد هو القانون المعمول به».

إن أقدم الشهادات الواردة فى الكنائس منقوشة على الأحجار باللغة الإغريقية؛ وتأتى إحدى الشهادات من «شديا» (كفر الدوار فى جنوب شرق الإسكندرية)، كما تأتى الأخرى من «كروكوديبوليس»، عاصمة مقاطعة «أرسينويت» (الفيوم)؛ وتعود هاتان الشهادتان إلى حكم بطليموس الثالث إيفرجيت الأول (٢٤٦-٢٢١)، والذى يظهر اسمه مع اسم زوجته «بيرينيس» بنت «سيرينيان ماجاس»؛ ويشير ذكر الأولاد

إلى أن هاتين الشهادتين كانتا سابقتين عن ٢٤٥ (مجموعة البرديات اليهودية صفحات ١٤١-١٤٣) رقم (١٤٤٠ و١٥٣٢). لا تقول كل من هاتين الشهادتين لأى من الآلهة تكرس الصلوات، والتى شيدت على هذا النحو برعاية الأسرة الحاكمة؛ وهو ما يعنى أنها مهداة دون شك للملك وعائلته.

إن اسم ملك إسرائيل الذى لا يمكن محوه غير قابل للنقل إلى الإغريقية؛ إن «ثيوس» الإله دون أية إضافة عليه سيكون غير كاف، ولفظ «كيريوس» أى «الرب»، وهو الـمرادف الإغريقى لكلمة «كير» العبرانية، وهى «أدوناى» سوف لا تفهم من غير اليهود؛ وهم الذين تساءلوا لفترة من الزمن ماذا يمكن أن تكون تلك الألوهية المجهولة والتى كانت تسمح لليهود بتشييد الأماكن المقدسة. لقد وجد المخرج لهذه المعضلة فى اختيار اسم من أسماء الآلهة من شأنه أن يستدعى أكثر من غيره المفهوم الدينى للجار الإغريقى. هذا الاسم هو «الإليون» أى «الرب فوق السموات»، وهو باللغة الإغريقية «ثيوس هيبسيستوس». يؤكد أحد النقوش فى مدينة بنها (مجموعة البرديات اليهودية ١٤٤٣) لأول مرة فى مصر على تلك العبارة فى القرن الثانى قبل الميلاد، أو فى أوائل القرن الأول؛ وذلك فى معبد شيده يهود أثريبيس بمشاركة أحد ضباط الشرطة، بطوليمايوس بن إيبيكيدس؛ وهو بلا شك من اليهود، حيث يصعب تصديق أن شرطيا من «الجوى» (أى من غير اليهود) ينضم إلى طائفة يهودية فى تلك البلدة أو غيرها للمساهمة فى بناء إحدى الكنائس. إن كلمة «هيبسيستوس» كانت تعنى فى ذاكرة الإغريقى الألوهية العليا، مثل كلمة «زيوس» الذى كان يضفى إليه تعبير «سوفوكل» المعنى نفسه. وتصبح على مرور الزمن عبارة «ثيوس هيبسيستوس» هى التسمية الرسمية للرب اليهودى فى العالم القديم بأسره.

ليس فى علمنا نوع الشهادة التى كان يحملها الكنيس الكبير بالإسكندرية، والتى تشير إليها نصوص «التلمود» على أنها بحجم المعابد الإغريقية؛ وكان هذا الكنيس، وعدد كبير آخر من الكنائس، وفقا لما أشار إليه «فيلون» «منتشرًا انتشارا كبيرا فى كل حى من الأحياء». نعتبر أنه من المؤكد أن كل شىء منذ القرن الثالث قبل الميلاد كان إغريقيا: النقوش، والكتب المقدسة، والصلوات. لقد كان يهود مصر يستمعون إلى التوراة باللغة الإغريقية، وكانوا يتلون بتلك اللغة «شما إسرائيل». لقد كانت الديانة اليهودية فى المملكة البطلمية تتوافق تماما مع اللغة والثقافة الإغريقية؛ لا أحد فى

مصر اللاجيدية كان يحاول الضغط على اليهود لتغيير ديانتهم، أو منعهم من تقديس ربهم بطريقتهم الخاصة.

إن عبارات الإهداء المنقوشة فى الكنائس تفترض المساندة من السلطة الملكية، والتى بدونها كان يستحيل للعبادة اليهودية أن تمارس بحرية، وكذلك الشأن عن ترجمة «التوراة» والتى كان لا يمكن أن تتم دون مبادرة أكيدة من بطليموس الثانى؛ وهى التى تمت ـ فى أغلب الظن ـ بالمساندة الفعالة لهذا الملك الذى أراد بتلك المناسبة ـ على حد ما قاله فيما بعد الفيلسوف «أرسطوبول» ـ أن يعبر لليهود عن «عظيم عطفه». ومن الناحية الأخرى، فلقد تفادت «السبعينيات» فى ترجمتها للتوراة كل ما يمكن أن يثير الضيق عند الملك أو يغضب الإغريقيين؛ إنهم كانوا يستبدلون بعبارة عرضية كلمة «أرنب» ـ وهو اسم حيوان غير طاهر عند اليهود ـ نظرا لأنه كان فى ذات الوقت يعنى باللغة الإغريقية اسم مؤسسة العائلة المالكة. إن صيغة الجمع التى يستعملها اليهود فى «سفر الخروج» (٢٢ ـ ٧٢) يقوم بتفسيرها «فيلون» و«جوزيف» على أنها دعوة لعدم انتقاد الآلهة الوثنيين. كما يذهب مؤلف «خطاب أريستيه» إلى أبعد من ذلك، مؤكدا أن رب اليهود، خالق الكون ومالكه، ليس إلا الإله الذى يعبده الإغريقيون تحت اسم «زيوس»؛ نرى من هنا أن الوفاق يسود تماما، على الأقل حتى الآن، وسوف تبدأ المضايقات فيما بعد.

أدبيات يهودية باللغة الإغريقية

لا تعد اليهودية الإغريقية مجرد دين يتم ممارسته باللغة الإغريقية تحت رعاية الملوك؛ بل هى حياة روحانية شاملة يتم التعبير عنها فى أشكال مستقاة من الثقافة الإغريقية. إننا نشهد بذلك تكوين آداب يهودية هيلينية، وهى تابعة بشكل واسع للتجربة الأدبية الإغريقية ذات المضمون اليهودى الخاص. يقع العصر الذهبى لهذه الآداب فى الفترة التى تمتد من حكم بطليموس السادس فيلوميتور حتى الغزو الرومانى فى العام ٣٠ قبل الميلاد؛ وتستمر تلك التجربة الأدبية الإغريقية فى الازدهار تحت الحكم الرومانى على الأقل حتى منتصف القرن الميلادى الأول، حيث تبلغ قمتها بأعمال «فيلون».

ليس هنا المكان الذى نتناول فيه القضايا العسيرة على التبويب والتأريخ التى تشهدها تلك الآداب، والتى يدخل جزء مهم منها فى تصنيف الكتابات التى يرمز

إليها بـ«الأناجيل» وهى («الحقوق الكنسية الخاصة بالكاثوليك») و«المنقوشات» (المرتبطة بالكتب المقدسة، ولكنها لم تكـن أبدا ضمن القانون التوراتى) الخاصة «بالعهد القديم». سوف نكتفى بذكر بعض العناوين.

من المحتمل أن يكون المؤرخ «ديميتريوس» من أقدم كتاب يهود مصر باللغة الإغريقية؛ وهو الذى عاش تحت حكم بطليموس الرابع فيلوباتر (٢٢٢-٢٠٥ قبل الميلاد). كانت مؤلفاته تستهدف التدليل على الأصول القديمة جدا للديانة اليهودية. وفى القرن الثانى، كان هناك مؤلف يهودى آخر هو «أرتابانوس» الذى قدم فى كتابه مزيجا من السرد التاريخى والقصة الروائية حول كل من أبراهام، وموسى، ويوسف باعتبارهم «أول المخترعين» الذين علموا الوثنيين علم الفلك، والزراعة، والفلسفة، والدين؛ ومن هنا، يصبح موسى ـ بصورة قليلة التوقع لدينا ـ هو مؤسس «عبادة الحيوانات عند المصريين». لقد قام الشاعر «إيزيخييل» ـ مستلهما من «أسخيل» و«يوريبيد» ـ بوصف الخروج من مصر على شكل مأساة إغريقية. كما قام الشاعر الأسطورى «فيلون» (وهو مختلف عن الفيلسوف الذى يحمل الاسم نفسه) بسرد قصة قديمة سداسية الجوانب حول تاريخ مدينة القدس المقدسة. وهناك كتابان مرتبطان مباشرة بالتوراة المكتوبة باللغة الإغريقية؛ لقد تمت كتابة «رسالة أريستيه» الذى يعمل على حث الطائفة اليهودية لاعتماد ترجمة «السبعينيات» على يد يهودى؛ ويشير ف. تشيريكوفر أنه كان يقدم اليهودية على أنها «ليست سوى هيلينية أثرتها فكرة الله الواحد».

هناك مناقشة جارية حول معرفة المجازية للتوراة والتى كان الفيلسوف اليهودى «أرسطوبيل» قد أهداها فى حوالى ١٧٥ ـ ١٧٠ قبل الميلاد إلى الملك بطليموس السادس فيلوميتر رغبة منه فى الإشادة بسمو «القانون اليهودى»؛ وهو لم يتردد فى التصريح بأن كلًا من «أفلاطون» و«فيثاجورس» قد استلهم من كتابات موسى فى ترجمة إغريقية (خيالية دون شك) سابقة على ترجمة «السبعينيات». فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد، تم أيضا فى مصر تأليف أقدم عناصر الكتاب الثالث عن «الكهنة العرافين»، والتى عرفت نجاحات كبرى فى مرحلة تالية؛ ويعود هذا النجاح إلى امتزاج شكل «هوميرى» مع مضمون يذكرنا بمشاهد نهاية العالم.

هل يتوجب علينا ـ وفقا لصيغ مقبولة تقليديا ـ اعتبار تلك الأدبيات «تبشيرية»،

بمعنى أنها ـ أساسا ـ تبرير لليهودية، ووسيلة لنشر مبادئها فى العالم الوثنى. قد يعنى ذلك إضفاء طابع جزء من الأدبيات على الإنتاج الأدبى بأسره. لا شك أن أعمال «ضد فلاكوس» و«السفارة فى جايوس» تتوجه إلى جمهور خارجى؛ وليس هناك أى شك فى أنها تحمل طابع الدفاع عن الدين. أما باقى أعمال «فيلون» ـ كما سبق لأعمال مكتوبة باللغة الإغريقية من يهود مصر ـ قد تكون قد استهدفت القارئ اليهودى وحده دون سواه. قد تبدو هذه النظرية (التى يقدمها ف. تشيريكوفر) مبالغًا فيها؛ غير أن الإجابة على هذا السؤال ليست سهلة. فهل كان «أرسطوبل» يكتب للإغريق حيث يبذل كل الجهد لتقديم رد على الأسطورة الإغريقية عن «اليهودى الفيلسوف»، وأنه كان يريد أن يطمئن مواطنيه من اليهود الذين انطبعوا بالهلينية بتأكيده على سبق الرزانة اليهودية على الرزانة الإغريقية. هل اليهودى الذى يريد أن يقدم تفسيرا عن السبب فى ترجمة التوراة، والذى لجأ إلى أسلوب خطاب موجه من إغريقى إلى إغريقى آخر، يقوم بذلك للوصول إلى الجمهور الوثنى، أو ليعلن هكذا مستهدفا الجمهور اليهودى مكانة التوراة التى تثير إعجاب العالم الإغريقى؟ لا بد من التأكيد على إمكانية تلك المسائل، والتى قد تكون دون حل قبل الحديث عن «خطاب مزدوج».

إن الشىء الوحيد الأكيد ـ وهو ما يسير فى اتجاه نظرية تشيرنيكوف ـ هو الغياب الذى يكاد يكون كاملا للاهتمام من قبل الأدباء الإغريقيين بالأدب اليهودى الإسكندرى.

يتعلق ذلك قبل كل شىء بالتوراة نفسها، والتى وإن كانت فى متناول «الوثنيين» منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، لم تترك مع ذلك أى أثر على الأدب الوثنى قبل منتصف القرن الأول من الميلاد. ولما كانت اليهودية الربانية سوف تلفظ بدورها مع ترجمة «السبعينيات» مكان الكتب اليهودية المكتوبة باللغة الإغريقية، فإن الأدب اليهودى الهيلينى كاد يستغرقه النسيان، ولم ينقذه جزئيا سوى حب الاطلاع عند أحد الباحثين الوثنيين الذى كان يقوم بتجميع الآثار الشرقية، وهو «الإسكندر بوليهستور» (القرن الأول قبل الميلاد). وأيضا بقدر أكبر بفضل حلول المسيحية فى الشرق الهيلينى.

إن الأمر على هذا المنوال أيضا، لا سيما عن كتاب يجرى الحديث عنه كثيرا منذ بضع سنوات والذى احتفظنا بذكره فى النهاية، إنه كتاب تاريخ «جوزيف وأسينيث». لقد تم تأليف هذا الكتاب فى مصر من أحد الكتاب الذى نجهل اسمه، ولكنه يهودى

هيلينى دون شك؛ وقد عكف على قراءة «السبعينيات». على حد قول الناشر الفرنسى للكتاب، كان يمكن أن يكون مكانه ضمن مجموعة من مخطوطات «العهد القديم»، أو ضمن مجموعة من القصص الإغريقية. ولما كان تاريخ هذا الكتاب يعود ـ فى الاحتمال الأكبر ـ ليس إلى بداية الإمبراطورية، ولكن إلى القرن الثانى قبل الميلاد، فإنه من المهم جدا أن نلاحظ أن أقدم رواية إغريقية ـ أى أول رواية فى الأدب الغربى ـ تعود إلى يهودى من مصر.

تنطلق تلك الحقيقة من ملاحظتين ملخصتين فى «سفر التكوين». تقول لنا الملاحظة الأولى (٤١ ـ ٤٥) أن الفرعون عمل على عقد زواج «جوزيف» بـ«أسيناث» (وهى بالنسبة إلينا «أسينيث»)، بنت «بوتى ـ فيرا» («بنتيفريس» فى الرواية) كاهن «عون» (الاسم المصرى لهليوبوليس، أى مصر الجديدة). أما الملاحظة الثانية (٤١/ ٥٠ ـ ٥٢)، فهى تعلمنا أنه كان من شأن هذا الزواج إنجاب ولدين من الذكور وهما «منشه» و«إفرائيم»؛ واللذان سوف يعهد إليهما تمثيل «دار جوزيف» فيما بين رؤساء الاثنتى عشرة قبيلة لإسرائيل. والسؤال هنا هو كيف تزوج «جوزيف» بإحدى الوثنيات.

ليس لهذا السؤال فى الحقيقة أهمية بالنسبة لجوزيف الذى جاء ذكره فى الكتاب المقدس؛ فقد عاش فى العصر الذى لم تهد بعد التوراة لليهود، وهو ليس معنى من أخطار «سفر الخروج»، ولا أيضا من الكتاب الخامس من «أسفار موسى الخمسة»، وهو لا يطبق على كل حال على المصريات، كما لا يطبق أيضا بقوانين «عزرا» التى عممت فيما بعد تحريم الزواج المختلط. فى هذا الشأن، يكتب م. فيلونكو «ليس للقضية معنى إلا فى إطار اليهودية الربانية، وليس لها أهمية حقيقية سوى فيما يتعلق بالشتات اليهودى فى مصر».

وإذا كانت حالات الزواج المختلط التى تمت بالفعل نادرة للغاية فى وثائقنا، فإنه ليس معنى ذلك أن هذا الموضوع لم يكن يقلق يهود مصر. فعلى عكس ذلك، كان الزواج المختلط ـ الذى يعد كابوسا لكل الشتات ـ يشكل قضية خطيرة سواء على مستوى الممارسة أو على المستوى النظرى «العاجز على كل حال عن تقديم مذهب متماسك فى توفير حل للصعوبات المثارة». هذا هو على أقل تقدير الشعور الذى يعترينا عندما نقارن عند «فيلون» ما بين القوة التى كان يتسم بها رفضه للزواج المختلط،

والإشادة بالمواطنة الزواجية العالمية. إن القصة العاطفية لجوزيف وأسينيث تقترح حلا من مزاياه أنه بسيط للغاية، أى اعتناق الديانة اليهودية؛ وإن كان هذا الحل غير مقبول تماما من وجهة النظر التلمودية اللاحقة.

يتزوج جوزيف من أسينيث بعد أن تكون قد اعتنقت اليهودية، أو تعرفت عليها فى ظروف على هذا القدر من الرومانسية والإعجازية؛ غير أنه على عكس اعتقاد بعض المعلقين المعاصرين، لم يكن القراء اليهود فى مصر الهلينية يفكرون فى فتاة مصرية. فالزواج بين يهودى وأحد السكان المحليين أمر غير متصور أصلا.

أصابوهم بالغثيان

تعكس الحروب والاضطرابات السياسية أيضا حسن العلاقات فى مصر بين اليهود وباقى المهاجرين المتحدثين باللغة الهلينية، ولكن أيا كان عمق التواصل على الصعيد الاجتماعى والثقافى، فإن حدوده تقف عند الوفاء الذى يحمله اليهود تجاه المبادئ الأساسية لدين آبائهم. إنهم على وعى تام بهذا الفارق الذى ينظر إليه الآخرون على أنه نوع من «الانفصال».

يصبح هذا الوضع خطيرا مع الأزمة التى بدأت تصيب العالم الهلينى فى بداية القرن الثانى قبل الميلاد؛ فالاختلاف الذى يفصل اليهود عن «الوثنيين» قد يؤدى إلى اندلاع نزاعات واضحة، مما يبرر عمليات التعذيب. هذا هو الخطر الذى يقدم صداه «الكتاب الثالث للمكابين»، والذى يحكى لنا فى نهاية القرن الأول قبل الميلاد عن مشهد مؤثر من التاريخ الإسكندرى لليهود؛ إذ قام الملك بحشدهم فى ساحة الخيول، حيث سيسحقون تحت أقدام الفيلة المخمورة المندفعة نحوهم؛ على أنه فى نهاية المطاف يكتب لهم السلام مع ظهور معجزة (الكتاب الثالث للمكابين ٤-٦).

يعرف «فلافيوس جوزيف» هو الآخر هذه القصة؛ ولكنه خلافا لما جاء فى «الكتاب الثالث للمكابين» الذى كان يحدد زمن وقوعها تحت حكم بطليموس الرابع فيلوباتور (٢٢٢-٢٠٥ قبل الميلاد)، فإنه يضعها إبان حكم بطليموس الثامن إيفرجيت الثانى (١٤٥-١١٦ قبل الميلاد). فلنعطه ثقتنا، ولنفترض مع ف. تشيريكوفر أننا أمام شكل رومانسى لقصة أول حركة استئصال لليهود التى تم تفاديها بفارق صغير.

قد يعتقد البعض أننا أمام مظاهرة تضامن من يهود مصر مع يهود «يهودا». «نحن أيضا ـ كما تبدو الرسالة الإشـارة إليه ـ قد تم اضطهـادنا مثلكـم». ليـس معنـى ذلك أن تلك القصـة قد تـم اختراعها اختراعا كاملا؛ على العكس، إن موضوع التعذيب الذى يمثل القاسم المشترك الوحيد بين الكتابين يحفزنا على البحث فيما يمكن أن يكون النوايا التاريخية لمعجزة ساحة الخيول.

يبدأ حكم بطليموس الثامن فى مصر فى ظل المعارك التى تنشب بين الملك وشقيقته كليوباترا الثانية؛ وكان يهود الإسكندرية، وكذلك «أونياس» وجيشه يساندون الملكة. حينما انتصر «فيسكون»، كان جيش «أونياس» قد غادر المدينة؛ أما الآخرون، فسوف يدفعون ثمن الخيانة. إلا أن الملك تصالح مع أخته حتى أنه تزوجها (كانت كما نعلم زوجة أخيه الكبير «بطليموس السادس فيلوميتور»). عدل فى اللحظة الأخيرة عن ضرب اليهود الذين تجرأوا على مساندة الملكة ضده. كما قرر منح العفو العام لأعداء «فيسكون» القدامى بمناسبة حفل الزواج الملكى. وهكذا جاء الإنقاذ بطريقة غير متوقعة، وأخذ شكلًا أسطوريًا يشير إلى معجزة التدخل الإلهى (مجموعة البرديات اليهودية ١٢-٣٢).

يجعلنا خطر الموت، والهلع الشديد، مع النجاة فى اللحظة الأخيرة، نشعر بمناخ القلق وانعدام الأمان الذى أخذ يسيطر على الطائفة اليهودية فى مصر التى أجهدتها الحروب ومعارك الأسرة المالكة. وقد كان لكل هذا انعكاسه فى الأدب الإغريقى ذى الاتجاه المعادى للسامية، والذى يجد جذوره بشكل واسع فى بعض التقاليد المصرية المعادية لليهود واليهودية.

إلا أن معاداة السامية ليست فقط على مستوى الأدبيات لدى الهلينيين؛ ذلك أن هناك خطابا خاصا كتب فى بداية القرن الأول قبل الميلاد يفيدنا بأن هناك من الناس فى «ممفيس» «يصيبهم اليهود بالغثيان» (مجموعة البرديات اليهودية ١/ ١٤١). نحن أمام حقيقة: فهناك معاداة للسامية على الصعيد الشعبى. قد يقتصر الأمر هنا على المصريين الأصليين فقط؛ فليس المعنيون هم الملك أو المهاجرين الإغريق، والدليل على ذلك أن الإشارات الخاصة بالقلاقل المعادية لليهود فى الإسكندرية عام ٨٨، أو فى ريف مصر فى العام ٥٨ قبل الميلاد لا تسمح بافتراض أن معاداة السامية من شأنها أن تؤدى إلى أعمال تعذيب منهجية تتم بموافقة أو تواطؤ المملكة اللاجيدية واشتراك الإغريق.

إلا أن هذا الأمر لن يتأخر كثيرا، فقد اقترب قدوم الرومان الذى سوف يقرع أحزان اليهودية الهلينية فى مصر.

السقوط

أدى الغزو الرومانى فى العام ٣٠ ميلاديا إلى بدء حقبة جديدة فى التاريخ القديم للطائفة اليهودية فى مصر، والتى سوف تنتهى مأساويا مع ثورة السنوات ١١٥-١١٧ ميلاديا. فلقد انطبعت تلك الحقبة أساسا بالصراع اليهودى الإسكندرى حول الحقوق المدنية، وهو ما اصطحبته مواجهات عنيفة، وأيضا فيما بين السفارات اليهودية والإغريقية فى روما. وعلى الرغم من معرفتنا للوقائع، ما زال تفسيرها محل جدل؛ ودون الدخول فى تفاصيل، سوف نحاول التوصل إلى كيفية حدوث التغير فى وضع اليهود، والذى كان الأصل فى تدهور علاقات اليهود بالإغريق قبل دفعهم إلى الوقوف ضد السلطة الرومانية.

إن الفارق الأساسى الذى يميز المملكة اللاجيدية عن مصر الرومانية يكمن فى التعريف القانونى لوضع الإنسان (لا نعنى هنا سوى الإنسان الحر) فى علاقته بمفهوم المدينة. كلاهما لا يعترف بالأهلية الشخصية الكاملة سوى للأعضاء الحقيقيين فى الطائفة المدنية؛ ومن هنا فإن الواجبات العسكرية والسياسية والدينية المترتبة عليهم من ذلك تشكل المقابل لهذا الاعتراف. وإذا كان يهودى يرغب فى أن يصبح أحد مواطنى مدينة «أسبرطة» أو مدينة «أثينا»، فلا بد له أن يتقاسم مع أمثاله من المحاربين الطعام نفسه الذى يتناولونه والذى لا يكون بالضرورة «كاشير» (معد طبقا للتعاليم اليهودية والخالى من المواد المحرمة دينيا)، أو أن يشارك فى عبادة «أثينا»، وهو أيضا ممنوع على الإسرائيلى.

لا يمكن أن يسلك هذا اليهودى هذا الطريق دون أن يتعرض لمخاطر شديدة ما لم يكن تحوله إلى الهلينية بواسطة الكاهن الأكبر «جاون» الذى كان يأخذ بجدية الأسطورة القائلة بوجود صلة قرابة بين اليهود والأسبرطيين، فاختار الاختباء فى أسبرطة عندما اضطر إلى الهروب من القدس فى العام ١٦٨ قبل الميلاد (الكتاب الثانى للمكابين ٥-٩).

هذا الخطر لم يعد موجودا فى المملكة الهلينية؛ لا شك أنه لا يزال يوجد مواطنون بالمعنى التقليدى للكلمة فى مصر اللاجيدية، سواء فى «نوكراتيس» أو «الإسكندرية» أو «بطوليمايس»، وهى كلها مدن حديثة العهد، ولكن ليس بالمعنى التقليدى للكلمة؛ فهم يمثلون أقلية ضمن العناصر الهلينية التى تمثل الآن المجموعة المسيطرة. يمكن أن يكون الإنسان إغريقيا بالمرجعية إلى مدينة أجداده حتى وإن رفضت تلك المدينة، كرفض الاعتراف بصفة المواطنة لمن كانوا يقيمون بها فى الماضى البعيد، أو من ولدوا فى بلدان متوحشة. على أن المهم هو القدرة على إثبات أن هذا الإنسان من أصول مدنية حتى إن كان الإثبات غير صالح قانونيا. وامتدادا لهذا المفهوم، يعتبر الآن المقدونيون ـ الأقرباء من الإغريقيين والمنتصرون عليهم ـ جيرانًا أكثر بعدا مثل «التراس» الذين كانت تعدهم اليونان القديمة من البرابرة مقارنة بالأغارقة.

إن «قرابة الأسلاف المدنية» تلك التى تتحدد بأصول خارجة عن مصر هى التى تميز بين القاهرين والمقهورين؛ وهى التى تعبر عن نفسها فى ارتداء زى «الإثنيكون» الذى يشير إلى الطابع الأصلى، وما يتضمنه من تربية وعادات إغريقية إلى جانب معرفة اللغة. لقد تحول تعريف الإغريقى من التعريف السياسى ليصبح تعريفا ثقافيا فى غاية الكمال. إن هذا التعريف يتطابق مع التماسك بأشكال من التضامن الخاصة المبنية على أصول مشتركة والتى يتم إثراء قيمها، وهى لا تحمل أى نوع من الاستبعاد على أساس الدين.

إن هذا التعريف يصلح تماما لليهود فيما يتعلق بارتباطاتهم الإغريقية. ليس هناك أى مشكلة بشأن أصولهم؛ فيمكن أن يذكر الشخص أنه «يودايوس» (يهودى ـ المترجم) تماما كما لو كان يذكر أنه «أثينايوس» (نسبة إلى أثينا ـ المترجم) أو ماقيدون (نسبة إلى مقدونيا ـ المترجم). إذ يصبح الإنسان إغريقيا على أساس اللغة أو الثقافة مع بقائه يهوديا. وهكذا يكون هذا اليهودى أحد أعضاء جالية الهلينيين، ويتحمل على هذا الأساس مسئولية العمل فى خدمة الملك كجندى أو موظف فى الجمارك أو شرطى أو موظف فى الإمارة المحلية؛ وفى حالة التقاضى، يتم عرض النزاع أمام المحاكم القديمة للغزاة. يعود جوهر معلوماتنا حول العدالة المتوافرة فى مصر البطلمية فى القرن الثالث قبل الميلاد إلى إحدى القضايا بين اليهود التى نشبت فى مدينة «كروكوديلوبوليس» فى

العام ٢٢٦ قبل الميلاد (مجموعة البرديات اليهودية ١ ـ ٩١)؛ وهى المعلومات التى تجعلنا نفهم بطريقة أفضل اتساع وسرعة التأقلم الثقافى ليهود مصر، والذى لا يعود فقط إلى جاذبية الثقافة الإغريقية لهم، بل إلى بواعث اجتماعية واقتصادية واضحة تماما.

انقلبت الأمور رأسا على عقب بفعل الغزو الرومانى؛ فلقد أعاد الرومان بالدقة القانونية المعروفة لديهم التعريف الدقيق للمواطنة؛ أى أن الإنسان مواطن أو غير مواطن؛ فإذا لم تكن رومانيا، أو مواطنا من إحدى المدن الإغريقية فى مصر، فأنت «مصرى» بدون حق للمواطنة مهما كانت لغتك وثقافتك إغريقية؛ كما تصبح خاضعا للضريبة على الأشخاص التى يعفى المواطنون منها. ويمنح بعض هؤلاء المصريين غير الحقيقيين تخفيفا من تلك الضريبة لأنهم يختلفون عن المصريين الحقيقيين، أو أنهم قادرون على إثبات حصولهم على التربية الإغريقية.

أصبح الأمر كارثيًا بالنسبة لليهود؛ صحيح أن بعضا منهم موطنون للإسكندرية، أو حصلوا على حق المواطنة الرومانية، غير أنهم يمثلون أقلية ضئيلة. فالغالبية العظمى من يهود الإسكندرية أصبحوا «مصريين»، وعليهم أن يدفعوا الضريبة؛ إنه إذلال حقيقى، والوضع خارج المدن ليس أحسن حالا؛ فلم يتم احتساب غالبية اليهود فى الإحصائيات التى أجريت خلال القرن الأول للميلاد والتى حددت الانتماء بالفئة الضريبية لكل شخص.

سوف يكافح اليهود من أجل حقوقهم، وسوف يستمر هذا الكفاح خاصة فى الإسكندرية. لقد تم كتابة الكثير فى هذا الشأن، وتختلف التفسيرات من مؤلف لآخر. إذ يرى ف. تشيريكوفر أن الكفاح كان من أجل الانعتاق؛ فالمسألة تتعلق بالحصول على الإقامة فى الإسكندرية التى ستوفر لليهود المساواة مع الإغريق فى الحقوق المدنية. إننا إزاء معالجة تتسم بقدر كبير من المغالطة التاريخية كما جاء على لسان أحد الكتاب الإسرائيليين الذى بحث فى القضية مؤخرا ويقترح لنا حلا مختلفا: فهو يرى أن اليهود يكافحون ليس من أجل الحصول على المواطنة الإسكندرانية، بل للاعتراف بصفتهم مواطنين كأعضاء فى الطائفة اليهودية بالإسكندرية. إن المساواة التى يرغبون فيها هى تلك التى يريدون أن تقوم بين المدينة الإغريقية والوضع السياسى اليهودى داخل نفس مدينة الإسكندرية. لو صح ذلك، فإن الطائفة اليهودية (أو صاحب النظرية) تكون قد أخطأت لعدم تمسكها بالقانون العام الرومانى؛ فاليهود ـ من وجهة النظر الرومانية ـ

إما «رابطة» أو «عشيرة»، إنهم ليسوا «طائفة مدنية»؛ ذلك أنه ليس من الوارد قانونا تلبية الحكومة الرومانية للمطالبة بالمواطنة من قبل ناس لا يشكلون مدينة.

من هنا نرى أن اللعبة خاسرة مقدما أيا كان موضوع المعركة؛ فالاعتراض من الجهة الإغريقية شديد جدا، وخاصة من ناحية المصريين الذين حصلوا على حق المواطنة فى الإسكندرية على غرار «أبيون» الذى أصبح مشهورا بفضل «فلافيوس جوزيف».

الكارثة وما ترتب عليها

لا شك أنه لم يكن من شأن الحرب فى ٦٦ ـ ٧٠ أن حسنت أوضاع يهود مصر؛ إذ إنهم إضافة إلى الجزية، عليهم أن يدفعوا «الضريبة اليهودية» المهينة التى فرضت عليهم بعد هدم معبد القدس وذلك لصالح ضريح «جوبيتير كابيتولان» الذى دمره الحريق فى العام ٦٩. تؤكد نقوشات تل إدفو حقيقة ذلك الوضع من العام ٧١ إلى العام ١١٦ الميلادية (مجموعة البرديات اليهودية ١١/ ١٦٠-٢٢٥). من ناحية أخرى، ليس هناك إلا القليل من الوثائق عن تلك الحقبة الزمنية التى تقع مع نهاية الحرب اليهودية حول التمرد فى الفترة من ١١٥-١١٧. يأتى ذكر هذا التمرد فى عديد من المراجع الأدبية، غير أنه لم توفر إحداها القصة الكاملة؛ ولكن بفضل البرديات (مجموعة البرديات اليهودية ١١/ ٤٣٥-٤٠٥) أمكننا اليوم تقدير مدى اتساع الحركة التى بدأت فى «سيرين» فى العام ١١٥، ثم طالت مصر وامتدت إلى قبرص وفى بلاد القدس القديمة. وتوضح لنا البرديات ايضا كيف أن تلك الحركة التى لم تكن فى البداية سوى مشاجرة جديدة فيما بين اليهود والإغريق تحولت إلى تمرد مسلح من الشعب اليهودى ضد السلطة الرومانية.

هناك من الوثائق ـ التى تم إصدارها بعد نشر مجموعة البرديات اليهودية ـ التى تلقى لنا أضواء جديدة حول نتائج التمرد، حيث تعرفنا أن إدارة الأموال التى تم الاستيلاء عليها من المتمردين استدعت تأسيس خزينة خاصة؛ كما لدينا من الأسباب الجادة التى تجعلنا نفترض فى هذا الشأن قيام الحكومة الرومانية بإجراءات قمعية عامة طالت كل يهود مصر الذين كانت لهم جراءة تحدى سلطتها حيث تم بعد ذلك الاستيلاء على أموالهم باعتبارها «أموال المحكوم عليهم».

إن النصوص النادرة لهذا العصر الخاصة بيهود مصر تظهر لنا أولا آثارا حزينة لطائفة كانت فيما قبل منتعشة للغاية؛ وتتمثل تلك الآثار الحزينة فى الأراضى اليهودية التى تم الاستيلاء عليها (مجموعة البرديات اليهودية/ ٤٤٨)، وكذلك الأعياد التى كانت تحتفل بالانتصار عليهم. لقد أصبح الباقون على قيد الحياة قليلين؛ ففى بلدة «قرانس» بالفيوم التى كان يقيم فيها ألف من الرجال البالغين، أصبحنا لا نجد سوى يهودى واحد (مجموعة البرديات اليهودية/ ٤٦٠)؛ وفى «تل إدفو» حيث عثر على عديد من الإيصالات الضريبية التى تؤكد على تواجد يهودى قوى عشية التمرد (مجموعة البرديات اليهودية/ ٤٦٠) وجد أن أفراد الأسرة اليهودية الوحيدة الباقية لا يحملون سوى أسماء مصرية (مجموعة البرديات اليهودية ١١/ ٣٧٥ وما بعدها).

عندما يعود شتات اليهود بمصر ببطء إلى الحياة، فلن يكون لتلك العودة أية علاقة «بأحلام اليهود الإغريق» التى انتهت بهزيمة العام ١١٧؛ وسوف يكون الشتات بعد ذلك على أساس من القومية والأصولية؛ ففى مصر الرومانية والبيزنطية بعد العام ١١٧، أصبح اليهود يعرفون مجددا اللغة العبرية ويستعملونها ـ ليس فى الصلوات فقط ـ بل وأيضا فى الاتصال فيما بينهم؛ كما نجد الآن نقوشات جنائزية باللغة العبرية، ويصبح عالم الأسماء أكثر قربا من نماذج الكتاب المقدس؛ فهل يمكن الحديث عن «صهونية قبل الساعة»؟

يهود مصر فى ظل الإسلام

من الفتح العربى إلى حملة بونابرت

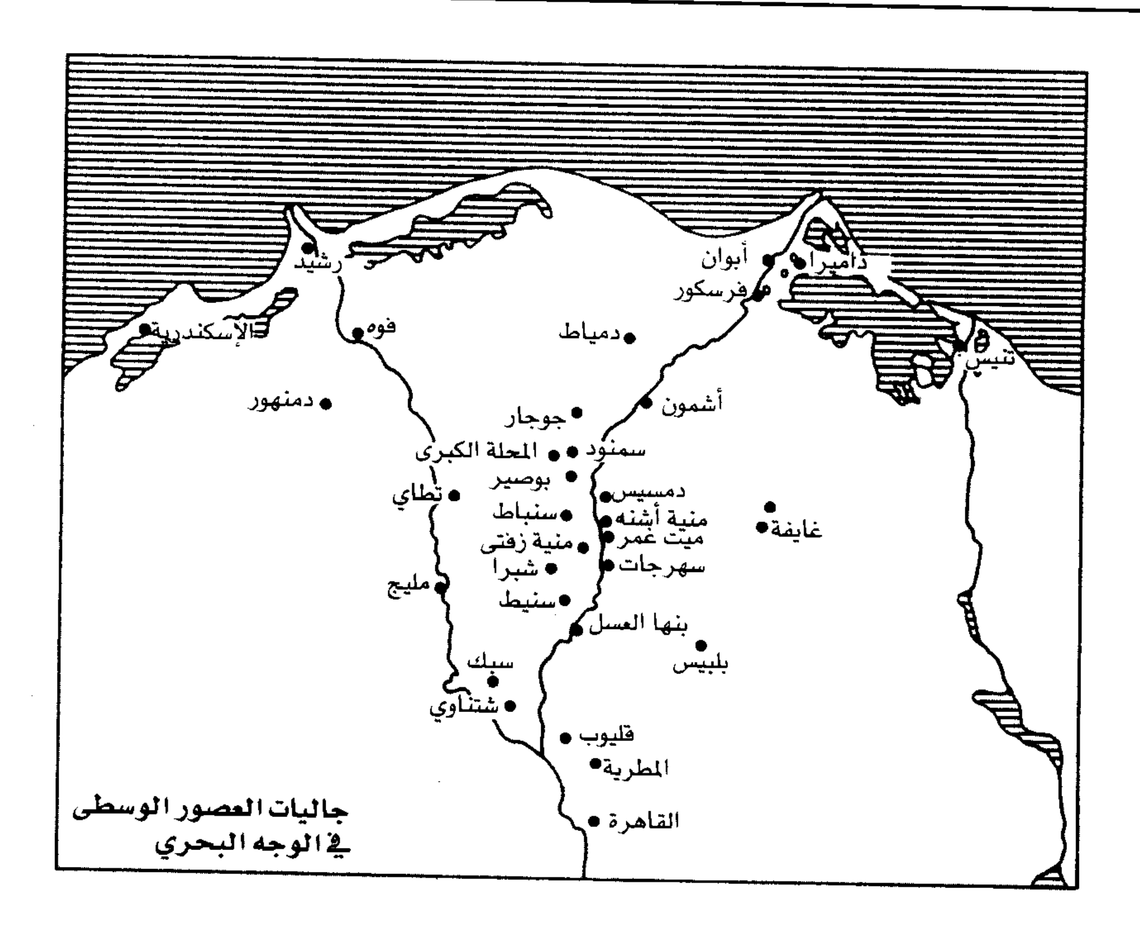
٦٤١ إلى ١٧٠٨

بقلم: ألفريد مورابيا[١]

ليس من اليسير الكلام فى بضع صفحات عن اثنى عشر قرنًا ونصفًا من التاريخ. ولا شك أن يشتد الإغراء فى التعميم أو فى الاكتفاء بالأحداث البارزة، بينما يجب أن يتسم تحليل التاريخ بالدقة والتدرج. سوف نتوخى إذن تسامح القارئ، كما سنجد خلال تلك الفترة الطويلة التى تزيد على ألف سنة عديدًا من مناطق الظلال بسبب الغياب القاسى للوثائق التى يمكن بجدية الاستناد إليها؛ على أنه من حسن الحظ أن إلقاء الضوء الساطع على وثائق «الجنيزة» لمصر القديمة والتى سوف نعود إليها، تتيح لنا التقدم بخطوات ثابتة عن الفترة التى تمتد من القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر. إن انعدام هذا التوازن فى منابع المعلومات يحذرنا من الوقوع فى التأكيدات الحاسمة؛ على أنه يمكن مع ذلك الإيماء بأن اليهودية المصرية فى مجموعها قد شهدت فترة لم تتبين معالمها بصورة جيدة وواضحة ما بين القرنين السابع والعاشر، ثم عن رفاهية واضحة خلال القرون الثلاثة التالية، يليها تدهور بطىء وتصاعد مع بعض حالات الهدوء، هنا أو هناك حتى قدوم الفرنسيين فى نهاية القرن الثانى عشر.

---

(١) ولد «ألفريد مورابيا» بالقاهرة فى عام ١٩٣١. حاصل على شهادة الأستاذية فى اللغة العربية وحاصل على الدكتوراه فى العلوم الإسلامية وكان مديرًا لقسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة تولوز بفرنسا وقد توفى فى تلك المدينة فى ١٧ أغسطس ١٩٨٦.


رشيد
الإسكندرية
فوه
دمنهور
دمياط
أبوان
دامبرا
فرسكور
تنيس
أشمون
جوجار
المحلة الكبرى
سمنود
بوصير
تطاي
دمسيس
سنباط
منية أشنه
غايفة
منية زفتى
ميت غمر
شبرا
سهرجات
مليج
سنيط
بنها العسل
بلبيس
سبك
شتناوي
قليوب
المطرية
القاهرة
جاليات العصور الوسطى
في الوجه البحري

من عمرو بن العاص حتى الفاطميين (٦٤١ - ٩٦٩)

يشكل الفتح العربى تحولاً فى تاريخ مصر، وكذلك فى حياة سكانها من اليهود. وفقًا لما جاء فى الحوليات العربية كان ٤٠,٠٠٠ منهم يسكنون الإسكندرية عاصمة مصر البيزنطية عندما استولى عمرو بن العاص عليها. يعد هذا الرقم كبيرًا جدًا بالنسبة لتلك الحقبة، ولاشك أنه مبالغ فيه؛ غير أنه مؤشر على أهمية الطائفة اليهودية فى البلد الأم فى البحر الأبيض المتوسط فى أواسط القرن السابع. ماذا كان موقف اليهود إزاء المحتل الجديد، وهل سهلوا عليه المهمة كما كان الوضع فى كل من فلسطين وإسبانيا.

نحن حقا على جهل من ذلك خلال القرون الثلاثة السابقة على قدوم الفاطميين فى البلاد. إن وثائق «الجنيزة» ـ والتى تعد منجما حقيقيًا للمعلومات عن تاريخ الطائفة فى وادى النيل ـ قليلة الحديث عن السنوات السابقة على نهاية الألفية الأولى للميلاد. سنكتفى ببعض الشذرات التى حصلنا عليها خلال اطلاعاتنا.

من الوارد تمامًا التفكير بأن يهود مصر عوملوا على غرار مواطنيهم الأقباط (وهم المسيحيون المتمسكون بالطبيعة الواحدة للمسيح) على أساس نظام «الذمة»، والذى يتوجب إعطاء فكرة عنه. إننا إزاء نظام أساسى من «الحماية التعاقدية»، وهو النظام الذى استقاه الإسلام فى جزء كبير من المدن البيزنطية والسياسية، والذى كان يتمثل فى توفير وضع المواطنة من الدرجة الثانية لأعضاء الأقليات الدينية أو الإثنية. يتوجب على الذمى أداء الجزية حتى يتمتع بالحفاظ الدائم على حياته، وعلى أمواله، وعلى حريته الثقافية والاقتصادية؛ فعليه أن يدفع للدولة الإسلامية ضريبتين كبيرتين وهما: الجزية التى يدين بها كل شخص بالغ، وكذلك ضريبة عقارية يسددها كل من يعمل فى الفلاحة؛ وعلى هذا الشخص أن يقبل من ناحية أخرى بعض القيود والمحظورات المتعلقة بأسلوب حياته وبارتداء ملابسه والممارسة الظاهرة لديانته وإقامة أماكن العبادة وارتقاء بعض الوظائف العامة ذات الأهمية.

تعرف مجمل تلك الإجراءات الاحترازية تحت اسم « أوامر عمر» على الرغم من أن الخليفة عمر (٦٣٤-٦٤٤) لم يكن له علاقة ما بتلك الإجراءات إلا فيما بعد بمدة طويلة؛ وهى لم تطبق بصورة كاملة سوى فى فترة الأزمات. وعلى العموم، فإن اليهود قد تحولوا مع الاحتلال العربى من حالة متدنية إلى أخرى.

لقد حافظت اليهودية المصرية خلال تلك الفترة على علاقاتها الروحية بفلسطين التى انتقلت من حكم البيزنطيين إلى حكم العرب؛ وعقدت علاقات جديدة بالمراكز البابلية التى أصبحت الآن تحت الوصاية الإسلامية بعد الاستيلاء على العراق من قبل الجيوش الإسلامية.

لقد أسس «ابن طولون» فى أوائل القرن التاسع نظامًا ملكيًا مستقلًا لمصر الإسلامية؛ وكان من أصول تركية، ومتفتح الذهن، والمعروف عنه أنه كان يعاون الأقليات، وأنه كان له طبيب يهودى مما له أهمية فى هذا الزمن الذى كان الملوك فيه يسلمون أجسامهم وأرواحهم لأطبائهم. سوف يوجد هناك عديد من الأطباء اليهود الذين عملوا فى القصور خلال تاريخ مصر الإسلامية، وسوف نعود إلى ذلك فيما بعد.

لقد نشأت علاقات تجارية وفكرية فيما بين الفسطاط ـ وهى العاصمة التى أقامها «عمرو بن العاص» بعد الفتح بفترة وجيزة حيث عجل عديد من اليهود للإقامة فيها ـ وبين «قيروان» ـ وهى العاصمة الأخرى التى أقامها العرب والتى أصبحت مركزًا ثقافيًا يهوديًا ـ كل المعطيات تجعلنا نعتقد أن المستوى الروحى لليهودية المصرية كان موفقا فى هذا العصر؛ ومما يدل على ذلك شخصية «سعادية جاعون» البارزة، وتكوينه الفكرى والعلمى الواسع الذى حصل عليه بصورة كاملة فى مصر وخاصة فى الفيوم مسقط رأسه.

إن الواقع المشرق فى التاريخ اليهودى فى نهاية القرن التاسع كان بروزًا فى الطائفة تلك الشخصية التى لا مثيل لها والتى سوف تزود الفكر اليهودى بعضا من أجمل زهورها. كانت تلك الشخصية البارزة معروفة أيضا فى الآداب العربية باسم « سعادية الفيومى» الذى عاش من ٨٨٢ إلى ٩٤٢ ميلادية. لقد كان عدوا شديد المراس للتفكير القرائى (نسبة إلى القرائية التى لا تعتقد سوى فى التوراة دون التلمود ـ المترجم)، حيث كان له الفضل والحذاقة فى الاعتراف بحجتها الدقيقة وفى اقتباس منهجيتها؛ فلقد اضطر إلى الهروب من مسقط رأسه حيث كانت القرائية قوية للغاية؛ وبعد أن عاش فى سوريا حيث استمر فى تحرير مؤلفاته الدينية والفلسفية، وأنهى مجرى حياته الشهيرة فى منصب «جاعون» ـ أى رئيسًا لأكاديمية بابل الشهيرة فى بلدة «سورة» على أبواب بغداد عاصمة الإمبراطورية الإسلامية ـ لقد كان «سعادية» موجها عظيما، وهو يكاد يكون منبعًا للبحث الفلسفى والتفسيرى ليهودية العصور الوسطى، مناديا بدراسة

اللغة العبرية وقواعدها؛ وهو الذى قام بترجمة «الكتاب المقدس» إلى اللغة العربية لأول مرة حتى تكون فى متناول إخوته فى الديانة، وفى متناول مفكرى الديانات الأخرى، رافعا الدعوة إلى تطوير المستوى الفكرى عند مواطنيه؛ ولما كان سعادية الموفق بين الثقافة الإغريقية والفكر اليهودى، فإنه يمكن وصفه بحق على أنه «فيلون الثانى»، ومبشرا بقدوم «الميمونية»، مشكلًا بذلك رباطا مشرفا فيما بين هاتين القمتين للفكر اليهودى. على أن سعادية ـ خلافًا لما سبقه ـ قد نجح أن يجعل إخوته فى الديانة يستمعون إليه، والسير فى منهج فكرى حول معطيات العقيدة بعيدًا عن المنحنيات التى اتبعتها التقاليد. من المؤكد أن فكر رجل مثل سعادية لا يمكن إدراكه بعيدا عن محيطه الإسلامى وعن إسهام مدرسة «المعتزلة» الفلسفية التى يدين لها بقدر كبير من تكوينه الفكرى؛ غير أن تفكيره يستند إلى منظورات يهودية حميمة ويمكن أن تكون اليهودية المصرية فخورة بمساعدتها على ازدهار مثل تلك الشخصية، أى أول جاعون يستدعى من خارج البلاد ويكون له تأثير عالمى.

وثائق « الجنيزة» لمصر القديمة

سبق أن ذكر وثائق «جنيزة» الفسطاط كل من «فان جلدرن» فى العام ١٧٥٣ و«يعقوب سافير» فى العام ١٨٦٤، واللذين لم يدرسا مضمونها؛ فقد كان الذى اكتشفها فعلًا «سلامون شيشتر» فى العام ١٨٩٦. لقد كانت عبارة عن مجموعة كبيرة من الوريقات، غالبيتها باللغة العربية، ولكنها مكتوبة بالأحرف العبرانية؛ وقد حفظت بأعجوبة من شدة حرارة وجفاف الجو فى القاهرة؛ فقد كانت الوريقات مودعة فى «جنيزة» كنيس «عزرا» فى الفسطاط على بعد خطوات فقط من القاعة التى كانت تعقد فيها جلسات المحكمة الربانية، والتى كان يقوم بالتدريس فيها عديد من الأشخاص ومنهم «موسى الميمونى» وابنه «إبراهام». كان هذا الكنيس قد تم بناؤه فى العام ٨٨٢ على أنقاض كنيسة قبطية تم بيعها لليهود؛ وكانت الوريقات محفوظة بكل ورع وإجلال؛ ولما كانت تحتوى على عبارات مقدسة، أصبح لا يمكن إزالتها. لقد استطاع «شيشتر» الحصول على عدد كبير من القطع حيث قام بتجميعها فى «كامبريدج»، بينما الآلاف منها قد تبعثرت فى كافة أرجاء السوق العالمية.

إنها كنوز أدبية حقيقية ووثائق تاريخية ذات قيمة ثمينة. يتعلق الجزء الذى يهمنا فى

المجال الذى نعالجه هنا بـ (سبعة الآلاف) وثيقة وأجزاء من الوثائق الخاصة بتاريخ اليهود فى مصر، وفى فلسطين، وفى مجمل حوض البحر الأبيض المتوسط من الفتح العربى حتى عصر المماليك؛ وهى فترة لم تكن معروفة قبلًا. تعود أقدم وثيقة إلى العام ٧٥٠، بينما يعود أحدثها إلى القرن الخامس عشر؛ غير أن أغلب النصوص ترجع إلى القرن العاشر والقرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر.

لقد استعان «سلامون جوتين» بجزء كبير منها فى أعمال مدهشة فى هذا الشأن (على هيئة مقالات، ثم نشر مجموعة هامة من أربعة كتب). لقد كان من شأن تلك الدراسات أنها أثرت بشكل عميق معلوماتنا عن جزء هام من العالم الإسلامى ـ لأنه كما يلاحظ المؤلف عن حق ـ فإن رجال «الجنيزة» هم فى الواقع شهود على مجتمع البحر الأبيض المتوسط وعلى العصور الوسطى، حتى فيما يتعدى اليهودية المصرية.

عصر الفاطميين (٩٦٠ ـ ١١٧١)

مع دخول الفاطميين إلى مصر فى العام ٩٦٩، نقتحم بقوة تاريخ يهودية أشد شهرة، والتى تمتعت بقدر أكبر من الرخاء والانتشار. لقد لعب اثنان من الرجال كلاهما من أصل يهودى دورًا هاما للغاية فى النجاحات الأولى التى حققتها تلك العائلة المالكة الوافدة من شمال أفريقيا والتى كانت تحمل رسالة تسعى إلى أن تكون ذات طابع عالمى. نعنى هنا كلا من «بالسييل» الشخصية الغامضة، و«يعقوب بن كيلليس» وهو شخصية تاريخية معروفة.

هناك مرجعيان بدائيان يرثان «بالسييل» الذى توفى فى العام ٩٧٥، حيث يقدمانه لنا على أنه عالم فى الفلك، وكذلك طبيب، ومن رجال الدولة فى مصر فى القصر الملكى الفاطمى للمعز الذى كان يحكم البلاد من ٩٥٣ إلى ٩٧٥. من المعروف أنه من مواليد «أورويا» فى جنوب إيطاليا، وأنه عاش فى «أفريقيا» (تونس حاليًا) فى حاشية الملك، حيث أصبح طبيب الملك ومستشاره الخاص؛ وقد عهد إليه خلال غزو مصر بالعمل على توفير التموين اللازم للجيش الفاطمى، حيث أصبح نوعًا من سكرتير الدولة «الوسيط» فى مصر المحتلة. لقد تمت عدد من المحاولات لمدة طويلة لتحديد شخصية «بالسييل» المجهول فى المراجع العربية.

لقد اعتبره البعض من شاكلة «جوهر الصقلى»، وهو الجنرال الذى حقق النصر للفاطميين واعتبره البعض على شاكلة «يعقوب بن كيلليس».

لقد اعتبره «برنار لويس» مماثلا لـ«موسى بن اليعازر» والذى لا تزال مؤلفاته الطبية موجودة؛ كما كان صديقا لـ «ابن كيلليس»؛ على أن «جوتن» له رأى مختلف؛ فهو ـ وإن كان يشير إلى وجود «ابن اليعازر» فى القصر الفاطمى ـ يؤكد أن «إبراهام بن عطا» (أو «ابن ناثان»، وهى المقابل العبرى لاسم «عطا» باللغة العربية) كان هو أول طبيب فى القصر الملكى يحمل لقب «ناجد»، وهو اللقب الذى كان قد أعطى إلى «بالسييل»

كان «يعقوب بن كيلليس» (٩٣١-٩٩١) شخصية نموذجية لما يمكن أن يكون مجرى الحياة العملية لرجل دولة فى العصر الوسيط؛ لقد ولد فى بغداد واستقر وهو لا يزال صغيرًا فى فلسطين فى مدينة «الرملة» حيث كان يعمل فى التجارة وفى النشاط المالى، وانتهى به الأمر بأن أفلس وهرب إلى مصر ليلحق بـ«كافور»، وهو عبد من السود كان واليا على مصر لصالح العائلة الإخشيدية. كان «ابن كيلليس» يبلغ من العمر ٣٠ سنة حينذاك؛ وقد أصبح محصل التمويل لصالح «كافور»، وعهد إليه بالعمل فى الحصول على الضرائب الزراعية فى البلاد. ولما أصبح مستشارًا للملك فى الاقتصاد والقانون فقد أشهر إسلامه حتى يستطيع هكذا تولى المهام الكبرى، والتى طالما سعى إليها بحمية وتشوق. إلا أن آماله أحبطت؛ فلقد توفى «كافور» وسجن «ابن كيلليس» بأمر من الوزير القائم آنذاك. ولما استطاع أن يهرب، ذهب إلى تونس واضعا نفسه فى خدمة الفاطميين منافسى الإخشيديين؛ وكانوا يتأهبون للاستيلاء على وادى النيل. لقد شجع «المعز» على تنظيم تلك الحملة، ومده بمعلومات قيمة عن الوضع الداخلى فى البلاد الذى يكاد يعرفه خير المعرفة. عندما تم الاستيلاء على مصر، عهد «المعز» إلى «ابن كيلليس» بتحصيل الضرائب وبإصلاح النظام النقدى. وفى العام ٩٧٧ حكم «العزيز» (الخليفة من ٩٧٥ حتى ٩٩٦)، فأصبح «ابن كيلليس» وزيرا، وهو إذن أول وزير فى مصر الفاطمية من أصل يهودى اعتنق الإسلام. وقد قام بإعادة تنظيم الادارة فى البلاد وشجع الدراسات الدينية (بل يؤكد البعض أنه قام بتدريس الفقه بكل جدارة، وعمل على توسيع رقعة أراضى الامبراطورية الفاطمية، وجعل من محيطه العلماء ورجال القانون والأطباء والأدباء والشعراء). وهو أول من بادر فى جعل الأزهر ـ الذى أصبح عندئذ الجامعة الدينية الرئيسية فى العالم الاسلامى ـ مركزًا لتعليم

النظريات الإسماعيلية للفاطميين. لقد توفى «ابن كيلليس» فى العام ٩٩١، وتحسر عليه أسياد البلاد الذين خدمهم بوفاء لاجدال فيه، حتى وإن كان لم يتردد فى اللجوء إلى وسائل غير شريفة للوصول إلى أهدافه. غير ان الجماهير الإسلامية أخذت مع ذلك عليه اهتمامه باليهود والمسيحيين إبان توليه منصب الوزير.

ويحكى عن «ابن كيلليس» قصة نادرة والتى تبدو لنا ذات معنى خاص عن الأخلاق ومستوى الرخاء وقدر اللياقة التى كانت سائدة فى قصور أمراء الشرق فى العصور الوسطى؛ ولنترك المؤرخ «القلقشندى» الذى توفى فى العام ١٤١٨، ليحدثنا فى هذا الشأن وهو مؤلف لعرض هام للغاية عن تاريخ وجغرافية كل من مصر وسوريا فى القرن الرابع عشر.

وهو يكتب أن الخليفة العزيز قال لوزيره «ابن كيلليس» إنه لم ير فى حياته كرز بعلبك، وأنه يهمه أن يراه. كان هناك فى القاهرة حمام من دمشق، كما كان فى دمشق حمام من القاهرة؛ وقد أصدر الوزير أوامره للموظف الذى كان تحت إمرته فى دمشق للعمل على جمع حمام القاهرة الموجود فيها وربط كل حمام بكرزة من بعلبك وإطلاقها للقاهرة وهو ما تم بالفعل.

ولم ينته اليوم دون أن يصل هذا الحمام إلى القاهرة بما كان يحمله من كرز. هنا عمد الوزير «يعقوب ابن كيلليس» على جمع الحمام، وجاء بالكرز إلى الخليفة فى اليوم ذاته؛ إنها كانت فى الواقع أحد الأمور الغريبة جدا التى كان له أن يشاهدها.

لقد تم تحت حكم الفاطميين فرض تحول مهم لا يمكن تفسيره سوى بمجريات الأحداث داخل العالم الإسلامى ذاته؛ ذلك أنه منذ العام ٧٥٠ ـ عندما استطاعت الخلافة العباسية التى كانت قائمة فى بغداد الإبقاء على أسطورة الوحدة الإسلامية بمقر وحيد للخلافة على الرغم من سلطة القوى البعيدة عن المركز التى كانت تعمل فى ظل إمبراطورية تمتد من ضفاف نهر «الهندوس» حتى أعالى جبال البرانس ـ تغير الوضع بشراسة فى بداية القرن العاشر؛ فقامت على التوالى أفريقيا الفاطمية، و«كوردو» الأموية بالإعلان عن إمارتهما للمؤمنين، وهو اللقب الأعلى فى السلم السياسى، الدينى فى الإسلام. وهنا استعادت كل من أسبانيا والمغرب والشرق الأوسط وآسيا الدنيا والوسطى استقلاليتها التى كان يفرضها كل من التاريخ والجغرافيا. حينئذ جرى

التنافس فيما بين قرطبة، والقاهرة (التى حلت محل المهدية بعد الفتح فى العام ٩٦٩)، وبغداد للتأكيد على تفوقهم وسلطتهم داخل «طائفة المؤمنين» التى قام (سيدنا) محمد بتأسيسها. سوف نرى أن اليهودية ستسير فى الدرب نفسه، تحت دفع كل من المراكز الثلاثة.

لقد تعمقت استقلالية اليهودية المصرية مقارنة ببغداد التى كانت مقرا للأكاديميات البابلية؛ فتم إقامة مدارس تلمودية ودينية، وكذلك أكاديمية فى الفسطاط فى آخر القرن العاشر. وتولى أحد «النجاد»، وهو رئيس الطائفة اليهودية، قيادة اليهودية المصرية والسورية. هذا، وقد جاء أساتذة من الفلسطينيين حيث أقاموا على ضفاف النيل، حتى أن الطائفة المصرية أصبحت أقوى طوائف اليهودية إلى درجة أنه كثيرًا ما كانت تزود أكاديمية كل من بابل ومن الأراضى المقدسة بكل احتياجاتها المادية. لن يمر وقت طويل حتى تصبح القاهرة ـ التى أسسها الفاطميون ـ مركزا مشعا لليهودية الشرقية؛ كما سنشاهد بروز المنافسات فيما بين المعلمين البابليين والفلسطينيين لاجتذاب حظوة يهود مصر.

كان الوضع شبيها من بعض النواحى لما كانت عليه الأوضاع فى نفس العصر بالنسبة لليهودية فى إسبانيا الإسلامية؛ ويقال لنا إنه كانت توجد علاقات حميمة فيما بين «حزداى بن شبروت» ـ المستشار والوزير المفوض للأموى «عبد الرحمن الثالث» ـ وبين «يعقوب بن كيلليس». لاشك أن أولهما لم يتخل عن دينه الأصلى، غير أن سيرة كل من هاتين الشخصيتين البارزتين داخل بلد كل منهما تقدم لنا قدرا كبيرا من التشابه الواضح، والذى ليس مجالا للاستطراد فيه هنا.

إلا أن أهم انقلاب فى تاريخ اليهودية المصرية قد وقع على الصعيد الاجتماعى والاقتصادى قبل ذلك فى عهد الفاطميين؛ وذلك لظهور «بورجوازية» يهودية فى مصر الإسلامية. لقد شهدت بغداد قرنا قبل ذلك ظاهرة مماثلة، مع تطور نظام مصرفى كان لليهود مركز هام فيه؛ وهو ما كتب عنه «لوى ماسينيون» صفحات مثيرة.

حقا، إن العصر الفاطمى الذى وصفه «جاستون ويت» ـ أحد أقدر المتخصصين فى الإسلام ـ بأنه «من أبرز عصور التاريخ إثارة» قد تميز برخاء صناعى وتجارى غير عادى. ولقد كانت المعاملات التجارية فى داخل البلاد وخارجها مزدهرة للغاية؛

وتـركـزت السياسة التجارية التى اعتمدها سادة مصر الـجدد فى العمل على نقـل التجـارة العابرة فيما بين الهند والشرق الأقصى من ناحية، وحوض البحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى حتى طريق الخليج الفارسى الذى كان تحت هيمنة العباسيين إلى طريق البحر الأحمر الذى كانوا يؤمنون السيطرة عليه. وفى مواجهة المنافسة الشديدة والنشاط الذى كان يمارسه التجار الإيطاليون فى وسط وشرق البحر الأبيض المتوسط، عمد الفاطميون على تشجيع هذا الانتقال إلى الشرق، وأصبح البحر الأحمر الشريان الرئيسى للتجارة العالمية، مما شكل، بصورة تصاعدية، المنبع الأشد ربما للمالية المصرية.

كما تمت إقامة علاقات مستمرة بالعديد من البلاد، وكانت القاهرة تتعامل مع الحبشة والنوبة واسطنبول وإيطاليا (مدن المافى وبيزة وجنوة والبندقية) وكذلك جزيرة صقلية وأفريقيا الشمالية وإسبانيا وأوروبا. كانت التجارة مع الهند تتم عن طريق «قوس» (فى الصعيد)، وبين ميناء «أيدهب» السودانى على البحر الأحمر، حيث كانت تنطلق منه البواخر التجارية. لقد شهد هذا النشاط التجارى الدولى انطلاقة بأسرع ما حققه الفاطميون، وبعكس غالبية العائلات التى تولت الحكم فى وادى النيل يبدو أنها لم تقيم نظام احتكار الدولة.

توضح لنا وثائق «الجنيزة» أن اليهود لعبوا دورًا رئيسيًا فى تجارة العبور، ومن أهم ما يسر عليهم ذلك عدم تطبيق الفاطميين الاشتراطات الهامة فى القانون الإسلامى، ومنها فرض ضرائب تمييزية على التجارة التى يقوم بها «غير المؤمنين»، أو دافعى الجزية، لمحاباة التجار المسلمين. ولما كان اليهود يستطيعون إقامة العلاقات مع إخوانهم فى الديانة المقيمين فى البلاد الأخرى، وإبرام الاتفاقيات التجارية والتأمينية معهم، والتى كان من شأنها تيسير العمليات المالية المعقدة التى كانت تفرضها التجارة العالمية فى هذا العصر، فلقد عاد ذلك على اليهود بمميزات هامة.

يظهر لنا بوضوح هذا الانتشار الواسع ليهود البحر الأبيض المتوسط فى المحيط الهندى فى «الكتاب عن الهند» تأليف «جويتن».

منذ النصف الثانى للقرن العاشر، قامت علاقات تجارية بين يهود كل من مصر «وقيروان»، دامت وتعمقت على مدى عدة قرون؛ ولقد شاهدنا تحت حكم الفاطميين

تكوين طائفة هامة من اليهود المغاربة على ضفاف النيل؛ فإنه علاوة على الجاذبية التى كان لابد أن تمثلها مصر فى هذا العصر لجيرانها الأقل ثراء، هناك سلسلة من العوامل التى ساعدت على هبوط الأوضاع فى المغرب وعلى تدفق يهود شمال أفريقيا المستمر على مصر. كما دفع غزو الهلالية وغزو البيزنطيين فى القرن التاسع، والمحمديين (وهى عائلة مالكة من البربر التى سيطرت على شمال أفريقيا والأندلس ١١٤٧ إلى ١٢٦٠ وتأسست تلك العائلة المالكة من محمد ابن مرمرى المترجم) ثم غزو النورمانديين فى القرن الثانى عشر.

كان «نهراى بن نسيم» الشخصية البارزة بين كافة التجار من أصول مغربية الذين جاءوا إلى مصر لتكوين ثروة من ممارسة التجارة العالمية. وكان «نهراى بن نسيم» وهو أصلا من «قيروان» قد أقام فى الفسطاط فى العام ١٠٤٥ وأصبح تاجرا ومصرفيا من الأثرياء؛ ولقد تخصص فى تصدير المواد الغذائية الثمينة مثل البقولات، واللؤلؤ، والأحجار النيلية؛ وكان أيضا عالما فى الشئون الدينية؛ وقد جرت استشارته عدة مرات عن قضايا قانونية ودينية. وتضم «الجنيزة» أكثر من ٢٥٠ رسالة قام بتحريرها أو وصلت إليه، وهى تتابع الفترة من ١٠٤٨ إلى ١٠٩٥؛ حيث جرى وصفه فى بعض منها بأنه «الحاخام صاحب المكانة الكبيرة وأكبر حاخامى اليهودية». لقد ركزنا اهتمامنا بقدر كبير على تلك الشخصية، وهى التى تعد الوجه المركزى فى أوراق «الجنيزة» الاقتصادية لأنه يقدم لنا نموذجا مثاليا ظهر - قد يكون تحت تأثير الإسلام - فى حضن يهودية القرون الوسطى ذات التبعية الإسلامية؛ وهى يهودية «العالم التاجر» أو «التاجر العالم» الذى يتكلم عنه ابن ميمون بكل اعتزاز فى مؤلفاته. لابد لنا أيضا أن نتذكر فى هذا الشأن أن «دافيد» شقيق «رمبام» قد اتيح له الإشباع لتلك المثالية، فلقد انطلق بمصر فى تجارة الأحجار الكريمة مع الهند؛ وهو باستثماره لأموال العائلة أتاح لأخيه الشهير - موسى - إمكانية أن يتكرس بصورة كاملة ولو لقدر من الوقت لأعماله الفكرية والتأملية فى خدمة الطائفة.

إن استقلالية اليهودية المصرية فيما يتعلق بأكاديميات بابل وفلسطين - والتى جاءت متأخرة عن استقلالية يهودية الأندلس - تعد إلى حد كبير نتاجا لجهود «شيماريا بن الحنان» الذى توفى فى العام ١٠٠١ والذى ينسب إليه بشكل عام تأسيس أكاديمية الفسطاط.

هناك قصة مثيرة تحكى عن «شيماريا» وعنوانها «قصة الأسرى الأتقياء الأربعة»، والتى ولدت فى الاحتمال الأكبر فى إسبانيا الإسلامية فى نهاية القرن العاشر؛ حيث يحكى أن أحد القراصنة المْسلمين من أصل قرطبى استولى على مركب كانت قد انطلقت من جنوب إيطاليا على متنها أربعة حاخامين. لقد كانت تلك الشخصيات التقية مكلفة من أكاديمية بابل للقيام بمأمورية هامة وهى تجميع الأموال من أجل تزويد المهر للشباب من الأوساط المتواضعة التى ترغب فى الزواج.

وهنا، قام القرصان ببيع الحاخامات الأربعة إلى ثلاث طوائف يهودية، والتى قامت فى الواقع بتحريرهم من الأسر، فيما حققت عملا يتسم فى ذات الوقت بالتقوى ويعود بالمنفعة. ذلك أن الحاخامات أنشأوا فى البلدان المضيفة أكاديميات حظيت بشهرة واسعة، وعملت على ازدهار الفكر اليهودى. سوف يقوم بنفس الشىء كل من «هشيل» فى «قيروان» و»شماريا بن الحنان» الذى عمل على تدعيم اليهودية المصرية. من الواضح أن هناك غرضًا ما يرتسم وراء تلك الأسطورة، وهو تبرير تفكيك مركز بابل الروحانى ونقله التدريجى نحو الغرب بمصاحبة المراكز الثلاثة للفكر الربانى المستقل وهى التى سوف تتكون فى القاهرة وقيروان وقرطبة.

فلنعد إلى أرضية أشد صلابة تاريخيا؛ لقد كان «شماريا» من تلاميذ الجاعون البابلى «شريرة»، وصديقًا لابنه، وخليفة «هاى جاعون». عندما عاد إلى مصر، أسس أكاديمية الفسطاط التى تولى رئاستها؛ وكان فى ذات الوقت يدير المحكمة الربانية المحلية؛ وكان مشهورًا بأنه خطيب مثقف. لقد ألف تعليقا على «قدس الأقداس»، ويعود الفضل إليه فى توسيع أفق اليهودية المصرية من خلال مواصلة العلاقات الحميمة بأقرانه، وهم جميعهم من ذوى الثقافة الكبيرة منهم «هوخييل» فى قيروان و«دوناش بن لابرات» فى إسبانيا (وهو الذى كتب أيضا قصيدة للإشادة به) و«هاى جاعون» فى العراق. ولقد خلفه ابنه «الحنان بن شيماريا» الذى توفى فى العام ١٠٢٦ على رأس الطائفة. وكان هو أيضا قد تم تكوينه فى بابل، وكرس كافة جهوده لتنمية أكاديميته حتى انه حصل على منحة من الخزينة الفاطمية.

لما انقطع «الحكيم» عن صرف تلك الإعانة ـ وهو الملك الفاطمى الوحيد الذى كان يحمل قدرًا كبيرًا من انعدام التسامح ـ توجه « الحنان» إلى الأثرياء من إخوتهم

دينيا فى مصر وفى الخارج للحصول على مساعداتهم. كما قام بكتابة عديد من القصائد ضد القرائية على نفس نمط كتابات «سعادية جاعون»، ويبدو أيضا أنه كانت له لمسات فى الفلسفة.

لا يمكن الحديث عن اليهودية فى العهد الفاطمى دون ذكر اسم «أبو سعد التوستارى» الذى كان من رجال المالية ومن حاشية القصر الملكى فى مصر؛ وهو أصله من مدينة «شوشتار» فى جنوب غرب فارس؛ علما بأن المراجع اليهودية تذكره تحت اسم «أبراهام بن يهار». لقد ذهب وأخوه إلى مصر حيث كان لهم نشاط تجارى ومالى. عمل «أبو سعد» فى تجارة الأحجار الكريمة، وفى المالية؛ وكان شقيقه «أبو نصر فضل» (أى «حسيد» باللغة العبرية) مصرفيا؛ وعندما أصبح ثريا ومن المترددين على القصر الفاطمى، باع إحدى الزنجيات للخليفة «الظاهر» الذى حكم البلاد من ١٠٢١ إلى ١٠٣٦، جاعلا منها خليلته التى أنجبت له ابنا سيصبح الخليفة القادم «المستنصر» الذى خلف والده تحت وصاية والدته وهو يبلغ سبع سنوات. أصبح «أبو سعدة» شخصية هامة فى مصر خلال سنوات ١٠٤٠ كما كان المستشار المقرب من الملك الشاب؛ وقد ساعد يهود مصر وسوريا سواء الربانيون أو القراءون. لقد كان قرائيا فى الاحتمال الأكبر، غير أن ذلك ليس مؤكدًا، فلقد ادعت بكل شراسة كل من الطائفتين اتباعه لها. هل غالى الرجل فى استعمال سلطانه المطلق؟ غير أنه قد تم فى ١٠٤٨ القضاء على حياته بفضل مكائد أحد ممن يحميهم الذى كان يهوديا واعتنق الإسلام وأصبح من كبار موظفى الدولة الفاطمية؛ انه «صداقة بن جوزيف الفلاحى». لقد كتب بعد ذلك بفترة نفس المصير لأخيه. بعد مصرع والده، اعتنق «يانت» الإسلام متخذا لنفسه اسم «حسن» وأصبح وزيرا لفترة وجيزة فى الإمبراطورية الفاطمية؛ وكان قد عقد زواجه فى العام ١٠٣٠ على بنت من عائلة من النبلاء اليهود، تعتبر أن أصولها تعود إلى الملك داوود.

ليست حالة الإخوة «توستارى» أمرًا استثنائيا، فلقد هجر عدد كبير من اليهود الفارسيين إلى مصر حيث كان يستهويهم الرخاء الذى كان يسود فيها. لقد كان عدد كبير منهم من القرائين، وهو ليس بالطبع حالة اليهود من أصول مغربية الذين أقاموا فى البلاد.

الحياة اليومية للطائفة وفقا لوثائق «الجنيزة»

لقد جرى الحديث طويلًا عن تسامح الفاطميين غير العادى إزاء الأقليات الدينية والاستثناء المشهور الوحيد كان الخليفة «الحكيم» الذى تولى الحكم من ٩٩٦ إلى ١٠٢٠ والذى حاول أن يجعل إخوته فى الديانة يعبدونه على أنه الإله؛ إنه وليد إحدى المسيحيات، وهو ابن أخ اثنين من البطارقة الملكيين الإغريقيين الكاثوليك، وقد أصيب بأزمة غريبة فى النصف الثانى من حكمه، حيث كانت تختلط الصوفية بالتعصب. لقد أجبر كلًا من اليهود والمسيحيين على الاختيار بين اعتناق الإسلام أو النفى. وقد عمد عديد من اليهود إلى اللجوء إلى النوبة والحبشة واليمن أو فى المقاطعات البيزنطية؛ على أنهم فور وفاة الخليفة تمكنوا من العودة إلى مصر حيث استعادوا حرية ممارسة عباداتهم؛ بل أن الذين اعتنقوا الإسلام غصبًا عنهم قد سمح لهم وفقا للشريعة الإسلامية بالعودة إلى عقيدة أجدادهم.

إلا أنه لابد هنا من القول أن هذا التسامح من قبل الملوك لم يشاركهم فيه سكان البلاد، ذلك أن الرخاء الذى كان يتمتع به هؤلاء «المرتدون» لم يكن من شأنه سوى إثارة الضغينة فى أوساط المتقين؛ وتعود لهذا العصر قصيدة من الشعر كتبها أحد المسلمين والتى انتقلت شفويا من واحد لآخر، والتى تنادى شعب مصر إلى التحول لليهودية نظرا لليسر الذى ينعمون به.

من الملاحظ فى زمن هذا الثراء أن كثيرا ما كان التعايش سلميًا فيما بين الربانيين والقرائين والسامريين؛ وفى عديد من المناسبات كانوا يشكلون جبهة واحدة لافتداء الأسرى من القراصنة. هناك عديد من الوثائق التى تؤكد على أن كبار القوم من القرائين أصحاب النفوذ ساهموا مساهمة فعالة فى الشئون الطائفية.

ولقد شهدت زيجات «مختلطة» بين القرائين والربانيين خاصة فى الأوساط الميسورة، حيث كان عدد القرائين فيها كبيرًا. لقد تزوج «دافيد بن دانيال بن عزاريا» فى القرن التاسع من إحدى الشابات القرائيات. على أن الانفتاح قد خفت فى عصر ميمون الذى جاء من الغرب، والذى كان أقل تأثرا بالتفكير القرائى، بل وأشد تزمتا بالنسبة لمصر المتسامحة.

على رأس السلم الإدارى كان هناك الناجد (رئيس اليهود) وهو منصب أسسه

الفاطميون. كثيرًا ما كان الناجد طبيبا فى القصر الملكى، وكان فى معظم الأحيان ربانيا؛ ومع ذلك كانت كل من سلطاته وصلاحياته القضائية تشمل الطوائف الثلاثة الربانية والقرائية والسامرية؛ فهو كان فى الواقع مقابل البطريرك المسيحى، وكانت سلطاته تمتد على اليهود فى اليمن وفلسطين وسوريا عندما كانت تلك المقاطعات تحت التبعية المصرية.

كان «الناسى» نوع من كبار رجال القوم من سلالة داوود، كما كان الشأن عند المسئول فى بغداد. وكانت سلطاته روحانية فقط. علينا أن نلاحظ أن تلك المؤسسة لم تظهر سوى فى بعض الأحيان من التاريخ المصرى، وأن السلطة الأدبية لهؤلاء «الأمراء» لم تكن محل اعتراف السلطات القائمة.

كان لكل من الطائفتين البابلية والفلسطينية تنظيماتها الخاصة وقادتها الروحانيون، كما تقيم كل منهما علاقاتها مع «جاعونها» الخاص.

كان لكل مدينة كبرى رئيس للطائفة معترف به من الإدارة المحلية. ويمثل هذا الرئيس كافة العائلات اليهودية التى كانت تقيم بالمنطقة؛ كما كان تحت إمرته رؤساء لكل قسم من الأقسام أى البابليين والفلسطينيين والقرائين والسامريين.

كان على رأس أكاديمية الفسطاط «جاعون» (مدير) دخلت سلطاته أحيانا فى منافسة مع السلطات التى كانت لدى المديرين الفلسطينيين. إننا نمتلك بفضل وثائق «الجنيزة» قائمة بأسماء «الجيونيم» (المديرين) المصريين من أواخر القرن الحادى عشر حتى عصر ابن ميمون (فى نهاية القرن الثالث عشر) وكثيرًا ما كان يحصل أن الملوك يستفيدون من المنافسات بين المرشحين لمنصب «الجاعون»، وذلك من خلال العمل على انتخاب مرشحهم المفضل مقابل الحصول على مكافأة سخية. هذا ما كان يتم أيضا بشأن «الناجد» وهو المنصب الذى يكون للسلطة رأى فيه.

كانت لطقوس يهود مصر ـ على الأقل منذ عصر «سعادية» ـ سماتها الخاصة التى كانت تميزها عن طقوس الطوائف الأخرى. لقد أشار إلى ذلك فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر «ابن توليد» فى مسيرته عن رحلته فى مصر.

كانت اللغة العربية هى اللغة السائدة فى الطائفة؛ وكان يجرى اللجوء إلى المفسرين بشأن الأعمال الدينية والقانونية المكتوبة باللغة العبرية. كما مثلت الكتب العبرانية

مصدرا مهما للتصدير من قيروان إلى القاهرة. وكان المرتل الذى يعمل فى الكنيس، والذى أصبحت مكانته تتصاعد نظرا لتعقد الشرائع الدينية وانحطاط المعرفة باللغة العبرية، هو عبرانى الطائفة إذ كان عليه أن يقوم بإنتاج القصائد الشعائرية فى اللغة المقدسة.

كان العديد من اليهود يقيمون فى الأرياف حيث كان لهم نشاطات حرفية وزراعية؛ فاليهودية المصرية لم يكن تمثيلها منحصرًا فى الأثرياء من تجار المدن الكبيرة. فإلى جانب نخبة متنوعة موجودة أساسا فى الإسكندرية، هناك كتلة من اليهود الذين اندمجوا مع السكان المحليين حيث كانوا يعيشون حياتهم على ذات الطراز.

ومن المدهش حقا فى شأن الحياة الاجتماعية والعائلية التطابق الواضح مع ممارسات الوسط الإسلامى، من مثال: هيمنة الذكور، ولاسيما من أب العائلة، والحس الحاد للعائلة بما فيها الأسرة الممتدة، وإمكانية أن يكون الرجل متعدد الزوجات على أن هذه الممارسة كانت تقل كثيرا عما هو عند المسلمين، والاحترام والإجلال إزاء الآباء والأجداد، والاهتمام بالسلالة العائلية، والمزايا المتعلقة بالإنجاب، وحالات الزواج المتعددة فيما بين أولاد العم، وزواج البنات المبكر بأزواج يكبرونهن سنا بشكل واضح، واعتبار الزواج عمل من أعمال التقوى وما يحمله من هدف الإنجاب، وانحسار النساء عادة داخل البيوت، وإنشاء المؤسسات الدينية لسد احتياجات فقراء الطائفة، والسهولة التى يتمتع بها الرجل فى الطلاق من زوجته... إن تلك الأمور لا تعد من الثقافات المتبادلة، بل هى مظهر من تقاليد مشتركة شرق أوسطية، والتى نرى آثارها أيضا فى الطوائف المسيحية فى الشرق.

إن وضعًا كالأقلية، وعدم الثبات المرتبط به، كاف لئن يجعل اليهود يقفون صفا واحدًا، كما سينطبق الأمر نفسه على عديد من الجماعات المطوقة على أرض الإسلام. كان المفهوم الطائفى حادًا للغاية على الرغم من الطابع المركب لليهودية المصرية والفارق الذى كثيرًا ما يكون عميقًا بين الأغنياء والفقراء.

لقد كانت المجموعة تأخذ على عاتقها العناية بالفقراء واليتامى ولكن ليس بالأرامل. يوضح لنا هذا التماسك الطائفى الأهمية التى كانت تمثلها الخدمات الاجتماعية فى إدارة الجماعة وفى كل من فروعها المحلية. ولما كان عدد اليهود حوالى ١٥,٠٠٠

نسمة فى العصر الذى يعنينا هنا فإن أعضاء كل طائفة محلية كانوا يعرفون بعضهم بعضًا جيدا، ومن هنا يصبح من الممكن إيجاد الحلول الإنسانية للقضايا والنزاعات التى قد تنشأ. لقد قام «جويتن» ـ وهو متفائل فى رأينا ـ بوصف النظام داخل الطائفة على أنه «ديمقراطية يهودية من طابع العصور الوسطى».

لقد احترم الملوك الفاطميون الاستقلالية الداخلية للطائفة ما دامت التزاماتها الخارجية محل احترام شديد وتنفيذ دقيق؛ عندئذ كان يترك للطائفة كامل الحرية فى إدارة شئونها كما ترى، ولكن بالطبع فى الحدود الضيفة بوصفها مجموعة «تتمتع بالحماية» تحت إشراف سلطة لا تؤمن لها ذات الميزات التى يتمتع بها جمهور «المؤمنين». لاشك أن استقلالية الطائفة وهناءها كانت على قدر مرونة السلطة الإسلامية وبنية الدولة فيها. سوف يتغير الوضع نسبيًا مع الذين تولوا الحكم بعد الفاطميين.

لم نعثر فى أرض الإسلام على أى مبدأ كان قد ظهر بين يهود الغرب المسيحى، من ذلك مبدأ التحريم الذى يمنح السلطات المحلية الخاصة بالطائفة اليهودية حق الامتناع عن القبول داخلها من هم من نفس الديانة ولكنهم ليسوا من المنطقة، والذين قد لا يروقون لهم. ولاشك أن الحفاوة التى خصت بها اليهودية المصرية اللاجئين والمهاجرين من مختلف البلاد أمر عظيم للغاية.

كثيرًا ما كان للشخصيات المهمة اسمان: أحدهما عبرى، الذى كان يُستعمل فيما بين الإخوة فى الديانة، والآخر اسم عربى الذى كانوا يستعملونه خارج نطاق الطائفة. والشيء العجيب الذى يلاحظ فى وثائق «الجنيزة» أنه فيما عدا استثناءات نادرة لم يحمل يهود مصر أسماء توراتية. كانت أسماؤهم غالبا عربية وزاهية، من أمثال: «ملكة النخب»، و«صاحبة اللؤلؤ»، إلخ.

إن القرائين الذين كان عددهم كبيرًا، وهم أصحاب نفوذ فى العصر الفاطمى، كانت تحمل حياتهم اليومية ثلاث سمات. كانوا يهتمون أشد الاهتمام باحترام معنى النص التوراتى، وكانوا يحاولون الحفاظ على العادات القديمة. وكانوا متأثرين أكثر من الربانيين بالبيئة الإسلامية المحيطة بهم. وهم بشكل عام أشد ثراء من الربانيين؛ لقد رأينا أن عديدًا منهم قد تبوأ مناصب كبرى أو أصبح من أطباء القصر الملكى.

عقدت الزيجات بين بلد وآخر، بل وحتى بين عائلات يهودية من بلاد إسلامية وأخرى من بلاد مسيحية. كانت الرغبة السائدة أن يرزق الإنسان بالعديد من الأولاد، حيث كان يعتبر ذلك وقتئذ بركة من السماء علاوة على أنها حماية عند الشيخوخة.

حقًا فإن المراهقين وهم لا يزالون صغار السن (ابتداء من ١٣ سنة) كانوا يشاركون بنشاط كبير فى الحياة الطائفية والمهنية للبالغين. صحيح أن عديدًا من الأطفال كانوا يموتون فى سن مبكرة، مما كان يحد بصورة كبيرة من النمو الديمغرافى. ومن الملاحظ أن مجىء طفل من الذكور كان يعد فرحة أكبر من إنجاب طفلة.

كان يُكرس اهتمام كبير فى تربية الأطفال من الذكور فى الوقت الذى لم تكن تربية الأطفال من البنات من الأمور التى تعتبر ضرورية. وكانت الطائفة تأخذ على عاتقها التربية الدينية بصفة خاصة، ولكنها ليست الوحيدة.

لم يكن هناك أى قدر من التردد فى استعمال العصا لتحفيز همة الأطفال وتسهيل اكتسابهم للمعرفة؛ إن اليهودية ـ كما هو الحال فى الإسلام ـ تلزم الرجال على اتخاذ زوجة لهم. إن التقاء هذين التقليدين فى حضن اليهودية المصرية أضاف قوة إلى الفكرة التى تقول إن بقاء الإنسان دون زواج يعنى ابتعاده عن الدين؛ ولا يستثنى من هذا الالتزام الأخلاقى والقانونى سوى الفقهاء دون غيرهم؛ على أنه يتوجب عليهم كما يقول بن ميمون أن يعرفوا كيف يمكنهم إخماد شهواتهم الجنسية، وهنا يمكن لـ «حب التوراة» أن يمثل البديل بالنسبة إليهم.

كان عدد كبير من اليهود الحرفيين يتفوقون فى تلك «الفنون الدقيقة» التى كانت الحضارة الإسلامية تتلهف إليها دون انقطاع حتى الآن. لم يتردد بعض من اليهود فى القيام بسفريات طويلة وتحدى البحار للحصول على الأوضاع التى تناسب معارفهم، وهكذا كان من الممكن نقل التقنيات شديدة الدقة.

كانت الأوساط المتواضعة والفقيرة تشعر أن الجزية (وهى الضريبة السنوية عن كل رأس من الرؤوس) عبارة عن كابوس. كانت الجزية تعادل دينارًا واحدًا أو دينارين (قطع من الذهب) فى الوقت الذى كانوا يعيشون بما يكسبون، دون ترف التمتع بالتفكير فى توفير بعض الأموال.

مثلت الاستقلالية القانونية عاملًا أساسيا فى مجتمع تميل فيه الهوية الاجتماعية إلى

التقاطع مع الهوية الدينية، ما لم يكن إلى الامتزاج، وحيث تكون الأوضاع الاجتماعية من الأمور الحاسمة. جرت معالجة كافة القضايا أمام المحكمة الربانية؛ غير أن بعض اليهود أخذوا يلجأون للقاضى المسلم عندما كان ذلك يناسبهم، لاسيما فى المنازعات التجارية. ما من شك فى أن هذا الأمر لم يرق لإخوانهم فى الديانة الذين كانوا يعبرون عن عدم ارتياحهم من مثل تلك المبادرات. هناك تشابه كبير بين «الديان» ونظيره المسلم وهو القاضى، على الرغم من اختلاف مهامهم.. لم تكن المحكمة الربانية مخولة بإصدار بعض الأحكام التى تبقى من اختصاص الدولة المركزية دون غيرها مثل الحكم بالسجن، وبالأحرى الحكم بالإعدام. كانت هناك العديد من المراسم ذات الطابع المحلى التى يتم إصدارها من السلطة الدينية بشأن بعض جوانب الحياة التجارية أو الاقتصادية.

لم يكن هناك فى مصر «الغيتو» (حى يجبر اليهود على الإقامة فيه ـ المترجم)، ولم توجد حواجز بين المجموعات على الرغم من الاتجاه الطبيعى للتجمع فى بعض الأحياء تبعا للانتماء الدينى أو الاثنى.

فى النهاية كان التداخل بين المجموعات الاثنية الدينية فى غاية القوة فى العصر الفاطمى، أى فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر؛ ومن هذا القبيل نندهش كثيرا من الاتصالات داخل حوض البحر الأبيض المتوسط وما كانت تتسم به من سهولة وتيسير وذلك بالرغم من الاختلافات الدينية والسياسية.

لا يجب أن تجعلنا تلك المجموعة من الجوانب الإيجابية أن نتناسى الوضع الذى كان يعامل به اليهود إزاء الأغلبية صاحبة السلطة المطلقة من المسلمين، وهم فى النهاية أسياد البلاد الحقيقيون. إن نظام «الذمة» ـ بما كان يقتضيه من إجراءات قاسية، حتى وإن لم يطبق الفاطميون أشدها تعسفا ـ كان يضغط كالسيف على الرقبة. فـ«التسامح» المفروض لم يكن خاليا من «التسامحية المحقرة» التى يشير إليها «هنرى لاوست» فى دراساته عن الفكر النظرى فى الإسلام. فمن شأن أى تدهور فى المناخ السياسى إحداث نتائج مأساوية، وما لها من تداعيات أكيدة على الأقليات، وهم «كبش الفداء» بعينه، خاصة فيما يتعلق باليهود الذين لا أمل لهم فى حماية خارجية.

لا شك أن اليهود الذين تقوم وثائق «الجنيزة» بتوصيفهم لنا كانوا فى وضع جيد

مقارنة بإخوتهم فى الدين الذين كانوا يعيشون فى العصر ذاته على الأرض المسيحية. ولكن لم يكن الأمر هنا عبارة عن الجنة بأى حال من الأحوال.

تحت حكم الأيوبيين (١١٧١ ـ ١٢٥٠)

يشكل العصر الأيوبى تحولًا فى تاريخ مصر الإسلامية فيما بين العهد الفاطمى الذى اتسم بالرخاء الذى كان يسود البلاد، وبالتسامح الذى كان يبذل بشكل عام من جانب الملوك، وبين عهد المماليك الذى اقترن بالتدهور الاقتصادى والاجتماعى الذى عانى منه وادى النيل، إلى جانب قدر كبير من عدم التسامح نحو الأقليات الدينية.

لقد تميز صلاح الدين ـ مؤسس الأسرة المالكة ـ بشراسته فى كفاحه ضد الصليبيين «الكفار» الذين أنزل بهم هزيمة نكراء، كما تميز أيضا صلاح الدين برحابة صدر استثنائية نحو أعدائه بعد قضائه عليهم.

لقد أحكم صلاح الدين قبضته على مصر بالعودة إلى «التشدد» السنى؛ ولما كان عليه أن يكافح فى ذات الوقت كلًا من الصليبيين و«الملل» الهرطقية، فلقد شجع استعادة العمل بقواعد القانون الإسلامى بما فى ذلك بعض الإجراءات التمييزية ضد دافعى «الجزية»؛ على أن الأيوبيين لم يكونوا مستبدين ضد الأديان الأخرى بشكل عام وتفادوا اضطهاد من يقومون «بحمايتهم».

لقد تبين من وثائق «الجنيزة» أنه خلافا لما يبدو أن تشير إليه المراجع الأدبية التى يتوجب أحيانا قراءتها بعناية، فلم تكن هناك اختلافات ملموسة فى حياة الطائفة فيما عدا مظاهر أكيدة من التشدد الإسلامى وقدرًا من المحافظة وازنها مزيد من الاستقرار فى حياة البلاد مقارنة بآخر الفاطميين الذين شهد حكمهم كثير من الاضطرابات. وقد تم الحفاظ على الحياة الطائفية، وعلى نشاطاتها العشائرية والثقافية.

إن الواقع البارز فى تاريخ اليهودية المصرية خلال القرن الصغير الأيوبى كان فى قدوم علماء ذوى شهرة كبيرة على ضفاف النيل، وافدين من الأراضى المسيحية والذين اشتركوا بنشاط كبير فى الحياة الطائفية، وسوف نقتصر على ذكر اثنين منهم وهما «موسى الميمونى» و»أناطولى بن جوزيف». منذ ذاك الحين، سوف يأتى بشكل عام الرؤساء الروحانيون لليهودية المصرية من الخارج، وهو ما يأخذ مجرى تصاعديًا.

هل يمكن أن نقدم فى بضع كلمات شخصية من طراز «رامبام»؟ لقد طبع هذا الرجل الفكر اليهودى ببصمته الثابتة، وقد تخطى الأثر الحاسم لتأملاته اللاهوتية والفلسفية ذات الحدود اليهودية؛ وهو ما كان عليه وضع «ابن رشد»، مواطنه ومعاصره المسلم فى الغرب.

لقد اضطر «موسى الميمونى» الذى ولد فى قرطبة فى العام ١١٣٥، أن يهرب من البلاد بسبب غزو المحمديين والاضطهادات التى توالت بعد ذلك. وبعد إقامة وجيزة فى مدينة فاس (بالمغرب) حيث يقال إنه كان يقوم بالتدريس فى جامع «القرويين» الأكبر، ذهب إلى مصر فى العام ١١٦٥ بعد مروره بفلسطين التى لم يقم فيها سوى بضعة شهور. كان فى ذات الوقت طبيبا وعالمًا للاهوت وفيلسوفًا ورئيسًا طائفيًا وعالمًا؛ فقد سيطر بن ميمون بشخصيته على العصور الوسطى اليهودية بأكملها.

لقد شارك «سعادية جاعون» هذا الفكر الموسوعى الذى أتاح له معالجة قضايا شديدة التنوع، كما أمكنه أن يقدم للفكر اليهودى بنيانا نظريا دقيق التصميم، يعد ثمارا نافذا لحصيلة الفكر العلمى الإغريقى (خاصة من طابع «ارسطو») والفكر اليهودى الربانى. لقد كانت رغبة «رامبام» أن يكون تربويا اجتماعيا، مدركا لما عليه من واجبات نحو طائفته «كما هو الأمر أيضا نحو الفلسفة». لم يحتل «رامبام» فى مصر أى مهام رسمية، مع أنه كان طبيب القصر؛ على أنه قد فرضت السمعة التى كان يتمتع بها أن يقدم استشارته فى كل مرة يتم فيها اتخاذ قرار هام وكان يجرى ذلك منذ العام ١١٦٨ حين كان يبلغ من العمر ٣٣ سنة، بعد أن أتم تعليقه على «المشنة». وقد كتب فى مصر كتاب بعنوان «مرشد المترددين» وليس «التائهين» كما يقال كثيرا عن خطأ؛ ويعد هذا الكتاب من قمم الفكر اليهودى، كما قام أيضا بتأليف «ميشنيه التوراة»، وهو القانون الدينى ذو الأهمية الكبيرة والذى استهدف أن يوفر لليهود فى أيامه معرفة اليهودية التوراتية والتلمودية. لقد أرسل ابن ميمون من الفسطاط استشارات قانونية ودينية وفلسفية إلى كل إرجاء العالم من «لونيل» فى مقاطعة «لاجندك» (فرنسا) إلى اليمن والعراق.

ومما نعرفه عن نشاطات «الأستاذ» العديدة خلال ٣٩ سنة ـ وهى مدة إقامته فى مصر ـ (حيث توفى فيها فى ديسمبر ١٢٠٤) أنه أنشأ ـ على الاحتمال الأكبر ـ مدرسة للدراسات الدينية التى جلبت له أنصارا من بلاد عديدة.

تحت حكم المماليك (١٢٥٠- ١٥١٧)

لقد شهدت مصر أشد الفترات سوءًا فى تاريخها والتى تمتد من حكم المماليك البحرية (١٢٥٠-١٣٩٠) حتى حكم المماليك البرجيين (١٣٩٠_١٥١٧)، وسوف تلقى الأقليات الدينية وحتى السكان المسلمين كل أنواع السلطوية والاضطهاد والاغتصاب وتفاقم الانفعالات الاستبدادية فى حياتهم اليومية.

لقد عرف اليهود تغييرا حاسمًا فى أوضاعهم حيث نشطت فى هذا الاتجاه عوامل خارجية وداخلية؛ فكان على المماليك أن يواجهوا فى الخارج آخر عمليات الصليبيين، والتصدى لتدخل المغول فى آسيا وفى سوريا، ثم مواجهة هجمات البرتغاليين. كل تلك الأمور لا يمكن أن تساعد على التسامح إزاء المسيحيين المقيمين فى البلاد، والذين كان ينظر إليهم على أنهم من الأعداء الكامنين؛ ومن اللافت للانتباه أنه عندما يقوم أهالى البلاد بمضايقات ضد المسيحيين، فإنهم لا يقيمون أى تمييز فيما بين «غير المؤمنين»، ومن هنا فلقد عانى اليهود أيضا من هذا الوضع. وفى المجال الداخلى فإن المماليك ـ وهم عبيد من أصول تركية أو شركسية ـ أصبحوا سادة لبلد ليس لهم أى رباط بأهله سواء على المستوى الاثنى أو اللغوى أو الثقافى سوى انتمائهم المشترك للاسلام؛ وعليه، لا يستطيعون سوى تدعيم انضمامهم لدين (سيدنا) محمد حتى يضمنوا مساندة السكان الأصليين لهم فى خشية دائمة من تمردهم. يتمثل أحد مواطن ضعف هذا النظام المملوكى فى بنيته بالذات، ذلك أنه عند حدوث خلافة فى الملك كانت تدور معارك دامية بين جماعات متنافرة وطموحة فى ذات الوقت. وكانت الاضطرابات الناتجة عن ذلك والفوضى التى تسود جهاز الدولة فى الفترات الانتقالية من شأنها تشجيع تجاوزات الأهالى وتصفية الحسابات.

من المهم أن نعرف أيضا أن الشرق الإسلامى قضى منذ نهاية القرن الثالث عشر فترة من الانحدار الاقتصادى، وذلك لأن تجارة عبور السلع ما لبثت أن انقطعت عن الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط لتسلك طرقًا أخرى، وأن بلدانا مثل إسبانيا والبرتغال سوف تحل محل تلك التجارة العابرة، خاصة بعد اكتشاف القارة الجديدة. لقد كانت الإغراءات كبيرة عندما تكون خزينة الدولة مفرغة من أية أموال للتبشير بخطر وقوع تمردات حتى يصبح من السهل اغتصاب مساهمات مالية ضخمة من طوائف الأقليات.

وسوف نشهد فى هذا العصر انبثاق قدر كبير من الأدبيات التى تعمل على تعبئة الشعب وتحفيز «الجهاد»، وهو الكفاح فى سبيل الله ضد «غير المؤمنين»، ودعاوى لإعادة تطبيق أشد الإجراءات صرامة المحددة فى مواجهة «المتمتعين بالحماية» عملا «بأوامر عمر».

سوف تتصاعد سطوة دعاة الدين؛ كما سيتظاهر الملوك بالتقوى التى تكون شديدة الوطأة بقدر ما هى تتسم بالانتهازية. ففى هذا العصر سوف يزدهر أحد علماء الدين الإسلامى وهو «ابن تيمية» (الذى توفى فى ١٣٢٨) والذى كان من أشد المتصلبين فى أوانه ضد «الكفار» و«الهراطقة». لقد انطويت فى أرض الإسلام صفحة الحضارة والانفتاح والتسامح.

منذ العام ١٢٠٠ امتنع «قلاوون» عن تنصيب اليهود والمسيحيين فى المهام العامة. فى العام ١٣٠١، اندلعت مظاهرات عارمة هزت مصر وسوريا اللتين كانتا تحت حكم المماليك؛ وتوجهت هذه المظاهرات ضد الملتزمين بدفع الجزية متهمة إياهم بالتواطؤ مع المغول الذين كانوا على التو يعسكرون على أبواب دمشق. لقد تم الاستيلاء على الممتلكات العقارية أو تعمد حرقها كما جرت إهانة الناس.

سوف يحظر ـ حينئذ ـ على «المتمتعين بالحماية» إقامة مزيد من أماكن العبادة، أو توسيع ما هو موجود منها؛ كما سيحملون علامة مميزة (من القماش الأصفر لليهود والأخضر للمسيحيين والأحمر للسامريين) فى سبيل عدم الخلط بين «المؤمنين» و«الكفار».

لقد شهدت البلاد فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر انفلاتًا واضحًا فى التجارة؛ ففقدت المؤسسة الخاصة ـ والتى كان اليهود جزءا كبيرا منها ـ احتكار تجارة البقول والمنتجات الآتية من الخارج التى كانت تشكل أهم قسم فى تجارة مصر الخارجية.

ومن علامات القدر أن قضية عمل النساء التى لم تكن مثارة تقريبا فى عهد الفاطميين وفقا لما جاء فى وثائق «الجنيزة» أصبحت قضية حادة ومقلقة. لقد عمد المماليك على دعم احتكارات الدولة مما أصاب الصناعة الخاصة فى البلاد بالخراب دون أن تؤدى تلك الخطة إلى رفع مستوى معيشة الشعب.

لقد حضر إلى مصر فى العام ١٤٨١ كل من الرحالة «ميشولام دى فولتيرا» و«رابى

عباديا» من مقاطعة «برتينورو» (فى ايطاليا)، وأكد كل منهما على الحالة البائسة التى كانت عليها الطائفة اليهودية فى مصر فى نهاية القرن الخامس عشر مقدرين عدد أفرادها بـ ٥٠٠٠ نسمة تقريبًا حيث كانوا يعيشون فى تجمعات كبيرة.

وعلى الرغم من ذلك، فلا بد من ملاحظة أنه بالرغم من حالات الاضطهاد والتعذيب، لم يتأثر أبدا التنظيم الطائفى لليهود الذى يعد أحد أسس القانون الوالى العام فى أرض الإسلام.

سوف يترتب على قدوم اللاجئين الإسبان فى القرن الخامس عشر تغيرا جوهريًا مفيدا لليهود على ضفاف النيل، إذ كان بين هؤلاء اللاجئين عديد من الأطباء والحاخامين وممن هم على مستوى اجتماعى مرتفع. لقد تلاقت عاداتهم وشعائرهم بما كان فى هذا القبيل لإخوتهم فى الدين المقيمين من فترة طويلة فى البلاد حيث تفاعلت فى جميعهم تأثيرات متبادلة. لقد استعادت الطائفة آنذاك دفعة ثقافية جديدة؛ وسوف يصبح كبار العلماء الإسبان «ديانيم»؛ وهنا يتوجب أن نقول فى التأكيد على الجانب الإيجابى لليهودية المصرية أن «الناجدين» فى البلاد استقبلوا بكل حفاوة هؤلاء القادمين الجدد، بل وتقبلوا عند الاقتضاء السير على نمط تعاليمهم، إلا أنه كان من الصعوبة بمكان تفادى التوترات فيما بين المجموعات الاثنية والتى كانت تؤدى أحيانا إلى نزاعات عنيفة. كان هذا ما جرى بالفعل فى العام ١٤٦٥ عندما نشبت مشاجرات فيما بين «الإسبان» و»المصريين»، مما حمل الطرفين إلى اللجوء للسلطات الإسلامية. لابد من أن نلاحظ فى هذا الصدد أن سرعان ما تفوق المهاجرون الإسبان فى مجال اليهودية المحلية.

تحت حكم الأتراك العثمانيين (١٥١٧ ـ ١٧٩٨)

فى العام ١٥١٧ قام العثمانى «سليم الثانى» ـ بعد غزو سوريا وفلسطين ـ بالاستيلاء على مصر، واضعا حدا لقرنين ونصف قرن من النظام المملوكى الذى اتسم بالتعسف والاضطرابات. لقد ظلت مصر رسميا جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى، إلا أن قدوم بونابرت فى ١٧٩٨ ثم حكم محمد على وذريته، فيما بعد، على ضفاف النيل كان قد وضع حدا للإشراف العثمانى الحقيقى على البلاد؛ وشهدت اليهودية المصرية فى ظل حكم العثمانيين تحسنا فى أوضاعها وتغييرا فى بنيتها الداخلية.

لقد استقبل سادة اسطنبول ـ بحفاوة كبيرة ـ اليهود الذين طردوا من إسبانيا حيث عوملوا خير معاملة فى مختلف مقاطعات الإمبراطورية، وأصبحت كل من اسطنبول وسالونيك وإزمير ملاذا للمقاومة اليهودية الأسبانية.. سوف يبقى العثمانيون على هذا التسامح فى مصر التى استولوا عليها، ما دام نظامهم ظل مزدهرًا، وهكذا استطاعت التجارة اليهودية أن تنطلق من جديد بعدما كانت على حالة حرجة تحت حكم المماليك.

شهدت اليهودية المصرية تحت الوصاية العثمانية ثلاث وقائع هامة:

١ ـ تدفق كبار الدكاترة العلماء من أصول إسبانية على ضفاف النيل؛ نذكر من بينهم «رابى ديفيد بن سلمون بن أبى زيمرا» (الذى سيصبح الحاخام الأكبر للقاهرة فى عهد العثمانيين)، و«رابى موسى بن اسحاق الأشقر»، و«رابى يعقوب كاسترو». تكونت هكذا فى البلاد ثلاث إبراشيات، إحداها «للمستعربين» (السكان الأصليين)، والأخرى «للمغربيين» (القادمين من شمال افريقيا)، والثالثة للإسبان، كان لكل من تلك الإبراشيات الثلاث محكمتها الخاصة بها ومؤسساتها الخيرية.

٢ ـ تعديل التنظيم الطائفى بإلغاء وظيفة «الناجد» فى حوالى العام ١٥٦٠؛ سوف تقوم فيما بعد اسطنبول بتعيين الحاخام الكبير، كما ستتصاعد عملية «التطبع بالأوروبية» و«التجرد من الطابع المصرى» وهى التى كانت قد بدأت تخطو خطواتها الأولى تحت حكم المماليك.

٣ ـ تقلد اليهود مناصب المسئولية المالية للدولة، ووظائف محصلى الضرائب ومديرى هيئة صناعة النقود، ومهمة الصيارفة الرسميين؛ وقد انتهوا إلى احتكار قدر كبير فى هذا المجال مما لن يجلب السعادة للطائفة؛ وهو ما سوف تظهر آثاره فيما بعد.

«الشلبيون» (الأسياد)، أى القائمين على مسئولية خزينة الحكومة التركية، الذين جرى الاعتراف بهم على أنهم قادة الطائفة، وكثيرا ما كانوا يستطيعون تكوين ثروات كبيرة مما كان يثير الغيرة إزاءهم التى كانت تسىء إليهم.

كان يهود مصر فى حاصل الكلام فى وضع ليس غريبا عليهم إذ سبق للفارسيين واللاجديين والفاطميين أن عاملوهم بطرق غامضة ومربكة. كانت السلطة المهيمنة تنظر إليهم بعين الرضاء، وهى لم تتردد عند الحاجة فى اللجوء إليهم لدعم سيطرتها على البلاد؛ فهم الذين سوف يزودون السلطة القائمة بكبار الموظفين الذى يصبحون

أول من يعانى من تغييرات النظام، ومن المشاحنات فيما بين العائلة المالكة، وأيضا من «الوطنية المصرية».

لم يكن من شأن المسئوليات الضريبية والمالية التى عهدت إليهم أن تيسر لهم الأمور؛ وهو ما حدث بالضبط فى إسبانيا الإسلامية، حيث لم يكتب قبل ذلك أبدا للطائفة اليهودية فى هذا البلد أن تخضع سوى بعد تنصيب أحد أعضائها فى المهام الكبرى. سوف نكتفى بذكر بعض الأمثلة لتوضيح ما نقول.

كان اليهودى «أبراهام دى كاسترو» فى العام ١٥٢٤ على رأس «مصلحة النقود»، وكانت تقع عليه مسئولية وضع نظام ضرائبى جديد يزيد من الضغط الضريبى. وقد اعترض على تلك الإجراءات «أحمد باشا» حاكم مصر، واستند إلى جزء كبير من السكان لمعارضة تلك الإجراءات، وتدعيم استقلاليته تجاه اسطنبول؛ من أجل ذلك تحامل على يهود القاهرة وطالبهم بدفع مبالغ طائلة مهددا بالقضاء على حياتهم إذا لم يذعنوا لمطالبه، إلا أنه فى ذات اليوم المحدد منه لإبادتهم تم شنقه من الجنود المحافظين على ولائهم للإمبراطورية.. سوف تحتفل الطائفة اليهودية فى القاهرة سنويا بهذا الحدث فى ٢٨ «آذار» تحت اسم عيد «بوريم مصرييم» (وهو عيد بوريم الخاص بمصر ـ المترجم).

لم تكن حالة «أبراهام دى كاسترو» فريدة من نوعها، حيث يذكر بين «الشلبيين» (كبار الموظفين ـ المترجم) الذين تم إعدامهم كل من «أبا إسكندرى» و«يعقوب تيفولى» و«حاييم بيرز» و «يعقوب بيباس».

استقبلت مصر فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ضيفًا هامًا للغاية وهو «إسحاق لوريا» (١٤٣٤ ـ ١٥٧٣). جاء هذا القائد المشهور ـ الذى سوف يجعل من مدينة من المغرب مركزا للصوفية اليهودية ـ إلى القاهرة وهو لا يزال شابا لمتابعة التعليم الذى كان يقوم به «رابى بيزاليل اشكنازى» الرئيس الروحانى للطائفة اليهودية المصرية فى هذا العصر.

لقد تدهورت أوضاع يهود مصر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر مما كان له أثره على مستواهم الثقافى، وكان الفساد قد استشرى فى البلاد على نفس الوضع الذى كان حاصلًا فى رأس الامبراطورية التى كانت آنذاك فى حالة انحدار.

على إثر عمليات التعذيب التى قام بها القوزاق فيما بين ١٦٤٨ ـ ١٦٤٩ تحت قيادة «شميلنيكى»، هرب بعض الأوكرانيين إلى الإسكندرية للإقامة فيها. فى نفس التوقيت تقريبا، زار «شابتاى زيفى» المسيح المزيف (١٦٢٩ ـ ١٦٧٦)، القاهرة مرتين حيث وجد فيها من يستمع اليه بشغف. وفى الستينيات، أصبح «جوزويه مانتو» حاخام الإسكندرية مناصرا حميما «للشاباتين» (أنصار شابتاى)، كما كان الأمر نفسه بالنسبة لـ «روفائيل بن جوزيف حنى» الذى كان «شلبيا» (قائدا) فى هذا العصر. وفى العام ١٧٠٣ أقام فى مصر الداعية الشاباتى «ابراهام ميشيل كاردوزو» حيث أصبح طبيب الحاكم التركى «قرا أحمد باشا».

لقد برزت فى تاريخ اليهودية خلال نهاية القرن التاسع عشر شخصيات ذات أهمية كبيرة منهم «دافيد كونفرتى» و «جوزيف سمبارى قطاوى». ولد دافيد كونفرتى (١٦١٧ أو ١٦١٨ حتى حوالى ١٦٩٠) فى مدينة سالونيك، وكان حاخامًا ومؤرخا أدبيا؛ وهو من عائلة سيفرادية شهيرة. كان يتمتع بثقافة واسعة، وبعد أن قام بالعديد من السفريات جاء إلى القاهرة فى ١٦٧١ للإقامة فيها. إنه هو الذى قام بتأليف حولية عن الكُتّاب اليهود وأعمالهم منذ العصر التالى للتلمود.

اما «جوزيف سمبارى قطاوى» (١٦٤٠ ـ ١٧٠٣) والأصغر منه سنا، فقد كان مصرى الأصل. لقد أتحفنا بحولية ثمينة مخطوطة بالعبرية عن تاريخ يهود مصر؛ ويعد كتابه مرجعا أساسيا لمعرفة اليهودية المصرية تحت حكم المماليك وأوائل العثمانيين.

إن حالة اليهود كما يقول الجبرتى لم تكن على ما يرام فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، فالفوضى تصيب كافة انحاء البلاد فى الوقت الذى يبذل حكام البلاد كل جهودهم للتخلص من الوصاية التركية.

نحن إزاء يهودية فقدت كثيرًا من مجدها القديم، وهى التى سيلقاها بونابرت عندما ترسى مراكبه بالإسكندرية فى العام ١٧٩٨. كثيرا ما كانت تتم المقارنة ـ بتضخيم للكلام ـ بين قدوم الفرنسيين فى مصر و«قصف الرعد» فى بلد خامد. لقد تحملت الطائفة اليهودية بالإسكندرية فى هذا المجال، وهى التى فرض عليها الجنرال بونابرت أعباء كبيرة كما أمر بهدم كنيس «إلياهو ها نابى». ثم حل الانقشاع بعد ذلك، فكان عهدا جديدا من الازدهار والإثراء على أن ذلك تاريخ آخر.

ما الذى يمكن قوله بعد انتهاء هذا العرض المغتصب لأكثر من ألف سنة من التاريخ اليهودى فى وادى النيل؟ يمكننا أن ندلى ببعض الملاحظات ذات الطابع العام.

كان مصير يهود مصر يسير بوجه عام وفق ما شاهدته مصر من تأرجحات وتقلبات، وهو ما كان يشبه أيضا مصير مواطنيها المسلمين والأقباط.. كان العصر الفاطمى بشكل عام مزدهرًا لكافة الطوائف فى البلاد؛ وعكسا لذلك فإن المصريين أيا كانت انتماءاتهم الدينية تحملوا كثيرا من المعاناة أيام حكم المماليك.

كثيرًا ما كان اليهود يتولون مناصب عليا فى الدولة الإسلامية وكانوا بشكل عام يحاولون تحسين مصير إخوتهم فى الديانة، غير أن تقلبات التاريخ جعلت حياة هؤلاء الذين من كبار القوم يقضى عليها بعنف وما يتبع ذلك من ثأر ضد طائفتهم الدينية.

هناك رأيان متناقضان حدثت المواجهة فيما بينهما حول تاريخ اليهودية فى ظل وصاية الإسلام؛ فلم يتردد البعض فى اعتبار تلك الفترة لا تقل مأساة وقسوة عن اليهودية فى الأرض المسيحية؛ بينما فى المقابل يصفها آخرون بأنها كانت تتسم بالانسجام الكامل. على أن المؤرخ الموضوعى لا يستطيع سوى نقد هذين التضليلين؛ ومن المؤسف أن من شأن المشاعر الملتهبة للأزمنة الحاضرة وتلك المفارقة السيكولوجية التى يصفها «لوسيان فيبر»، قد أفقدت النظر لدى العديد من المفكرين.

فى مواجهة الحداثة

اليهود فى القرنين التاسع عشر والعشرين

بقلم: جودرون كرامر[1] وألفريد مورابيا

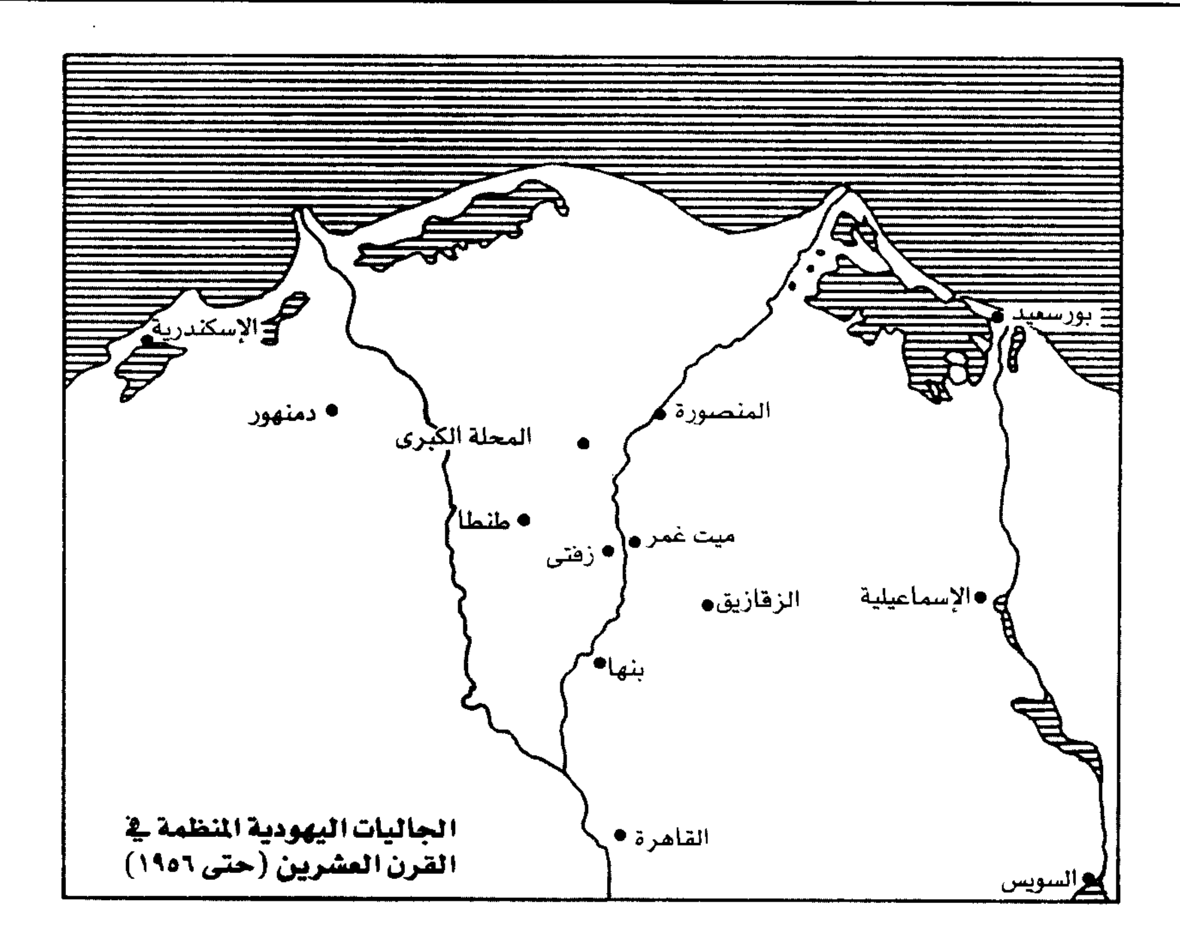
يمكن تصوير تاريخ اليهود فى مصر خلال القرنين الماضيين على شكل منحنى متصاعد فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر، وبصفة خاصة خلال الفترة ١٩٢٠ - ١٩٣٠؛ ثم يبدأ فى الانحناء ببطء بداية من الأربعينيات حتى يسقط بطريقة حادة فى العقد التالى. لا شك أن هذا الخط من التطور يتضمن عددا كبيرًا من التطورات: أولها تصاعد كبير فى عدد المهاجرين، مما يؤدى إلى تشكيلة واسعة من البنية الاجتماعية والاقتصادية، وارتفاع فى المستوى الثقافى، ثم انهيار هذه العملية بفعل النفى والهجرة.

تستدعى تلك الصورة البيانية قدرًا كبيرًا من الدقة، سوف نحاول فى الصفحات التالية تحديد وضع تاريخ اليهودية المصرية فى مجرى تاريخ هذا البلد والبلاد المجاورة من الشرق الأوسط.

ولما كانت الجوانب المختلفة للحياة والفكر اليهودى قد تم معالجتها تفصيليًا فى دراسات أخرى، فسوف نركز بصورة أكبر على الظروف الشاملة للبلاد سواء الاقتصادية أو السياسية لتقديم صورة أدق عن تاريخ الطائفة باستعراضنا فى اقتضاب التطورات الداخلية لليهودية المصرية؛ ذلك أن من شأن تلك الظروف الشاملة وتلك التطورات الداخلية أن تشكل مصير يهود مصر.

---

(١) ولدت «جودرون كرامر» فى مدينة ماربوج (ألمانيا الاتحادية) فى العام ١٩٥٣ وهى متخصصة فى الشرق الأوسط ولا سيما فى دور الأقليات و«القضية اليهودية».



الإسكندرية
دمنهور
المحلة الكبرى
طنطا
زفتى
المنصورة
ميت غمر
الزقازيق
بنها
القاهرة
بورسعيد
الإسماعيلية
السويس
الجاليات اليهودية المنظمة في
القرن العشرين (حتى ١٩٥٦)

من محمد على حتى الحرب العالمية الأولى وتحديث مصر

انطلقت منذ حكم محمد على ١٨٠٥ ـ ١٨٤٩ تطورات كبيرة وأساسية فى بنية البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وقد كان لها تأثيرها أيضا على الأقليات المسيحية واليهودية المقيمة فيه.

كان على السيد الجديد لوادى النيل مواجهة قوة الغرب الكبيرة الممثلة فى حملة بونابرت واحتلال البلاد من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١؛ فلقد حاول أن يتصدى لهذا التدخل الأجنبى ببذل كل الجهود لإدخال تقنيات أوربا العلمية الجديدة على المفاتيح الرئيسية لجهاز الدولة المصرية، أى: فى الجيش، والإدارة، والاقتصاد؛ مراعيا ألا يؤدى هذا التحديث إلى تشويه البنية التقليدية الاجتماعية والسياسية لمصر الإسلامية.

لقد كان محمد على أول من بشر حقا بالبعد العربى الإسلامى المعاصر. وبعد فترة قصيرة من تغير الاتجاه تحت حكم عباس الأول استمر انفتاح البلاد المنتظم أمام تأثيرات الغرب، وذلك خلال حكم سعيد ١٨٤٥ ـ ١٨٦٣ وصولا إلى إسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩. لقد أدى إرساء البنية التحتية للبلاد ـ وخاصة افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) وإقامة اقتصاد ريفى يعتمد على القطن وقصب السكر ـ إلى إحداث تغييرات جوهرية فى أسس مصر الاقتصادية؛ وكان من نتيجة التأثيرات السياسية والثقافية أن توغل الاقتصاد الأوربى فى البلاد.

ثم تبع ذلك قيام الغرب بفرض رقابته المالية ـ لا سيما من بريطانيا وفرنسا ـ منذ ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦، إلى أن تم احتلال البلاد من قبل بريطانيا؛ وهو الاحتلال الذى سوف يتحول فى عام ١٩٤٥ إلى نظام الحماية لصاحب الجلالة.

أدت تلك التطورات الاقتصادية والإدارية إلى تدفق مجموعات من الأجانب الوافدين من كل أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن الإمبراطورية العثمانية، وأوروبا الغربية على مصر ابتداء من عام ١٨٦٠. إن الأرقام ذات دلالة واضحة، فلقد كان يعيش فى مصر فى العام ١٨٥٠ أقل من ١٠,٠٠٠ من المهاجرين المنتمين إلى كان الديانات ومن أصول مختلفة، ووصل عددهم إلى ٨٠,٠٠٠ فى عام ١٨٧١ وإلى ١٢٥,٠٠٠ فى عام ١٩٠٠. كانوا يتمتعون بقوانين قضائية واقتصادية خاصة (الامتيازات).

بفضل قبضتهم على الشئون المصرفية والائتمانية، استطاعوا أن يتحكموا فى صناعة الأقطان، والتصدير والاستيراد، وكذلك افتتاح المشروعات الصناعية الصغيرة التى كانت لا تزال فى خطواتها الأولى.

الطائفة اليهودية فى حالة تحول

لا شك أن تدفق الأجانب هذا قد أدى إلى تغيير التكوين الاثنى والاجتماعى للطائفة اليهودية. وكان يعيش فى مصر فى القرن التاسع عشر حوالى ٦٠٠٠ يهودى ممن تطبعوا كثيرا بالوسط الذى كانوا يعيشون فيه من ناحية أسلوب حياتهم ولغتهم. وكان من شأن الهجرة الواردة من آسيا الوسطى، والعراق، وسوريا، واليونان، وشمال أفريقيا، وإيطاليا، وأوروبا الغربية أن تضاعف عددهم ليبلغ ٣٠,٠٠٠ فى عام ١٨٩٠ تقريبًا، ولقد بلغ هذا العدد فيما بعد ١٩١٩ ما يقرب من ٦٠,٠٠٠ نسمة وفقًا لما جاء فى الإحصاء الرسمى. بدت انطلاقة الطوائف اليهودية فى البلاد مذهلة للغاية، كما كانت أيضا التداعيات التى كان لابد أن تنتج عنها. على الرغم من تباطؤ حركة الهجرة بعد الحرب نظرًا لما تم من تغيير فى ظروف مصر الاقتصادية والسياسية، فإن عدد اليهود كان يقدر بحوالى ٧٥,٠٠٠ فى عام ١٩٣٠، وكانوا لا يمثلون دون شك سوى ٠,٤٪ من مجموع سكان البلاد؛ غير أن تمركزهم الذى يكاد يكون محصورا فى المدن ـ والتى كانت مساهمتهم فيها مهمة ـ قد مكنهم من زيادة ثقلهم الذى مثل قدرًا أكبر بكثير مما كان عليه وزنهم الفعلى من الجهة السكانية.

لم يكن اليهود يشكلون كتلة متناسقة وسط المجموعة المختلطة والمتنوعة للأقليات الأوربية والشرقية، ولم يكن من شأن الهجرة الكبيرة توثيق العلاقات فيما بينهم، لقد كانوا يميلون بشكل عام إلى التجمع وفقا لفوارق اثنية واجتماعية فى ذات الوقت، مما أدى إلى تأثير كبير على مركزهم الاقتصادى وعلى توجههم الثقافى. فقد كان فى مصر اليهود السفاراديم والشرقيين، واليهود الاشكناز، وبضعة آلاف من القرائين.

كانت مجموعة اليهود الشرقيين الذين عاشوا فى مصر منذ العصر القديم قد تدعمت بقدوم المنفيين من إسبانيا فى القرن السادس عشر، والذين احتفظوا بلغتهم الخاصة وهى اليهودية الإسبانية حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولقد زادت أفراد تلك

المجموعات بالهجرة من الإمبراطورية العثمانية وشمال أفريقيا وايطاليا. استقرت فى هذا العصر أسطورة اليهودية «السفارادية» التى تضم كافة اليهود من أصول حوض البحر الأبيض المتوسط؛ وهكذا تكونت نواة الفئات المتوسطة والعليا للطائفة.

من هذا الوسط «السفارادى» جاءت منذ القرن الثامن عشر العائلات التى تشكلت منها ـ حتى ١٩٥٦ ـ النخبة الاجتماعية والسياسية للطائفة.. لقد تمكن اليهود المصريون بالمعنى الحقيقى لتلك العبارة أن يندمجوا أكثر من غيرهم فى الوسط الذى كان يحيط بهم. وكانوا يعيشون فى أصغر المجتمعات المحلية فى الدلتا، ولكن خاصة فى حارة اليهود بالقاهرة التى تعد حيا يهوديا نموذجيا، حيث كانوا يمارسون الأنشطة اليهودية التقليدية سواء التجارة الصغيرة أو العمل الحرفى أو النشاط المصرفى.

ظل عدد اليهود المقيمين فى حارة اليهود مرتفعا حينما كانت الأوضاع الاقتصادية منتعشة، على الرغم أنهم كانوا مجردين من أى إمكانيات، مما حال دون استمرارهم فى العيش إلا بمساعدة الطائفة.

كان الاشكناز يقتربون على الصعيد الاجتماعى من السفاراديم متوسطى الحال والميسورين، وكان معظمهم قد جاء إلى مصر منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر قادمين من أوروبا الشرقية والبلقان وفلسطين. لقد احتفظوا لمدة طويلة بلغتهم الأصلية «اليديش»، وعانوا صعوبات كثيرة للإندماج فى المجتمع المصرى. كان من بينهم حرفيون، وتجار، وموظفون، وطلاب، إلى جانب ممثلين لشركات أوروبية فى مصر. ظل الاشكناز الذين استمروا أقلية على الدوام، وكثيرا ما عبروا عن اعتراضهم على سلطة الشخصيات المهيمنة، وكلهم من السفاراديم. وهكذا تكونت فى القاهرة منذ عام ١٨٦٥ وفى الإسكندرية بعد بضع سنوات طائفتان لا علاقة بينهما سواء بشأن الممارسة الدينية أو اللغة أو الاختيارات السياسية.

لقد أدى النمو الاقتصادى تحت الحكم الاستعمارى البريطانى إلى تحسن ـ بدرجة كبيرة ـ لموقف يهود مصر؛ فقد كانوا يمارسون فى الماضى المهن التقليدية والتجارة الصغيرة والحرف والأعمال المصرفية؛ وقد أدخل الحرفيون الاشكناز القادمون فى آخر القرن التاسع عشر قطاعات جديدة مثل: الملابس الجاهزة، وتجارة الأقمشة. ولما كانت الحاجة متزايدة للعاملين فى الإدارة، فلقد قدم اليهود عددًا كبيرًا من الموظفين

للعمل فى الشئون المالية والإدارية؛ وكان وجودهم كبيرًا فى المهن الحرة على غرار الصحافة والمحاماة والطب. أما الأثرياء منهم، فقد تقلدوا المراكز الرئيسية فى البنوك، والتصدير والاستيراد، وفى إدارة الأموال، وعمليات البناء، وتحويل المواد الأولية، وصناعة النسيج. منذ ١٨٨٠ بدأت تتشكل طبقة متوسطة تزداد أهميتها بالتوازى مع تشكل الطبقة العليا قليلة العدد، ولكنها منتعشة للغاية؛ وهو ما يفسر الصورة الخارجية التى كانت تعتبر اليهودية المصرية الأشد ثراء فى الشرق الأوسط. حقا كانت معرفة الحساب والكتابة والقراءة من الأمور واسعة الانتشار عند اليهود المصريين مقارنة بوضع جيرانهم من المسلمين والأقباط؛ ويضاف إلى ذلك معرفتهم اللغات الأجنبية التى كان لها من الأهمية فى الحياة الاقتصادية.

مالت اللغة الفرنسية ـ التى كان يجرى تدريسها فى الإرساليات المسيحية ـ إلى أن تصبح هى اللغة الرسمية للأوساط المثقفة المصرية. كان من شأن هذا التعليم الذى يتولاه الأجانب وخاصة المسيحيين (وكثيرا ما كان يتم من خلال الإرساليات) أن انفصل الشباب من الأوساط الثرية أو من متوسطى الحال عن الوسط المصرى العربى للاقتراب أكثر فأكثر من الجالية الأجنبية متعددة الجنسيات التى كانت تعيش فى البلاد. إن اليهود الذين سلكوا هذا الاتجاه فى الفرنجة قد ابتعدوا فى ذات الوقت عن تقاليدهم اليهودية. لقد انتهى الاهتمام بتعلم اللغة العبرية أو الحفاظ على التعاليم الدينية.

وقد لاحظنا فى هذا الصدد اعتناق الكاثوليكية من أفراد ينتمون إلى الطبقات المتوسطة وخاصة الطبقات الثرية، وهو الأمر الذى لابد أن يكون مزعجا لمجموع اليهود؛ مما شجعهم على إقامة مدارس يهودية ذات المستوى العالى القادرة على منافسة المدارس المسيحية.

ويجب الانتظار حتى العشرينيات من القرن العشرين لنرى ـ خاصة فى الوسط الاشكنازى ـ حركة تسعى إلى نهضة الثقافة اليهودية؛ وهى الحركة التى سوف تجد دافعا إضافيا للممارسات الصهيونية داخل اليهودية المصرية.

نرى كيف أصبحت الطائفة اليهودية فى مصر مقسمة من الناحية الاجتماعية والثقافية واللغوية. يمكننا أيضا أن نضيف معايير أخرى من التباين الداخلى، مثل الجنسية والتى سوف يكون لها شأن كبير فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين؛ ذلك أن

عديدًا من يهود مصر قد استطاعوا ـ كما هو الحال لأقليات أخرى فى البلاد ـ الحصول ابتداء من الربع الأخير من القرن التاسع عشر على جوازات سفر أجنبية كانت توفر لهم وضعا قانونيا متميزا.

لنتناول الآن التوزيع على مستوى المناطق؛ فبينما كنا نجد فى بداية القرن التاسع عشر عديدًا من الطوائف اليهودية خارج القاهرة والإسكندرية وفى مراكز الدلتا وحتى الصعيد، فلقد أصبح ملموسًا منذ بداية القرن العشرين، التطور نحو التمركز فى المراكز الاقتصادية والإدارية الكبرى فى البلاد. كان لكل من الطوائف فى القاهرة والإسكندرية والمراكز الاقتصادية الأخرى فى الدلتا وفى منطقة القناة طابعها الخاص بها.

فى القاهرة عاصمة البلاد، كانت توجد الجامعة الإسلامية الأكثر نفوذًا فى الشرق؛ كما كانت تضم عددًا متزايدًا من المدارس العليا، وأيضا منطقة صناعية تجلب إليها حركة كبيرة من المهاجرين. وفى الإسكندرية ـ المدينة المطلة على البحر الأبيض المتوسط ـ تواجدت جالية هامة من الأجانب من مختلف الجنسيات والذين جعلوا منها مركزًا تجاريًا وثقافيًا شديد النشاط.

فى عام ١٩٣٧ تم إلغاء «معاهدة مونترو» حول الامتيازات الأجنبية التى كانت على سبيل المثال تتيح أن تتم مقاضاتهم أمام المحاكم المختلطة؛ وهو ما يفسر وجود نسبة كبيرة من المواطنين «الأجانب» بين جموع يهود مصر.. وكان يُرى آنذاك أنهم كانوا موزعين على ثلاثة أقسام تكاد تكون متساوية الحجم: الأجانب، والذين بدون جنسية (وهم الذين لم يفكروا ـ عن جهل منهم ـ فى التأكيد على حقوقهم فى الجنسية المصرية)، وأخيرا المصريون.

وعلى الرغم من الفروق فى البيئة وأسلوب الحياة، فقد كان لتنظيم تلك الطوائف جوانب كثيرة من التشابه. فقد استمر نظام «الولاية» (التنظيم الذاتى المحدود للطوائف الاثنية– الريفية) يطبق فى الإمبراطورية العثمانية؛ وهو النظام الذى كان يترك قدرًا كبيرًا من السلطات القضائية والإدارية الخاصة بكل مجموعة دينية بين يدى كبار القوم فيها وكبار رجال الدين. وقد ظلت هذه البنية الاوليجاركية (بنية الحكم الذاتى ـ المترجم) لتلك الطوائف اليهودية حتى عصر عبد الناصر حينما تم حلها. وكانت تقف مجموعة

صغيرة من اليهود الأصليين فى البلاد[١] الأثرياء على رأس هذه الطائفة. كانوا يتخذون كافة الإجراءات باسم المجموعة، ويمثلون أعضاءها أمام أجهزة الدولة؛ وفى داخل تلك النخبة كان بعض أعضاء عائلات قطاوى وموسيرى ودى منشيه ورولو قد ساندوا ـ بصفتهم رؤساء وكبار موظفى الطائفة ـ السلطة الأوتوقراطية التى لم يتم إعادة النظر فيها إلا فى بداية القرن.

من المهم أن نلاحظ أن مجلس الطائفة الذى يتم انتخابه من دافعى اشتراك العضوية كان مكونا من مسددى اشتراك العضوية فيها، وهو ليس هيئة دينية. وكان كبار الحاخامين فى القاهرة والإسكندرية يجرى تعيينهم من قبل هذا المجلس وفقا للنظام الأساسى، وكانوا يقومون فقط بوظائفهم الدينية دون غيرها، حتى وإن كان البعض منهم مثل «حاميم ناحوم افندى» (كبير حاخامى القاهرة من ١٩٢٥ إلى ١٩٦١) قد مارس نفوذا يفوق بصورة كبيرة ما هو وارد فى القانون الأساسى للطائفة.

على الرغم من القضايا المالية التى كانت تثار، ومن المشاجرات الداخلية، فلقد كانت الطوائف بقيادة حاخامها على مستوى كبير من التنظيم، وعلى غرار الطوائف الأخرى غير الإسلامية التى كانت لها مؤسساتها الاجتماعية الخاصة بها ـ من حضانات، ومدارس، وملاجئ لكبار السن، ومستشفيات، وكنائس، وأيضا عدد من المؤسسات الخيرية التابعة للطائفة أو الخاصة ـ وهى التى يتولى العناية بها أفراد من الطبقة الوسطى ومن الطبقة الثرية. وعلاوة على ذلك كانت توجد جمعيات ثقافية واجتماعية تضم الأفراد إليها وفقا للمنطقة التى يقيمون فيها، ووفقا لأعمارهم واهتماماتهم الثقافية.

ولما كانت الطائفة ومجلسها قد تم تنظيمها على هيئة جمعية للتعاون المتبادل وللأعمال الخيرية فلم يكن لديها أى تفويض سياسى. وفى الحالات التى كان على يهود مصر التصرف بناء على هويتهم على الصعيد السياسى، فلم يكن هنا سوى أفراد ـ مثل رئيس الطائفة أو الحاخام الأكبر ـ قادرين أن يتكلموا باسمهم دون أن يلتزم إخوتهم فى الديانة بتلك التصريحات. هذا الوضع غامض للغاية، ومن الوارد أن تكون له مزايا، ولكنه أثار بشكل عام العديد من القضايا الشائكة فى حالة الأزمة.

كانت علاقات يهود مصر بالأغلبية الإسلامية والقبطية على ما يرام بشكل عام، حتى

---

(١) مع استبعاد ـ دون شك ـ الطائفتين الإشكنازية والقرائية بالقاهرة.

وإن كانت تفتقد إلى حفاوة شديدة. استمتع اليهود بالحرية فى نشاطاتهم الاجتماعية، والاقتصادية، وبقدر ما فى النشاطات السياسية. كما كانوا يتمتعون باستقلالية كبيرة فى شئونهم الطائفية والدينية؛ فالأحداث النادرة المتعلقة بالاتهام بالاغتيالات الشعائرية التى وجهت إليهم فى مرات عديدة فى نهاية القرن التاسع عشر حتى العام ١٩١٤، كانت فى الواقع تصدر عن الأقليات المسيحية غير القبطية[١]، والتى كانت عداءاتها الدينية تدعمها المنافسة الاقتصادية مع اليهود. ومن الواضح تمامًا أنه كانت هناك عداوة من المسلمين والأقباط نحو اليهود ناشئة عن دوافع سواء دينية أو اقتصادية، وهى التى لم تظهر بصورة صارخة قبل نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين.. حقا لا يمكن الحديث بشأن تلك الفترة من الرخاء عن الاندماج الكامل لليهود الذين يعيشون فى مصر مع الوسط المصرى ـ العربى، بل الحديث فقط عن حالة الجيرة المتناغمة. كانت تلك العلاقات تندرج فى إطار مفهوم «المدينة الإسلامية»، والنابعة ذاتها من التقاليد الإغريقية ـ الرومانية؛ وقد شكلت خاصية مدينة حوض البحر الأبيض المتوسط بما كانت لها من اقتسام للسلطة والعمل على أسس اثنية، وكذلك فى الحياة الاجتماعية والقانونية. لقد كانت تلك العلاقات فى المجال الاقتصادى أشد وثوقًا فيما بين الديانات، وقد كان أعضاء الطبقة العليا الأشد ثراء يعتبرون أنفسهم متكافئين بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية.

يصلح هنا المجال السياسى لإعطاء صورة واضحة عن المركز الذى كان يتبوأه يهود مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى النصف الثانى من القرن التالى عليه.

لقد حان الوقت لإبداء تحفظات على النظرية ذات الانتشار الواسع حول امتناع يهود مصر عن المشاركة فى الحياة السياسية للبلاد، سواء لانعدام المصلحة أو الخشية من ردود الفعل المعادية لهم.

حقا كانت الأغلبية الكبرى من اليهود الأجانب أو عديمى الجنسية لا تشعر إطلاقا أنها معنية بالحياة السياسية للبلاد التى استضافتهم؛ على أنه من الصحيح أيضا أن اليهود ـ باعتبارهم مجموعة من الأقلية ـ كانوا ممثلين بصورة طبيعية فى مختلف

(١) أحيانا ما يكونون يونانيين، ولكن ليس بطريقة حصرية.

المؤسسات البرلمانية، سواء فى مجلس الشعب أو مجلس الشيوخ، حيث شاركت شخصيات يهودية فى هذه المؤسسات حتى الأربعينيات من القرن العشرين. وفى سنة ١٩٢٥ كان «يوسف أصلان قطاوى باشا» رئيسا للطائفة اليهودية بالقاهرة، وتم تعيينه وزيرًا للمالية، ثم وزيرًا للمواصلات؛ كما شارك أيضا قادة ومثقفون من اليهود فى أنشطة الوفد الذى كان أقوى تنظيم سياسى فى العام ١٩١٩؛ واشتركوا بدرجة أقل فى أحزاب سياسية ليبرالية، مكملين بذلك مسيرة «يعقوب صنوع»، وهو الذى سوف نعود إليه فيما بعد.

ولما كان الشبان اليهود أقل تقليدية من أجدادهم، فلقد نشطوا فى منظمات سياسية أخرى، خاصة فى مختلف المجموعات الاشتراكية والشيوعية فى العشرينيات حتى الخمسينيات من القرن العشرين. لقد كان من شأن الدور الذى لعبه القادة الشيوعيون من أصول يهودية على غرار «جوزيف روزنتال» و «هنرى كوربيل» و«هليل شوارتز» الذين ساهموا بتعاطفهم مع الشيوعية، فى دعم الاتهام الموجه ضد اليهود فى الإضرار بالمصالح العليا للأمة التى استضافتهم.

ولدت الحركة الصهيونية وسط اليهود الأشكناز الذين قدموا مؤخرًا من شرق أوروبا ومن فلسطين. وبينما استجاب بعض الشباب من الأوساط المتواضعة لنداء هذا الفكر، كثيرا ما اصطدمت الدعاية الصهيونية بعداء السفاراديم الذين ينتمون إلى الأوساط الأكثر ثراء، وخاصة من جانب الفئات القيادية التى انبثقت منها.

لقد كان تمثيل اليهود قبل الحرب العالمية الثانية ضعيفًا فى الحركة الوطنية الراديكالية، خاصة فى صفوف الطلبة من الشباب. ويعود السبب الأساسى فى ذلك إلى الميل الواضح لدى الجماعات الوطنية الراديكالية فى إعادة النظر فى وجود الأجانب فى مصر، وفيما كانوا يقومون من نشاط فيها؛ وهو ما كان يصطدم بشكل واضح بمصالح اليهود غير المصريين. لم يفد هذا التباعد فى شىء، لأن الغالبية الكبرى من يهود مصر كانت تدين بشكل عام بولاء حقيقى للبلاد الذى تمثله العائلة المالكة من وجهة نظرهم. وكانت الطبقة الحاكمة فى البلاد تشيد بشكل واضح بولاء الطائفة لأصحاب السلطة.

لا يمكن أن نؤكد بما يكفى كيف وجد اليهود أنفسهم فى حرج من الناحية النفسية

بسبب هذا الالتزام الأدبى بالولاء لسيد البلاد الآنى، وهو ما ينطبق على الأقليات الاثنية والدينية على مدى التاريخ كلما حدث انقلاب فى السلطة.

خلاصة القول، يمكن الملاحظة بأنه على الرغم من الوضع الهامشى الذى كان عليه اليهود فى المجتمع المصرى، فلقد تمتعوا بنوع من المجد لطائفتهم من أواخر القرن التاسع عشر إلى الثلاثينات من القرن العشرين.

كان هذا زمن الصعود الاقتصادى والاجتماعى وإقامة المؤسسات الاجتماعية والخيرية، وكذلك الاتساق بالطابع الأوروبى؛ وهو الاتساق الذى كان لا يزال يذكرنا من بعد الحرب العالمية الأولى بالقيم والخصائص اليهودية.

المجتمع المصرى من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية

عندما تدهورت تدريجيا فى أواخر عشرينيات القرن علاقة الأقلية اليهودية بالأغلبيـة العربيـة -الإسلامية، لم يكن ذلك على الإطلاق بفعل التغيير فى سلوك اليهود؛ فالأمر الأهم يتعلق بالتغيير فى البنية الاقتصادية للمجتمع المصرى، وبأوضاع الشرق الأوسط السياسية.

كانت مصر لا تزال حتى هذا الوقت بلدا يعيش أهلها على الزراعة. كانت الطبقة العليا تتكون من مجموعة صغيرة من العائلات، غالبيتها من أصول تركية ألبانية، مزودة بملكيات عقارية كبرى، مع المزج بين السلطة السياسية والهيمنة الاقتصادية. فيما بين النخبة والفلاحين، ضمت مصر طبقة وسطى سريعة الانتعاش، مكونة من وجهاء الريف، وفى المدن من صغار الموظفين فى الحكومة، والقطاع الخاص، والتجار، وكذلك الطبقة العاملة التى كانت سريعة النمو. فى هذا النظام الذى اتسم بتوزيع غير متساو فى مجال الأرض، والدخل، والسلطة، بدأت تظهر التوترات قبل الحرب العالمية الأولى بفعل التغييرات الاقتصادية التى جاءت نتيجة النزاع القائم. كان الغضب موجها أيضا نحو المسئولين على السلطة وهم الذين وافقوا فى العام ١٩١٥ أن تصبح مصر تحت الحماية ـ فى ذات العصر الذى كانت تتظاهر فيه إنجلترا بصداقتها للعرب ـ كما توجه أيضا الغضب ضد الأجانب والأقليات التى كانت تتمتع بالحماية. لقد أصيب كل من الوضع الاجتماعى والنظام الاقتصادى برد فعل تلك الأحداث.

ومع ذلك، فقد أبرزت سنوات الحرب مدى تبعية مصر للعوامل الخارجية وعلى رأسها سوق القطن العالمية والائتمانات الأجنبية. عندئذ، تم تقليص تسلط رؤوس الأموال الأجنبية مع تأسيس البنك الوطنى المصرى فى العام ١٩٢٠، والذى كان عليه أن يقوم بتمويل التنوع الضرورى فى مجال الإنتاج الزراعى والصناعى. حصل طلعت حرب ـ الأب الروحى لتلك العملية ـ على مساندة كبار الملاك العقاريين ورجال المصارف حيث كان من بينهم «يوسف أصلان قطاوى» و«جوزيف شيكوريل». ولكن كان يجب الانتظار حتى الثلاثينيات من القرن العشرين حتى يبدأ الرأسماليون من أهالى البلاد فى الاهتمام بصورة جادة بإقامة المشروعات الصناعية التى كانت فى غالبيتها حتى هذا الوقت ملكية للأجانب أو الأقليات بطريقة شبه كاملة. بصفتهم مقاولين، أو مدراء، أو موظفين، احتل اليهود مراكز شديدة التأثير فى اقتصاد تختلط فيه رؤوس الأموال الأوربية بالمحلية.

من الواضح أن المصالح الاقتصادية لأشد الطبقات ثراء بين المصريين فى هذا العصر كانت تتواءم مع مصالح الأقليات ـ بمن فيهم كبار القوم اليهود ـ ولكن الأمر اختلف بالنسبة للجماهير الشعبية وبين الطبقات المتوسطة الصاعدة فى المدن. لقد كان من شأن التحولات الاقتصادية ـ الاجتماعية التى جاءت نتيجة التحديث، ولا سيما التغييرات التى شهدتها الزراعة بفعل انتشار زراعة المحصول الواحد، أن أخذ عديد من الفلاحين والعمال الزراعيين يتجهون نحو المدن بحثا عن منافذ أخرى للعيش، أو عن وظائف مجزية. لقد عانت الصناعة المصرية عديدًا من الصعوبات نتيجة تأثرها سلبا بالليبرالية الاقتصادية التى فرضها الإنجليز؛ كما كانت المؤسسات الأوروبية تفضل تعيين غير المسلمين للعمل فيها.

مع تحول المدن إلى عامل جذب لأهل الريف، انتقلت إليها قضية البطالة التى أصبحت بفعل تركزها أشد انفجارًا من ذى قبل. وجدت طبقة كاملة من أهل المدن ـ الذين كانوا بدون عمل أو يعملون قليلًا ـ نفسها مندمجة فى العملية السياسية، بل ما هو أشد من ذلك منخرطة فى العمل النضالى.

لقد تغير الحوار السياسى منذ بداية الثلاثينيات من القرن العشرين وخاصة مع إعلان الاستقلال فى العام ١٩٣٦. فلقد أضيفت عناصر جديدة أشد إقلاقا من مثلث القوى المهيمنة آنذاك (العائلة المالكة ـ الوفد ـ الوجود البريطانى)، فنشأت وقتئذ حركات

الشباب شبه العسكرية من القمصان الخضر (مصر للفتاة)، والقمصان الزرق (الوفد)، وكذلك جماعة الإخوان المسلمين التى سوف تصبح حركة جماهيرية بفعل النجاحات التى حققتها فى الأربعينيات من القرن العشرين. سوف يأخذ النضال ثوب المظاهرات الجماهيرية، والمواجهات فى الشوارع، والاعتداءات. كان تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات على رأس تلك المظاهرات التى اتسمت بصبغة سياسية قوية نتيجة لتكوين فكرى أرقى، والقلق الخاص بالأوضاع الاجتماعية بسبب الآفاق الغامضة.

الوطنية المصرية ـ القومية العربية ـ الأمة الإسلامية

كان الطابع الأساسى فى الحياة السياسية ابتداء من القرن التاسع عشر يتمثل فى النزعة الوطنية التى كانت تأخذ شكل النضال فى ذات الوقت ضد الهيمنة الاستعمارية البريطانية، وضد الأجانب الذين يحظون بالأفضلية. لم تتأخر الحركة الوطنية كثيرًا فى التشكل فى نهاية القرن التاسع عشر حول قطبين أساسيين: من ناحية وطنية مصرية خالصة لا تحمل الطابع الدينى، ومن ناحية أخرى نهضة دينية متصاعدة فى الوطن المصرى تميل أحيانا للاقتراب إلى العروبة، وهو ما سيتعمق أكثر فأكثر على مر السنين.

حتى الثلاثينيات من القرن العشرين، سادت فى مصر النظرية الليبرالية والوطنية التى تجسدت لاسيما فى الوفد منذ ١٩١٩. مع ذلك كانت فكرة الأمة المصرية تمثل منذ أيام الفراعنة كيانًا تاريخيًا مستقلًا، إزدادت بفعل الانشقاقات الدينية، حتى وأن تأثرت بالطابع الغالب ولكن غير الوحيد للتراث العربى ـ الإسلامى. فكانت تهدف إلى تأسيس دولة وطنية مستقلة؛ وقد قبلت باندماج مختلف الجماعات الدينية بقدر ما كان معروفًا عن ثقافتها ولغتها واختيارها السياسى تطابقها مع الهدف الوطنى الوحدوى. والواقع أن عديدًا من المحامين اليهود انخرطوا فى هذا التيار الوطنى الليبرالى. لقد حان الوقت لنتذكر فى هذا الشأن الدور الذى قام به فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الصحفى والمحاور «يعقوب جيمس صنوع» وكان مشهورا باسم «أبو نظارة». كان وطنيا متحمسا، وقد احتل مكانة عظيمة فى الكفاح من أجل تحرير مصر من أية وصاية فى إطار وطنية مصرية واضحة العلمانية.

وسوف يؤدى اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى منعطف ذى نتائج حاسمة فى

التطور السياسى والقطرى للبلاد؛ ففى الوقت الذى كانت تنادى فيه الحركات بكل أمانة منذ بداية القرن العشرين إلى «وحدة الأمة العربية»، كان هناك ميل إلى إقصاء مصر من مجال نشاطها. إلا أن أزمة التوازن فيما بين القوى الأوروبية الكبرى والتى سوف تؤدى لعاصفة ١٩١٤ كان من شأنها أن تجعل مصر تسير فى اتجاه تلك القومية العربية. لابد من التأكيد فى هذا المجال على التأثير العميق الذى سوف تمارسه مجلة دينية مثل «المنار» يتم توزيعها حتى فى المناطق النائية، ويطلع عليها المثقفون فى المجتمعات السكنية؛ ذلك أن «رشيد رضا» مدير تلك المجلة سوف يجرى خلال الحرب العالمية الأولى تحولاً هامًا ينقله من النظريات الخاصة بالقومية العربية الوفية للعثمانيين إلى «عروبة دينية» تمهد الطريق للتصالح بين العروبة والانتماء الإسلامى؛ وهو ما سيظل الطابع الأساسى للثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

علينا أن نكتفى بوضع الخطوط الرئيسية لهذا التطور؛ ففى أواخر القرن التاسع عشر كان السلطان العثمانى «عبد الحميد الثانى» طامعا فى أن تلتحم حول عرشه المهتز المقاطعات الشرقية للإمبراطورية (والتى ظلت شبه الوحيدة التى لم تنفصل)؛ وقد عمل على تنشيط الدعاية للجماعة الإسلامية وأبرز صفته «خليفة المؤمنين»، كما عمل على تشجيع التعليم الدينى. لقد استفاد سيد اسطنبول من ألمانيا التى كانت تحت حكم «جيوم الثانى» فى الجهود التى بذلها لصد الطموحات الجشعة والمتناقضة فى ذات الوقت التى كانت تحملها البلاد الأوروبية فى هذا العصر. تحت ضغط تأثيرات الغرب الثقافية والسياسية سوف ينبعث تيارًا شاملاً لنهضة الثقافة العربية يعبر عن الرغبة فى التمايز عن التركى والتأكيد على خصوصية العرب.

ومما يلاحظ بالتالى على تلك المرحلة من تطور الشرق العربى أنه كانت لكل من النزعة الإسلامية والعروبة طموحات مختلفة عن بعضها البعض، إن لم تكن متناقضة. سوف يقوم مثقفون مسيحيون من لبنان أساسا ـ لأسباب يسهل إدراكها ـ بدور هام للغاية فى هذه الدفعة الأولى لعروبة ليست مقصورة على المجال الثقافى، والتى سوف تشهد تطورات عديدة قد تكون أحيانا غير متوقعة.

عندما أطلقت السلطة التركية فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٤ نداءها الرسمى لشن «الحرب المقدسة» ضد «الكافر» ـ ويعنى ذلك قوات الحلفاء ـ أدركت بريطانيا العظمى ـ بمساندة مترددة أحيانا من فرنسا ـ أهمية التحالف مع العرب دفاعا عن مصالحها وحفاظا على

جوهرتها الهندية. هكذا بدأت المناورات الكبيرة والتى كان «لورانس» الداعية النشيط لها، وقام فيما بعد بكتابة مجرى أحداثها؛ وهى تلك المناورات التى أدتِ إلى تولى وزارة الخارجية البريطانية مسئولية التصدى للتمرد العربى بقيادة الشريف حسين من مكة المكرمة.

جرت المفاوضات الرئيسية فى القاهرة، وتم فيها بصورة غير ملموسة التطور فى الأوساط الإصلاحية الإسلامية نحو التصالح بين طموحات الحركة الإسلامية والحركة القومية العربية، والتى يمكن اعتبارها بمثابة مرحلة أولى نحو تحقيق تلك الطموحات.

هل نحن فى حاجة للتأكيد على مدى ما كان للسياسة المزدوجة التى انتهجتها بريطانيا العظمى فى فلسطين، والمواجهة بين القادة الصهاينة والقادة العرب من تأثير فى اتجاه التضامن العربى ـ الإسلامى لطرد المحتلين الأجانب خارج الأرض العربية؟ سوف تحتل مصر مكانها قبل الجميع فى هذا الكفاح المبنى على التضامن العربى الإسلامى.

خلال الثلاثينيات من القرن الماضى، ورفضا لموقف رجال السياسة الذين كان لا يزال متسامحاً، تعمقت راديكالية مصرية عربية معادية لبريطانيا إلى أقصى حد، وليست خالية من روح الكراهية للأجانب. وإذ كانت تلك الراديكالية تعتمد على المنظمات الشبابية المناضلة، فلقد امتد تأثيرها تدريجيًا إلى المجموعات السياسية الأخرى. لم يعد هناك مكان للأقليات فى المثل والطموحات التى تستهدف تحقيق الوحدة القومية تحت الراية العربية أو الإسلامية. وكان من شأن انتفاضات عرب فلسطين التى اندلعت ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ تدعيم قيادات الأمة الإسلامية والقومية العربية التى كانت تفتقد إلى التمييز بينهما. لقد نجحت هذه التيارات فى اكتساب أرضية لها فى مصر؛ ولما ساندت جماعة الإخوان المسلمين هذه التيارات، حصلت على مساندة متصاعدة من القصر الملكى ومن السياسيين ذوى النفوذ. لقد تعلق بشكل واضح كل من الملك فؤاد (١٩١٧ ـ ١٩٣٦) والملك فاروق (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢) بأمل تحقيق حلم قيادة وحدة شاملة للبلاد العربية والإسلامية.

لم تكن بريطانيا تنظر بامتعاض إلى تلك المبادرات التى كانت تأمل فى الإشراف

عليها. وفى ذات الوقت اتجه اهتمام الوطنيين نحو النشاط الاقتصادى بهدف طرد الأجانب و«تمصير» اقتصاد البلاد. أخذت الحكومة المصرية منذ العام ١٩٣٦ محل التاج البريطاني فى حماية الأقليات، كما أصبح الأجانب فى حماية التشريع المصرى. لقد انتهت الامتيازات الاقتصادية على اثر مؤتمر «مونترو» ١٩٣٧ وألغيت «المحاكم المختلطة» فى العام ١٩٤٩ بوضع نهاية للوضع القانونى الخاص الذى كان يخص حتى ذلك الحين من كانوا فى حماية الدول الأوروبية الكبرى. وأدت الحملة التى قامت من أجل استعمال اللغة العربية محل اللغة الفرنسية فى المراسلات مع السلطات وأمام المحاكم إلى إصدار قوانين ١٩٤٢-١٩٤٣. لقد أجبر القانون المصرى الخاص بالشركات أن تتضمن كافة الشركات المساهمة ابتداء من يوليو ١٩٤٧ أغلبية مصرية، سواء على مستوى أصحاب الأموال أو الموظفين؛ مما أدى إلى فصل عدد من الأجانب ومن عديمى الجنسية.

لم يكن يهود مصر معنيين فى بادئ الأمر بالتيار الموجه ضد الأجانب سوى باعتبارهم إحدى الأقليات غير المسلمة وغير العربية. إلا أن تأثير الإيدولوجية «الفاشية»[١] على بعض أوساط الطلبة وشبه العسكريين قد ضاعف من الانقسام، وجعل القضية أشد ضراوة.

الدعاية الوطنية ـ الاشتراكية ويهود مصر

لا يعود تعاطف العالم العربى ـ الإسلامى للحكم الألمانى إلى ثلاثينيات أو أربعينيات القرن العشرين. فلنعد بذاكرتنا إلى الوقائع التالية: كان «جيوم الثانى» قد اقترب من الإمبراطورية العثمانية حين كانت تعتبر نفسها المدافعة عن الإسلام فى مواجهة ممارسات «الكافر» الاستعمارية؛ وسبق أن عهد إلى ألمانيا (ولا سيما «فون مولتك») مهمة إعادة تنظيم جيش الباب العالى بعد القضاء على الانكشاريين. لقد قام «جيوم الثانى» برحلة إلى اسطمبول اتسمت بالحفاوة الكبيرة حيث قام بعقد التحالف

(١) استنادا إلى كراهية بريطانيا العظمى وفرنسا كقوى استعمارية والإعجاب (بالريزور جيمنتو) (الحركة الأيديولوجية الديمقراطية التوحيدية الإيطالية) وكذلك الإعجاب بـ (الوحدة الوطنية) للألمان، وهى تلك الأيديولوجية الفاشية التى استخدمت معاداة اليهودية فى الوقت الذى كانت فيه القضية الفلسطينية تثير بعض ردود الأفعال الملتهبة حينذاك.

بين ألمانيا الموحدة وعالم الإسلام؛ واستمرت تلك الرحلة حتى دمشق حيث ألقى خطبة هامة على قبر صلاح الدين للإشادة بالتحالف بين القوتين الصديقتين وهما ألمانيا والأمة الإسلامية.

لم يقل تأثير الأيديولوجية (الفاشية) على الأوساط العربية ـ الإسلامية بسبب المناورات البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى، والمراسلات المتبادلة بين حسين وماك ماهون والتى نتج عنها اتفاقية سايكس ـ بيكو، ووعد بلفور، إضافة إلى موقف فرنسا فى شمال أفريقيا. نحن نعرف كيف كان استقبال «الحاج أمين الحسينى» مفتى القدس فى ألمانيا، والمساندة الفعالة التى قدمتها ألمانيا النازية إلى «رشيد على الكيلانى» عندما حاول فى العام ١٩٤١ ضم العراق فى مواجهة الاحتلال البريطانى. كل ذلك يتيح لنا استيعاب أفضل لما تم فيما بعد.

كان تأثير الاشتراكية الوطنية على مصر قد انعكس فى مستويين: فمن ناحية، هناك نشاط الدعاية الألمانية التى دعمت فيما بعد المسيرات العسكرية فى بداية الحرب العالمية الثانية، ومن ناحية أخرى هناك أشكال التنظيم والعناصر الأيديولوجية التى تم تبنيها من بعض الأوساط السياسية والعسكرية.

منذ استيلاء هتلر على السلطة فى العام ١٩٣٣ قام ممثلو مختلف التنظيمات الاشتراكية ـ الوطنية بممارسة أنشطتهم فى مصر. وكانت هناك فى المقام الأول التنظيم الأجنبى الذى مارس نفوذا كبيرا على ما بين ألف إلى ألفين من الألمان حتى اندلاع الحرب فى ١٩٣٩.

لم يظل اليهود دون نشاط لمحاربة تلك الدعاية ذات الأثر المعادى للسامية، فعلى غرار المحافل الماسونية تكونت «العصبة المضادة لمعاداة السامية الألمانية» التى تأسست فى مارس ١٩٣٣ برئاسة المحامى ليون كاسترو، وقد انضمت فى شهر يوليو من نفس العام إلى «العصبة الدولية ضد معاداة السامية الألمانية»؛ كما تدخل قادة الطائفة على كافة المستويات وخاصة عن طريق الصحافة للقيام بدعاية مضادة مكثفة.

وعندما قام أحد قادة المنظمة الألمانية المعادية للسامية فى مايو ١٩٣٣ بتوزيع كتاب ضد السامية فى أوساط الجالية الألمانية هب «اومبرتو جابيس» ـ أحد رجال الأعمال اليهود ـ للكفاح فى هذا الشأن بمساندة «العصبة المضادة لمعاداة السامية الألمانية»

ورفع دعوى متهمًا الناشر بالتشهير. غير أن المحاكم المختلطة رفضت دعواه فى يناير ١٩٣٤. لقد كان السلاح الأساسى للعصبة المضادة لمعاداة السامية الألمانية يتمثل فى مقاطعة السلع الألمانية، علاوة على الحملات التى كانت تشنها على صفحات الجرائد، على أنه لم يكن فى مقدور تلك المقاطعة التأثير بصورة حاسمة على تجارة الصادرات الألمانية الموجهة إلى مصر. أيا ما كان الحال، فلقد سعت السلطات المحلية إلى تقليص تلك النشاطات على أراضيها والاحتفاظ فى ذات الوقت بموقف محايد على قدر الإمكان.

وكانت الدعاية الألمانية تتوقع ـ بطريقة صائبة ـ أن تشهد أهم نجاحاتها فى الأوساط الطلابية، والجامعات، وبين ضباط الجيش المعادين للمستعمر البريطانى. كانت حركات الشباب شبه العسكرية فى الثلاثينيات من القرن العشرين قد اتخذت التنظيمات الفاشية والنازية السابقة عليها نموذجا لها على المستوى التنظيمى والمستوى الايديولوجى؛ لم يكن لمعاداة السامية أن تجد لها سندًا سوى على النطاق الاقتصادى أو الدينى؛ على أنه لم يكن لجانبها العنصرى فرصة ما لأى صدى عند المصريين والعرب الذين يتبعون ـ باعتبارهم ساميين ـ ذات الجنس اليهودى، وذلك وفقًا للأيديولوجية الهتلرية.

لقد سجل تعاطف المصريين نحو دول المحور تقدما وفق تطور الوضع العسكرى حيث وصل إلى قمته فى العام ١٩٤١-١٩٤٢ مع تقدم «روميل» حتى العلمين على مشارف الإسكندرية؛ غير أنه بعد منعطف شتاء ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣، وخاصة بعد هزيمة ألمانيا أمام «ستالنجراد» تبخرت الآمال فى الحصول على دعم ألمانى للتخلص من الإنجليز. واتجهت أنظار بعض أعضاء هذه المجموعات نحو الاتحاد السوفييتى الذى حقق الانتصارات العسكرية باعتباره العدو الوحيد المحتمل ضد الدول الغربية.

النزاع الفلسطينى

إذا كانت المكائد الموالية للنازية فى البلاد قد مثلت خطرًا على اليهود، فإن النزاع الفلسطينى يشكل خطرًا أكبر عليهم خاصة بعد أن دخل فى مرحلة جديدة مع الانتفاضات العربية فى ١٩٣٦ -١٩٣٩. فلم يكن للقضية الفلسطينية فى ذلك الوقت نفس الصدى الذى كان لها فى الدول المجاورة ذات الاتجاه القومى العربى مثل سوريا والعراق.

إلا أن التأثير المتصاعد للحركات الدينية ـ لا سيما «الإخوان المسلمين» ـ وتقبل نظريات القومية العربية والأمة الإسلامية سوف يجعل من القضية الفلسطينية (فى إقامة وحدتها والتحرر من الاستعمار) قضية مركزية على مستوى الأمة العربية. لم يكن من شأن الاتهام بتواطؤ الصهيونيين والإنجليز سوى وضع يهود مصر فى موقف حرج للغاية؛ ذلك أن إقرارهم بحق إخوتهم فى الديانة الإقامة فى الأراضى المقدسة يعنى بفعل الواقع إقصاء أنفسهم عن الأمة المصرية.

الضباط الأحرار ـ ناصر وحرب السويس

احتدمت التوترات الاجتماعية فى البلاد بسبب الحرب العالمية الثانية؛ كما أجج النضال ضد الإنجليز التشققات السياسية. لقد مثلت الهزيمة فى فلسطين التى نسبت إلى فساد حكام الدول والجيش دفعة قوية ـ فى مصر كما فى عديد من البلدان العربية الأخرى ـ للتمرد ضد النظام القائم وأقبح رموزه، السرايا. استولى الضباط الأحرار على الحكم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

فى البداية، لم يحدث تغيير يذكر فى أوضاع اليهود؛ فقد ضمن الحكام الجدد للبلاد سلامة الأجانب والأقليات، والحفاظ على ممتلكاتهم. كما أعلن محمد نجيب بطريقة واضحة انحيازه نحو مساواة جميع المواطنين، مهما كانت أصولهم. وقد زار بنفسه أكبر المعابد اليهودية بالقاهرة خلال خريف عام ١٩٥٣ ليلة صيام «يوم كيبور» حيث استقبلته قيادات الطائفة بحفاوة كبيرة، بعدما اطمأنت إلى مجرى سير الأمور.

حتى بعد إقصاء محمد نجيب فى نوفمبر ١٩٥٤، لم تتغير الأوضاع مباشرة. فحتى ١٩٥٦-١٩٥٧، لم تتسم السياسة الاقتصادية للضباط الأحرار بالطابع «الاشتراكى» الموجه نحو تخطيط الدولة، وتأميم الصناعات الأساسية التى ستقوم بها لاحقا بعد قضية قناة السويس. وكان مُنَظِّرُو النظام الجديد يسعون إلى إعادة إحياء الاقتصاد بواسطة سياسة الانفتاح على رأس المال المحلى والأجنبى، مع تبنى تشريعات اجتماعية تكون فى صف أصحاب العمل. بعدما أدرك عبد الناصر أن هذه السياسة لا تؤدى إلى النتائج المتوقعة، انتقل إلى المرحلة المسماة «بالاشتراكية» التى اتسمت فى الواقع باقتصاد الدولة.

تعمق التوجه القومى العربى والمناهض للإمبريالية لدى النظام المصرى بدءا من ١٩٥٤؛ فلم تهدأ النفوس حول الخلاف المتعلق بالوجود البريطانى فى منطقة القناة؛ وانضمت بعض الاتجاهات المعادية للسامية إلى الهجوم ضد الإمبريالية، والصهيونية، والشيوعية. وراحت وزارة الإرشاد الوطنى فى نشر كتابات شديدة المعاداة لليهودية. إلا أنه من اللافت للنظر أن السكان المتخمين بهذه الكتابات لم يطبقوا فى جميع الأحوال هذه الأحكام النظرية على الصهاينة واليهود بصفة عامة، أو اليهود الذين يعرفونهم. غير أن الشكوك الرسمية تجاه التوجهات السياسية للطائفة تأججت مرة أخرى مع اكتشاف شبكة من الجواسيس فى يوليو ١٩٥٤ التى تتشكل من يهود مصريين وأجانب، ومهمتها تنظيم سلسلة من عمليات الاغتيال لتقويض مشروع اتفاق إنجليزى ـ مصرى.

جاءت الضربة الحاسمة مع العدوان الثلاثى على قناة السويس الذى شاركت فيه كل من بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل؛ فكانت تأكيدا ملائما تماما على نظرية التواطؤ الإمبريالى الصهيونى. فى ليلة ٣١ أكتوبر إلى أول نوفمبر، تم اعتقال عدد كبير من اليهود بطريقة عشوائية، كما وضعت أموالهم تحت الحراسة، وعهد إلى جهة خاصة بالمراقبة الرسمية على أملاك الطوائف اليهودية بالبلاد. ثم جاء طرد حاملى الجنسيات الفرنسية والبريطانية ـ الذين يضمون عديدا من اليهود ـ إلى جانب أغلبية اليهود الذين لا يحملون جنسية بتهمة القيام بأعمال معادية للدولة. بطبيعة الحال، وضعت ممتلكاتهم تحت الحراسة وأديرت بواسطة الجهة المذكورة أعلاه. ومع ذلك، كان هناك ما يقرب من ٢١,٠٠٠ يهودى فى مصر حتى خريف عام ١٩٥٧؛ كما يقدر عدد اليهود المستمرين فى البلاد بـ ٧,٠٠٠ عندما أدت حرب الأيام الستة إلى توجيه ضربات أكثر صرامة ضدهم. وهم لا يتعدون اليوم ٣٠٠ يهودى فى مصر. تتحدث الأرقام عن نفسها، وتبرز بطريقة مفجعة صعوبة أن تنتمى إلى الأقلية فى بلد يمر بأزمة.

تتعدد أسباب طرد اليهود بدون جنسية، وغير المرغوب فيهم؛ فنظرا أنه من المتوقع أن يتوجه عدد منهم إلى إسرائيل، تتناقض هذه الإجراءات فى جوهرها مع السياسة التى طالما أكدت عليها الحكومات العربية، أى معاداة نظرية الأمة اليهودية. من الملاحظ أن معظم من هاجر إلى إسرائيل ينتمى إلى أفقر الأوساط الاجتماعية، بينما كانت تفضل الطبقات الميسورة التوجه إلى أوروبا وإلى الأمريكتين. غير أن هذا الدعم للعدو السياسى توازنه مكاسب مادية: الأملاك التى تركها وراءهم اليهود المطرودون، إلى

جانب الوظائف الخالية فى بلد لا تتوافر فيها فرص عديدة. سعت استراتيجية الحكومة للتمصير إلى التخلص من جميع المجموعات الاجتماعية غير القابلة للإندماج؛ وبالتالى، لم يكن اليهود هم الطائفة الوحيدة التى عانت من هذا الإنغلاق الذى شهدته مصر منذ ذلك الحين؛ غير أنهم كانوا أكثر عرضة للهجوم، سواء من جانب المناهضين للرأسمالية، أو المناهضين للشيوعية، والإمبريالية، والصهيونية.

الختام

عاش يهود مصر بالتالى عملية التحول بكل ما حملته من تداعيات، والذى بدأت خطواته الأولى فى المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر؛ ففى الوقت الذى انطلق فيه «تحديث» الاقتصاد بتأثير من أوروبا وفى مصلحتها، نشهد فى المقام الأول الصعود الاجتماعى لفئة كبيرة من اليهود؛ ونظرا لأنها هامشية ومتفرنجة الطابع، أخذت تبتعد عن محيطها المصرى العربى. كما أدى كل من التحول فى الزارعة، والنمو الذى شهدته المدن، وتطور التعليم والإدارة، إلى تحفيز المنافسة فيما بين المسلمين والمسيحيين واليهود. وعندما انبثق فى الجماهير الشعبية المصرية وعى اجتماعى وسياسى جديد أدى إلى مولد نزعة قومية عربية بمسحة دينية وبمعاداة الإمبريالية والاشتراكية، لم تقو البنية التقليدية للمجتمع المصرى على الصمود ومن ثمة انهارت تمامًا.

لقد شعر اليهود أنهم ضحايا الأوضاع السياسية خاصة وأن الصهيونية كانت ـ بمطالبها القومية التى لا تختلف كثيرا عن القومية العربية ـ تعيد النظر فى اندماج اليهود العرب فى أوطانهم أو فى البلد المضيف.

كانت الطائفة جميعها مطالبة باتخاذ اختيار حاسم وعسير حيث تنوعت الإجابات على هذا السؤال. فمعاداة الصهيونية على المستوى العربى يحمل حزمة كاملة من المسببات ومن مختلف الرؤى تتراوح ما بين الإخوان المسلمين حتى الشيوعيين. لقد أدى ذلك إلى تشجيع فكرة مسبقة كامنة ضد اليهود باعتبارهم من غير المسلمين وإنهم من «الآخرون». لا شك أن أساس كل ذلك يعود إلى أسباب سياسية واقتصادية. لقد رأت الاتجاهات الوطنية المعادية للاستعمار فى اليهود أحد المنتفعين من الهيمنة الأجنبية ومن تدخل رأس المال الأوروبى فى البلاد وأنهم الأنصار الكامنون لدولة

صهيونيـة يساندها الغـرب «الكافر» على أرض الوطـن العربى. أيًا ما كان الأمر، فإن النزاع الفلسطينى كان يستعمل كحافز حيث إنه يعيد مختلف الرؤى إلى قاسم مشترك.

إن الـمعاداة العربية للصهيونية ـ والتى من الحق القول بأنها لم تكن تخلو من معاداة لليهودية ـ لا بد لها نظريا أن تزول مع حل النزاع الفلسطينى؛ ذلك أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال الاستخلاص من تاريخ يهود مصر تأكيدا أنه أينما وجدوا تواجدت معاداة السامية هى الأخرى.

جدول رقم (١)

فى عام ١٩١٧ كان فى مصر ٥٩٦٢٦ يهوديًا من مجموع سكانها وعددهم ١٢٧١٨٢٥٥ نسمة ولا شك أن توزيع اليهود فى مجموع وادى النيل من الأمور الهامة.

المنطقة	رجال	نساء	مجموع
القاهرة	١٤٤١١	١٤٧٩٠	٢٩٢٠٧
الإسكندرية	١٢٢٧٨	١٢٥٨٠	٢٤٨٥٨
القنال	٣٨٠	٣١٧	٦٩٧
دمياط	٥	٣	٨
السويس	٨٣	٧٤	١٥٧
الصحراء الشرقية	١	–	–
الصحراء الغربية	–	–	–
سيناء	١	١	٢
المجموع	٢٧١٥٩	٢٧٧٧١	٥٤٩٣٠

البحيرة

أبو حمص	٨	–	٨
بندر دمنهور	٢٧	٢٦	٥٣
مركز دمنهور	٣	–	٣
الدلنجات	٥	٣	٨
كفر الدوار	٣	٢	٥
كوم حمادة	١٠٢	–	١٠٢
عشور إسكندرية	٦	١٤	٢٠
رشيد	٥	٥	١٠
شبرا خيت	٧	–	٧
ايتاى البارود	١٤	٥	١٩
المجموع	١٨٠	٥٥	٢٣٥

الدقهلية

اجا	١	-	١
دكرنس	٩	٣	١٢
فارسكور	١	-	١
بندر المنصورة	٣٠٥	٢٨١	٥٨٦
مركز المنصورة	١	-	١
ميت غمر	١٢٧	١٤٩	٢٦٦
السنبلاوين	٨	-	٨
المجموع	٤٥٤	٤٣٣	٨٨٧

الغربية

دسوق	١٠	٢	١٢
قوة	٦	-	٦
كفر الشيخ	٢٠	١٨	٣٨
البرلس	-	-	-
كفر الزيات	٥٦	١٢	٦٨
المحلة الكبرى	٥٢	٥٠	١٠٢
السنطة	١	-	١
شربين	٢٨	٤	٣٢
طلخة	٢	-	٢
بندر طنطا	٦٢١	٥٦٢	١٨٨٠
مركز طنطا	٥٢	١	٥٣
زفتى	-	-	-
المجموع	٨٤٨	٦٤٩	٢١٩٤

المنوفية

أشمون	١	-	١
منوف	-	-	-

قويسنا	٢٠	١٥	٣٥
بندرشبين الكوم	٤	٣	٧
مركز شبين الكوم	–	–	–
تلا	١	–	١
المجموع	٢٦	١٨	٤٤

القليوبية

بندر بنها	٨٨	٩٠	١٧٨
مركز بنها	٤٢	٢٨	٧٠
ضواحى مصر	٨	٨	١٦
قليوب	٨	٢	١٠
شبين القناطر	١٧	–	١٧
طوخ	١٥	١٣	٢٨
المجموع	١٧٨	١٤١	٣٢٨

الشرقية

بلبيس	٨	٢	١٠
فاقوس	٥	٦	١١
ههيا	١	–	١
كفر صقر	١٣	٧	٢٠
منيا القمح	٨	٢	١٠
بندر الزقازيق	١٢٥	١١٦	٢٤١
مركز الزقازيق	–	–	–
المجموع	١٥٧	١٣٣	٢٩٠

الصعيد

أسوان	١٢٤	١٨	١٤٢
أسيوط	٨٨	٤٩	١٣٧

بنى سويف	٤٩	٣٩	٨٨
الفيوم	٤٨	٣٥	٨٣
جرجا	٨٥	٥٨	١٤٣
الجينزرة	٢١٤	٢٦٨	٤٨٢
المنيا	٩٩	٧٤	١٧٣
قنا	١٧	٤٣	١١٦
المجموع	٧٢٤	٥٨٤	١٣٦٤
المجموع الكلى	٢٨٨١٥	٢٩٨١١	٥٩٦٢٦

الجدول رقم (٢)

فى ١٩٢٧ كان عدد سكان مصر ٦٨٤ , ١٧٧ , ١٤ نسمة منهم ٥٥٠ , ٦٣ يهوديا والذين ازداد عددهم بنفس النسبة التى زاد فيها عدد المسلمين والأقباط مع ملاحظة تصاعد هجرة الريف. تلك هى آخر إحصائية تمكن الحصول عليها:

الجنس	أميون باللغة	متعلمو الأجنبية	المجموع
التوابئس			
رجال	٥٤٥	١٤٣٦	٢٢٨٠
نساء	١٢٠٧	١٠١٩	٢٢٢٦
المجموع	٢٠٥٢	٢٤٥٥	٤٥٠٧
الربانيون			
رجال	٨٤٦٧	٢١٣٨٤	٢٩٠٠٦
نساء	١٣٨٢٥	١٧٤١٩	٣٠٠٣٧
المجموع	٢٢٢٩٢	٣٨٨٠٣	٥٩٠٤٣
المجموع الكلى			
رجال	٨٤٦٧	٢٢٨٢٠	٣١٢٨٧
نساء	١٣٨٢٥	١٨٤٣٨	٣٢٢٦٣
المجموع	٢٢٢٩٢	٤١٢٥٨	٦٥٥٥٠

المنطقة	رجال	نساء	مجموع
الإسكندرية	١٦٦٤٠	١٢١٨٠	٢٤٨٢٩
القاهرة	١٧٣٨٦	١٦٧١٤	٣٤١٠٠
القنال	٥١٦	٥٦١	١١٢٢
السويس	٩٩	٦٧	٦٢٦
دمياط	١	٢	٣
سيناء	٥	١٢	١٨
المجموع	٣٠٦٠٨	٢٩٥٤٥	٦٠١٩٨

البحيرة

المنطقة	رجال	نساء	مجموع
أبو حمص	٢	–	٢
بندر دمنهور	٢٥	٢٨	٢٥٣
مركز دمنهور	١	–	١
الدلنجات	–	–	–
إيتاى البارود	١	–	٢
كفر الدوار	١١	٧	١٨
كوم حمادة	–	–	–
الرشيد	١	–	١
شبرا خيت	٢	–	٢
المجموع	٤٣	٣٦	٧٩

الدقهلية

المنطقة	رجال	نساء	مجموع
أجا	–	–	–
دكرنس	٥	٤	٩
فارسكور	–	–	–
بندر المنصورة	٢٨١	٢٨٢	٥٦٢
مركز المنصورة	–	–	–
ميت غمر	٨٠	٧٧	١٥٧

السنبلاوين	١٠	٦	١٦
المجموع	٣٧٦	٣٦٩	٧٤٥

الغربية

البرلس	–	–	–
دسوق	٥	٤	٩
نوه	–	٢	٢
كفر الشيخ	٩	٨	١٧
كفر الزيات	١٠	٥	١٥
المحلة الكبرى	٥٤	٣٧	٩١
السنطة	–	–	–
شربين	١	١	١
طلخا	–	–	–
بندر طنطا	٤٦٤	٤٧٩	٩٤٠
مركز طنطا	٢	١	٣
زفتى	٢٠	١٧	٣٧
المجموع	٥٧١	٥٥٦	١١٢٧

المنوفية

أشمون	–	١	١
منوف	٤	١	٤
قويسنا	١	١	٢
بندرشبين الكوم	٦	٦	١٢
مركز شبين الكوم	١	–	١
تلا	١	–	١
المجموع	١٤	٩	٢٣

القليوبية

بندر بنها	٥٢	٤٥	٩٧
مركز بنها	١٦	١٣	٢٩

ضواحى مصر	١	–	١
قليوب	٣	٣	٦
شبين القناطر	١٣	–	١٣
طوخ	٩	٤	١٣
المجموع	٩٤	٦٥	١٥٩

الشرقية

بلبيس	١	–	١
فاقوس	١	-١	٢
ههيا	٢	٦-	–
كفر صقر	٨	٦	٨
منيا القمح	٨	٥	١٣
بندر الزقازيق	٨١	٦٠	١٤٧
مركز الزقازيق	–	–	–
المجموع	٩٤	٧٩	١٧٣

الصعيد

أسوان	٢٨	١٦	٤٤
أسيوط	٤٧	٢٠	٦٢
بنى سويف	٣٣	٢٤	٥٧
الفيوم	١٨	٩	٢٧
جرجا	٢٤	١٠	٣٤
الجينزرة	٣١٠	٣٣٦	٦٤٠
المنيا	٤٢	٤٦	٨٨
قنا	٥٣	٣٥	٨٨
المجموع	٥٥٠	٤٩٥	١٨٤٦

كان يقدر فى ١٩٤٦ أن أغلبية اليهود تقريبًا كانوا متمركزين فى الإسكندرية والقاهرة ومنطقة القنال وطنطا والمنصورة.

العدد التقريبى غير الرسمى ٩٠,٠٠٠.



نصف القرن

بقلم: إجلال عريرا[1]

استوعبت مصر منذ قديم الزمن وحتى الأزمنة الحديثة من تاريخها كافة الحضارات والثقافات التى كانت تتنافس على أرضها؛ وذلك لما اتسمت به من حراك وتعدد الأشكال. على أن ردها على الغزاة كان بلغتها الخاصة، فى الحدود الدقيقة لأراضيها، محافظة بذلك على عاداتها الصلبة، منتهضة من جديد بأعجوبة من الهزائم التى منيت بها.

لقد انطبعت شخصية مصر الحديثة ـ كما هو حال بلاد العالم العربى الأخرى ـ بتدخل الغرب، وما كان له من تأثير لا يمكن مقاومته؛ حيث تم اجتياح مصر التى أصبحت مفتونة بفكر هذا الغرب وبما كان يمتلكه من تقنيات، حيث كانت تتأرجح بغريزتها.

اهتدت مصر فى القرن التاسع بالمفكر «جمال الدين الأفغانى»، ثم بفكر المصرى «محمد عبده»، حتى انتشرت فيها حركة دفاعية عن الإسلام؛ وهى التى تدعو للدفاع عن الإسلام وإظهار محاسن جانبه الإصلاحى، مع رفض ـ بادئ ذى بدء ـ التقليد الحرفى للنموذج الغربى المسئول عن تشويه الفكر الحقيقى للدين الإسلامى. وينادى هؤلاء المفكرون بالعودة إلى الإسلام الأصلى كما كان يعبر عن نفسه فى حياة (سيدنا) محمد، وخلفائه المباشرين. لقد حصل هذا التيار فى مصر على قدر من النجاح، خاصة فى أوساط المثقفين؛ حيث كانت أفكاره هى الأساس الأيديولوجى للثورة الوطنية المصرية الأولى التى قادها عرابى باشا فى ١٨٨١ ـ ١٨٨٢.

---

(١) ولدت «إجلال عريرا» بالإسكندرية فى ١٩٥٠ حيث تركت البلاد فى العام ١٩٦٢ لتذهب إلى فرنسا استكمالًا لدراساتها وقد عادت فى العام ١٩٧٨ إلى الإسكندرية لقضاء بعض الأسابيع فيها.

إلا أن محاولة الانقلاب تلك ضد سلطة توفيق (من سلالة محمد على) كانت قصيرة الأجل؛ وكانت تتسم ببعض الكراهية للأجانب، ومع ذلك فقد أدت إلى بدء الاحتلال البريطانى للبلاد. ولما كانت مصر قد أفلست بسبب إسراف الخديو إسماعيل، وأصبحت شديدة المديونية، فهى لم تستطع مواجهة التسلل الاقتصادى المتأنى لأوروبا، مما جعل مصر الفريسة المثلى للاستعمار البريطانى.

وإذا كانت ثورة عرابى قد اشتملت على مرجعية إسلامية قوية، فإنها لم تكن تحمل مفهومًا عربيًا حقيقياً؛ فالواقع أن الوطنية المصرية حتى الثلاثينيات من القرن العشرين كانت خارج إطار حركة القومية العربية. وذلك أن الشعار الذى أطلقه سعد زغلول فى الثورة ضد الإنجليز كان «مصر للمصريين»، مستوحيا على هذا النحو شعار أوائل الوطنيين من أمثال «يعقوب صنوع» و«عبد الله النديم».

فمن الواضح أن الشعب ذاته احتفظ برغبة شديدة فى التمايز عن العالم العربى والتأكيد على الخصوصية المصرية فى العادات والثقافة التى كانت تتميز بصفاء خاص.

من الملاحظ أيضا أن البعض فى العام ١٩٥٠ كان يشيد بالشخصية المصرية الفرعونية المستقرة على ضفاف النيل، وما كان لها من أصول أسطورية قديمة. ومع ذلك، فإن الثلاثينيات ـ الأربعينيات من القرن العشرين قد مثلت لمصر، كما هو الشأن أيضا للبلاد المجاورة لها، المنعطف الذى يحدد المسار الجديد فى تاريخها. ومن المدهش حقا أن الإنجليز قد شجعوا الفكر القومى العربى الذى تلاقى مع الفكر الإسلامى؛ وقد نجح هذا الفكر فى جذب الأفكار والطاقات.

فى مصر تلك التى شعرت مؤخرًا بأنها عربية، اندلع انقلاب الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، بقيادة جمال عبد الناصر؛ ومن هنا أصبحت لمصر علاقة جديدة بالعالم.

لقد عرّف جمال عبد الناصر بنفسه نظريته حول الدوائر الثلاثة. ولما كانت مصر قد تخلصت من الوصاية البريطانية، مكتسبة بذلك شخصيتها الحقيقية والمستقلة، فإنها سوف تكون مركزًا لثلاث مناطق متداخلة، فهى أفريقية أولا، وعربية ثانيًا، ومسلمة

أخيرا. وهكذا تصبح مصر فى ذات الوقت رأس رمح العروبة والكفاح ضد الإمبريالية على نطاق المنطقة.

بينما منح الإنجليز استقلالًا رسميًا للبلاد منذ عام ١٩٢٢، فإنهم لم يتركوها نهائيا سوى تحت حكم عبد الناصر فى عام ١٩٥٤، فيما عدا منطقة قناة السويس.

خلال مؤتمر «باندونج» لدول عدم الانحياز المنعقد عام ١٩٥٥، أكد جمال عبد الناصر على «الحياد الإيجابى» لبلاده إزاء القوتين العظميين: روسيا والولايات المتحدة الأمريكية. ومصر التى كان يريد لها الخديو إسماعيل أن تكون «أوروبية»، تحولت فى الخمسينيات من القرن العشرين إلى بلد من العالم الثالث.

يبدأ بالتالى حوار جديد بين مصر وشركائها العرب. سوف تعانى مصر الناصرية من التقلبات فى التحالفات والمنافسات الجارية داخل أمة عربية لا تزال فى بداية التكوين. لقد كانت أهم محاولة وحدة قام بها عبد الناصر هى تلك التى عقدها مع سوريا فى ١٩٥٨، حيث اندمج البلدان فى اتحاد فيدرالى تحت اسم «الجمهورية العربية المتحدة». لم تستمر هذه الوحدة طويلا، إذ تم الانفصال فى العام ١٩٦١ محاطا بالإحباط؛ ولكنه ربما مثل أيضا انفراجا للشعب المصرى فى العودة إلى هدوئه السابق وإلى انفراده التقليدى.

كان من شأن إخفاق «الجمهورية العربية المتحدة»، إلى جانب الأزمة الاقتصادية، تداعيات تجلت فى التشدد على مستوى السياسة الداخلية المصرية؛ إذ يبدأ عصر التأميمات والحراسات. وتعود العروبة من جديد لتشكل القيمة العليا، والشاهد على ذلك تعليم اللغة العربية بطريقة منهجية وإلزامية فى مدارس الجاليات الأجنبية، سواء اليهودية أو اليونانية، أو الإيطالية، أو الفرنسية، بينما كانت تحتل اللغة العربية فى تلك المدارس مكانا أصغر بل كانت أحيانا غائبة تمامًا. منذ بداية الثلاثينيات، كانت جماعة الإخوان المسلمين والقيم الإسلامية التى تجسدها هى الخميرة الدينية المهيمنة على الأوساط الريفية، والمؤججة للاندفاعات القومية. لقد كانت الأوضاع شديدة الغموض لدى الأقليات غير المسلمة فى البلاد، ومما يدلل على قلقها ذلك الصمت عند البعض والمزايدة الوطنية عند البعض الآخر.

كان اليهود أكثر من غيرهم فى حالة اضطراب. فقد ظلت العلاقة بين الإسلام

واليهودية غامضة ومعقدة منذ قيام (سيدنا) محمد بالدعوة فى الصحراء العربية فى القرن السابع.

لم يحدث آنذاك أى نزاع معلن أو عرقى كما كان الحال بين اليهودية والمسيحية. كان هناك بالأحرى اعتراف بالسامية مصبوغ بتلك الشكوك التى ولدها الوجود الغربى لدى شعوب الشرق الأوسط. وعندما تأتى ساعة التأكيد على الوطنية، فليس اليهودى هو الذى يلام أو تقاوم سلوكياته، بل إن تشرده هو الذى يجعله شاذا وغريبًا.

يوجد فى اللغة العربية سلسلة من الأقوال المأثورة عن الأرض، أرض الشرف، الأصل الخير. ويعد التجذر سمة النبل والاحترام. وهنا تكمن إزدواجية العربى المتجذر تجاه أصول البدوية، أى: نبل المناضل البدوى، وأستاذيته فى فنون الغزو، وإعجابه بالحياة الصعبة، والافتتان بالصحراء، ومع ذلك، رفضه الشرود، المرادف للفقر والفوضى. هكذا تكون نظرة المسلم أحيانا إزاء تلك الموجات من المهاجرين اليهود، واليونانيين، والأتراك، والروس. فى مصر هذه، يتناقض تنوع الجنسيات، والتسامح الواضح مع التيارات الفكرية الأكثر جذرية.

لم يوجد فى الإسكندرية أو المنصورة أو دمنهور أو طنطا «الغيتو» (الأحياء التى يجب لليهود العيش فيها دون غيرها ـ المترجم) على الطراز الغربى، كما لم توجد الأحياء المخصصة للنازحين فى شمال أفريقيا؛ بل كان هناك خليط من السكان مع تشكل علاقات الجيرة التى سمحت بهذا التعارف المتبادل الذى لا ينشأ أى ود بدونه.

ما من شك فى أن الحس الحاد للإنسان المصرى لما هو عبثى ومأساوى هو الذى ولد تلك الروح الفكاهية المصرية التى تدخل الغبطة عند الإنسان وتلطف العلاقات، بالإضافة إلى توليدها للمشاجرات والاشتباكات المرتبطة بالعلاقات الودية والعميقة. ربما يكون قبول الآخر جاء نتيجة التأكيد على أدق قدر من الخصوصية؛ فالاختلاف هنا يعرض بكل فخر، بل قد يتم ذلك بعجرفة مبالغ فيها لمسرحية شرقية هزلية.

هكذا يبدو أن الغموض قد ساد، هل يمكن أن يدوم؟ وهل يمكن أن تستعصى النزعة القومية العربية، ويبقى اليهود ملتصقين بالبلاد على الرغم من التحذير الذى أحسوا به؟

إنها قصة أخرى لا تعمل أى حساب للاصطدام بين القومية العربية وأى حركة مضادة لها. لقد وجدت مصر الناصرية نفسها منذ نشأتها فى حالة من التمزق بسبب النزاع العربى ـ الإسرائيلى.

بالتوازى مع صعود القومية العربية ـ المصرية، نشأت قوة مماثلة بمسيرة مشابهة لها تماماً، وهى المطالبة بالهوية الفلسطينية والعربية فى الثلاثينيات ـ الأربعينات من القرن العشرين، وخوض المعركة ضد الانتداب البريطانى، بكل ما اتسمت به من ترددات ونجاحات. هنا تبرز الأقليات المسيحية التى أخذت تمارس فى خضم النزاع بين بلادهم والغرب قدرا من المزايدة للتخلص مما قد يشوب موقفها من شكوك. وهم الذين تولوا ـ على غرار اليهود واليونانيين فى مصر ـ قيادة الحركة الشيوعية، وأصبحوا لسان حال الإيديولوجيات الثورية الجديدة، والمبشرين لها.

لقد شهدت فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين المواجهات الأشد اقتتالا فيما بين الصهيونية والقوى الوطنية. أخمد الوجود البريطانى لفترة من الوقت العنف الذى انتاب النزاع، فى إطار سياسة بريطانيا الخبيثة وتحت شعار «فرق تسد» التى تختلط فيها الأوراق. وقد عجلت كل من الحرب العالمية الثانية والمحرقة النازية من مسيرة التاريخ مع الانتهاء فى العام ١٩٤٨ بالاعتراف بدولة إسرائيل. مع قيام دولة يهودية ـ أى دولة لليهود يكون العرب فيها أقلية ـ تصبح تلك الدولة نقطة مرجعية جديدة وراديكالية بالنسبة ليهود العالم العربى، وكذلك للجماهير العربية. هذا، وكأن شقًا من التاريخ قد انكشف وبرز فجأة وجه يهودى يجبر الأنظار على الالتفات إليه.

فى سنوات ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ يتم بانتظام الكفاح المسلح بين إسرائيل وجيرانها العرب. وبالقدر الذى تكون الصهيونية أكثر تصلبا والقضية الفلسطينية أشد ضراوة يزداد مصير الأقليات اليهودية فى أرض الإسلام غموضا. وتقع مصر فى الصفوف الأولى، حيث يصبح اليهود المصريون أول المعنيين.

من هنا يتضح أن الناصرية مثلت لليهود المصريين نهاية تاريخهم الحديث، بل ربما أيضا نهاية كل تاريخهم. ومن شأن تأميم القطاع الخاص الذى كان بشكل كبير ملكا لليهود، وتدعيم جهاز الدولة لصالح فئة جديدة من العسكريين، والتعريب المنهجى،

المساهمة فى تغيير صورة مصر على الصعيدين الاجتماعى والسياسى، وإغراق البلاد فى نوع من الفوضى.

لقد تقلصت الحياة اليهودية تدريجيا فى مصر خلال السنوات ١٩٥٦-١٩٦٧ على وجه التقريب. فأغلقت المدارس الدينية، وكان المصير نفسه للمعابد، كما انعدمت الحياة الطائفية، وفرغت البلاد من اليهود بموجات الهجرة التى استمرت دون توقف من حرب (السويس ١٩٥٦ ـ المترجم) إلى حرب الأيام الستة (١٩٦٧ ـ المترجم). وأدت ظلال الصهيونية على كيان الإنسان العربى ـ على الرغم من قلة نشاطها فى تلك الفترة ـ إلى تشويش علاقته باليهودى المنتمى إلى الأقلية. فقد أصبح محلا للشك، والتساؤل إلى أين سيتجه ولاؤه، وما التاريخ الذى ينتمى إليه؟

لم يكن فى مصر فى الستينيات من القرن العشرين معاداة للسامية، كما كان الوضع بين اليهود والأوربيين؛ بل كانت بداية لمرحلة التمييز، وأولى ارتجافات الخوف التى تعود بذاكرة اليهودى إلى زمن سحيق. وفى الوقت الذى تستكمل فيه مصر هويتها العربية، وتنضج الروح القومية وتغمر الجميع، لم يعد هناك مكان لليهود. إن الجراح التى نتجت عن تركهم البلاد هى ذات الجراح التى شعرت بها البلاد.

يبرز الآن شعور بالخيانة من الطرفين؛ ثم يظهر فى الخلفية التاريخ اليهودى فى «مسيرة الأمم»؛ ويصبح اليهودى من جديد هو العبرى (كلمة «العبرى» تستمد أصولها من جذور تعنى «الانتقال»؛ فـ«العبرى» هو الذى يتنقل، وهو الذى «يعبر»، والذى يتيح المرحلة الانتقالية). فكان عليه إما أن يتجه إلى صهيون أو العودة إلى التيهان. وهكذا يتشيد من جديد حائط من «الغيتو» يعود إلى آلاف السنوات، يفصل بين الوهم بالتأثير المتبادل وما هى عليه روعة الألوان والتعاطف مع مراهنة طائفية.

إن كون اليهودى يولد فى مصر فى عهد الناصرية وعند أولى خطوات إقامة دولة إسرائيل يعنى وضع طفولته فى حالة من الاختلال وفى مفارقة تاريخية مؤلمة. ويعنى هذا العيش فى ظل شباب العروبة بما له من قوة جديدة، مع المشاركة فى عملية احتضار يهودية طائفته ذات الأصول القديمة؛ وذلك على غرار ورقتين من نفس الفرع، تنمو إحداهما وتزدهر بينما الأخرى تنكمش وتوشك على السقوط.

إن ولادة الطفل اليهودى فى مصر فى منتصف القرن يعنى انه لم يكن لديه الوقت

للاختيار، أى أن عليه أن يصل إلى سن البلوغ فى الغرب؛ وعندما يريد أن يفهم التاريخ فلا يمتلك سوى الكلمات، أى القصص التى يتداولها من هم أكبر منه الذين نضجوا فى الأرض الأم؛ وهى الكلمات التى تذوب ذاكرتها فى بطء.

كانت تلك الذاكرة جنينية فى البداية، وتعيد التشكيل بعيدا عن الحقيقة والصرامة السياسية لحضن مصر الأمومة؛ ولما كانت تلك الذاكرة شديدة الحساسية، فهى سوف تستعيد عطور وطعم الغذاء. سوف تلتقى من جديد فى الإسكندرية على الكورنيش بالدخان المنبعث من الذرة المشوية التى تقوم بتهويتها يد سمراء عربية؛ وسوف تحتفظ الذاكرة اليهودية بالصدارة ناصعة البياض التى كانت ترتديها الجارسونات فى محل الحلويات السويسرية، كما هو شأن الممرضات فى المستشفى الإسرائيلى حيث ولد الطفل اليهودى. على أن الولادات قد أصبحت نادرة فى هذا الدور الأول لقسم الولادة، حتى إنها اختفت اليوم. وتعود الذاكرة أيضا إلى رائحة المسك التى كانت تتعطر بها المرضعة النوبية بشفتيها الزرقاوين، وأسنانها المغطاة بالذهب. كما تتذكر صالون الشاى اليونانى - والكاثوليكى - الخارج عن العادة يوم عيد الغفران، عندما تعزف الفرقة الموسيقية لرواد هذا المكان الذين يجلسون أمام الموائد الخالية من أى طعام أو شراب. إنها أيام رمضان اللذيذة التى ينقلب الوقت فيها، وتسير الأيام فى بطء وهدوء، وحيث تصبح الليالى ممنوحة بمزيد من الأطعمة والمأكولات وشديدة الصخب.

وعلى قدر ما تكون عليه الذاكرة فى المنفى فى حالة من الالتباس والحنين إلى الماضى، فهى تتسم بالمضمون الأدبى وبالطابع الأسطورى. لاشك أن الذاكرة تتخلص بصعوبة من تلك الصور الصامتة ومن هذه الموجات المتتالية من الروائح. يتوقف الوقت، ويشبه تذكر الماضى القراءة السلسة لنص قد نسيت معناه.

إن التعددية المصرية تبقى مثل رد الفعل الطبيعى، غير أن العلاقات تتجمد، ويأتى التعبير عن الفروق بقوة جديدة فى فصول مدرسة الليسيه الفرنسية بالإسكندرية التى تتضمن أغلبية من المسلمين، إلى جانب مجموعات من الطلبة موزعة بين اليهود، واليونانيين، والأرمن.

وعندما تعود بنا الذاكرة إلى ما كان عليه الماضى من انسجام، فإن المعرفة الدقيقة عن الآخر لا تجعله مندهشا من غياب اليهود يوم عيد الغفران أو غياب المسيحيين فى

عيد الغطاس. كان من الطبيعى أن يستمع الطلبة إلى شرح أساتذتهم باللغة الإنجليزية المصحوبة بلكنة يونانية، وكذلك الاستماع إلى شرح الرياضيات الذى يعرضه عليهم معلمهم اليهودى بنبرة إيطالية نظرا لأصوله من مدينة «ليفورن».

كانت الحياة اليومية توفر للشبان اليهود - باعتبارهم آخر قلاع التبعية الطائفية - طفولة خاصة ومباركة، إلا أنها تتسم بمزيد من المحدودية. لابد أن تكون الإيديولوجية شديدة بل وعنيفة للوقوف ضد سلوكيات التسامح والتضامن الحميمة التى تعد موروثا بعيدا. سوف تبقى تلك التصرفات متدرجة ومتحفظة، حيث يتغير الصوت ليصبح قاسيا ومتصلبًا فى العلن، ويكون لينا ومتفهما فى الخاص. وهكذا فإنه على مرور هذا العقد الذى يفصل بين قسمى القرن، سوف تختنق بلا ضجيج الحياة اليهودية على ضفاف النيل، ثم تتوالى حالات الرحيل نهائيا على شكل ملحمات صغيرة فردية فى مواجهة رفض السلطات المصرية فى كل مرة فتح الحدود المصرية. سوف تغلق المعابد أبوابها، حيث لا تزال حتى اليوم أغطية الرؤوس وكتب الصلوات مكدسة فى البدرومات.

وإذا ظل الإنسان يؤكد بكل بساطة ودون إحراج على هويته اليهودية، فإنه ينطق بخشية كبيرة اسم إسرائيل، بل ويمتنع تمامًا عن ذلك. وأيا كان الحال، فإن دولة إسرائيل لا تشكل لذلك الجيل الأخير من اليهود المصريين سوى واقع مهتز وخيالى. إننا نعيش فى جهل قلق وفى عزلة أكيدة.

أما عن الإشاعات العربية، فهى تنطلق فى الخطب الرسمية التى يلقيها رئيس الدولة، حيث يقوم طلبة التاريخ باستذكارها واستعادتها بكل ورع وتقوى، ويتم كل صباح غناؤها مع تحية العلم المصرى، وذلك فى كافة مدارس البلاد. كما يجرى أيضا ترتيلها فى الجوامع كل جمعة ظهرًا مع الصلاة الأسبوعية الكبيرة، ويتم قراءتها وسردها فى كتب القراءة التى تشيد بالمقاومة العربية فى كل من الجزائر وفلسطين، وتنشد فى قصائد الشعر افتخارًا بالبطولة المصرية فى مواجهة الإمبريالية الغربية، والإسرائيلية. يظل تعظيم التاريخ العربى وما يحمله من آلام ومن انتصارات، كذلك شخصية عبد الناصر الكاريزمية، يشكل لدى الطفل اليهودى إغراء شديدا فى التماثل بالمصير الوطنى، وهو مع كونه مواطنا مصريا فإنه يرفض بأسلوبه الخاص وبالصعوبات التى تخصه الهوية الجديدة لبلده.

عندما تقوم الذاكرة اليهودية بشكل خاص بتفحص المعنى الذى تحمله تلك الإشاعة، سوف تحظى بدعم من التاريخ، ومن اللغة العربية ذاتها. فالجيل اليهودى لمنتصف القرن سوف يكون هو الأول والأخير الذى يتعلم اللغة العربية الفصحى بطريقة منهجية وعميقة. كان اليهود يتحدثون حتى الآن بتلك اللغة الشعبية الخاصة بهم، وهى اللغة «البلدى»، والتى كان من شأنها أن تكشفهم على الفور أمام مواطنيهم المسلمين.. إن تعمق الإنسان وهو لا يزال فى سن الشباب فى هياكل لغة الإسلام المقدسة، ودراسة نظم الشعر العربى، والتوصل إلى الخيال العربى الأشد أصالة، هو فى الواقع التنويه بعبقرية شعب والانتماء إليه فى الوقت الذى ترتسم فيه معالم الإقصاء، وتعد الحروب، ويتشكل أول خطوط النفى القريب والنسيان القاتل.

سوف تحتفظ الذاكرة بحفنة من الذكريات برغم الصمت الذى يسود طائفته. ومنها ممارسة الطقوس الدينية، والأعياد اليهودية. يتذكر الأطفال كيف كانوا يلعبون يوم عيد الغفران فى حدائق المعبد الكبير، ويشاهدون عبر النوافذ المفتوحة الصلوات العبرية التى يشبه بعضها صوت الحيوان المصاب بالجروح. إن اللغة العبرية والنصوص المقدسة تصبح لمن يحصل على التربية التقليدية المرجعية الأساسية فى تلك الأيام الأخيرة لعالم ينقضى، كما سيكون الأمر نفسه فى المنفى من أجل الحفاظ على تلك الاستمرارية التى دمرها وفتتها التاريخ. أما بالنسبة لآخرين من اليهود، فسوف تحتفظ الذاكرة بالوتيرة وبالتعايش الذى تطمئن له القلوب، والصدى الغامض لتاريخ آخر سيتعلمونه عبر البحار بعد انصراف الحنين إلى الماضى.

يعنى هذا للجميع وقفة أمام تبعثر وغموض مصيرهم المصرى؛ إنهم يشعرون فى بداية الستينيات من القرن العشرين، بحتمية واستحالة العودة عن خروجهم من البلاد. تتحول اللغة الفرنسية التى كانت حتى الآن لغة اللباقة والترف إلى مأوى وسلاح للبقاء على قيد الحياة. ولما كان «اليهودى من مصر» متمكن المعرفة باللغتين، فهو يعود مرة أخرى إلى القراءة والإطلاع. لقد انتقل إلى اللغة المكتوبة بعد أن كانت اللغة الشفهية هى التى تعبر بها عن نفسها المجموعة التى ينتمى إليها، وما كان يتميز به البلد الذى ولد فيه. إنه يسعى إلى بلورة ما لديه من ذكريات، والعمل بذلك على بناء أصوله التاريخية. لقد رأى بالتالى الانعكاس المضاد لتاريخه المصرى؛ كما لو كان قد انعكس فى المرآة شكل انتمائه التاريخى فى صورته الأصلية.



فرع حى لليهودية المصرية

القرائية

بقلم: چاك حاسون

تميز الشتات اليهودى المصرى عن كافة أنواع الشتات اليهودى الأخرى فى أنه تضمن أهالى من القرائين يتراوح عددهم بين ٧,٠٠٠ و ٩,٠٠٠ نسمة، أى ما يقرب من ٨٪ من مجموع اليهود فى البلاد.

يبدو أن القرائية قد تواجدت فى مصر منذ ظهور هذا التيار الذى تحول إلى انقسام فى القرن التاسع؛ وهناك ما يؤكد أن القرائين ـ فى عصر الجاعون سعادية الفيومى ـ كانوا يشكلون أغلبية اليهود فى مصر. ولما تضخم عددهم فيما بعد باللاجئين الوافدين من مدينة القدس ومن الرملة (أيام الحروب الصليبية)، عقدت تلك الطائفة علاقات حميمة مع الأوساط القرائية الأخرى فى كل من «هيت» (العراق)، واسطنبول، وبلاد القرم.

لقد تضامن القراؤون ـ مع عالم اليهود فى مصر، وبقوا فى الوقت نفسه منفصلين عنه، وساهموا فى حياة الطائفة من كافة الجوانب (فقد ساهموا بنشاط فى شراء العبيد اليهود بالإسكندرية)، ولكن ما ميزهم أنهم كانوا على الأخص يمثلون سلطة روحية ودنيوية ذات أهمية خاصة.

استطاع القراؤون ـ سواء كانوا وزراء أو تجارًا أو حرفيين (كانوا حتى القرن العشرين يحتكرون تقريبًا حرفة صناعة الصياغة) ـ الحفاظ على تماسكهم الداخلى بفضل ما كان لهم من ثقافة متميزة.

علينا أن نلاحظ أيضا أنهم على الدوام أحسنوا اللغة العبرية، ولم يقوموا بأى

خطوة فى اتجاه ترجمة صلواتهم إلى اللغة العربية على عكس اليهود الربانيين (هكذا كانت الطقوس المصرية لسعادية الفيومى). وقد اختصوا اللغة العربية فى وظيفة اللغة اللاهوتية.

كان يعيش القراؤون ـ الذين كان منهم العلماء فى قواعد اللغة العربية، والشعراء، والمتمكنون فى العلوم الدينية ـ سواء فى حارة اليهود القرائين بالقاهرة، أو فى الفسطاط (مصر القديمة) حول معبد «بن عزرا» الذى ظل منطقة نفوذهم طيلة ثلاثة قرون (كانوا يقبل وجودهم حتى القرن العشرين فى شهر «آذار» من كل سنة بمناسبة موسم الحج الخاص بهم، وهى المرة الوحيدة على مسار السنة التى تلتقى فيها الطائفتان على أرضية دينية ومؤسساتية).

جاءت بوادر انحلالهم النسبى بوصول «بن ميمون»، والموجات المتتالية من اليهود الذين جاءوا من إسبانيا وأحيوا أوضاع الربانيين فى مصر من خلال استعادة عبرانيتهم وأصولهم «السفارادية».

منذ ذلك الوقت، انكمش القراءون حول معابدهم ذات طابع العصور الوسطى بسبب اصطدامهم بمعاداة الربانيين، مما دفع القرائين إلى الانغلاق فى صرامة عقيدتهم، وفى ذكرى ما تمتعوا به من عظمة.

لقد اقتصر اتصالهم الوحيد بالعالم الخارجى على العلاقات الطقوسية والتجارية التى استطاعوا الحفاظ عليها مع زملائهم فى جزيرة القرم وفى «اسطنبول» (كان آخر كبار الحاخامين القرائين فى القاهرة وهو طوبيا بوبوفتش من القرم).

لقد تركوا حارة اليهود فى القرن العشرين، واستقروا فى جميع أنحاء القاهرة (كانت هناك بعض العائلات فقط التى استقرت فى الإسكندرية). وأقام القراؤون معبدًا جديدًا وكبيرًا فى شارع «سبيل الخازندار» فى حى العباسية على مسافة ليست بعيدة من القصر الملكى.

هذا هو الزمن الذى عاش فيه «داوود حسنى» الذى أعاد الحياة إلى الموسيقى العربية الأصيلة؛ كما شهد هذا العصر «مراد بك فرج» الشاعر، ورجل القانون الذى شارك فى تجديد أول دستور لمصر المستقلة، كما ألف عديدًا من الدواوين. وهناك عديد من القرائين الآخرين الذين قاموا بتعريف طائفتهم لمصر كلها.

واليوم تم هدم مدافنهم بالبساتين ـ التى تعود إلى قرون بعيدة ـ وتحول معبدهم المبنى على طراز العصور الوسطى إلى مصنع للنسيج اليدوى.

لقد انخفض عددهم حيث لم يتعد خمسة عشر نسمة، وهم يعيشون حول معبدهم الكبير بالعباسية الذى يحتوى على كنز لا مثيل له أى: «قانون بن أشير» وهى النسخة المستنسخة الأولى التى تعود إلى القرن العاشر من «أسفار موسى الخمسة». وتحمل تلك النسخة الأحرف المشكلة، وتمثل أهم مرجعية للمتخصصين فى قواعد اللغة، وللمنشغلين بالعبرانية، ولكل من يريد أن يعرف ما كانت عليه اللغة العبرية فى أصولها الأولى.. وسواء كان مؤلف تلك النسخة قرائيًا، أو كان المعبد القرائى هو الذى حافظ عليها، فهى من الأمور التى تنصف تلك الطائفة العظيمة التى لا تحظى بالاعتراف.

واقع التاريخ

هناك ثلاثون ألف نسمة تقريبا ينتمون اليوم للقرائية، وهم يتركزون فى موطنين سكانيين، وهما: الموطن السوفيتى (خاصة فى القرم وليتوانيا) والموطن الإسرائيلى (وهو الذى يضم قرائى مصر والعراق بالإضافة إلى المقر الفلسطينى القديم للقرائين) وكذلك فى تركيا[١] حيث لا تزال تعيش فى اسطنبول ذرية طائفة كانت فى الماضى ذات مقام كبير.

عاد القراؤون ـ الذين يمثلون أقلية ـ داخل أقلية بصورة مشهدية إلى النص الأول (دون الامتناع فى ذات الوقت عن القيام بتفسيره). وهم من منظرى الحرية، ممن لديهم شعور بالذنب، «والمتشحين بالسواد على صهيون»؛ كما أنهم كانوا أعداء متشددين لكل شكل من أشكال البيروقراطية. كان البعض يعتبرهم ـ خطأ ـ عبارة عن مجموعة من المتخلفين فى طريقهم إلى الانقراض[٢]. ومع ذلك، كان عددهم كبيرًا بما يكفى لإثارة اهتمام «ليون دى مودين»، وكذلك اهتمام المنظرين الإنجيليين على غرار «تريجلاند دى ليد»[٣] أو رحالة من الفرنسيين اليهود فى القرن التاسع عشر مثل «دافيد

(١) من المقدر أن ٦,٠٠٠ قرائى يعيشون فى مدينة «تروكى» (ليتوانيا) و ١٤,٠٠٠ فى القرم ومن ٩,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ فى إسرائيل.

(٢) يسترجع المؤرخون اليهود التقليديون تلك النظرية التى يرفضها بفزع جميع الحاخامين القرائين؛ إنهم مثل الحاخامين الربانيين يعتبرونهم كفارًا نظرا لرفضهم مفهوم خلود الروح.

(٣) انظر فى كتاب «دود مردخاى»: إجابات الحاخام القرائى «مردخاى كوكيزو» على أسئلة المنظر المسيحى «تريجلاند».

دولبوجيه» من مدينة «بوردو» (فرنسا)، وهو مؤلف كتيب بعنوان «يهود الإسكندرية ويافا والقدس فى ١٨٦٥». لقد كان عددهم بما يكفى لتهديد وجود اليهودية الربانية فى القدس خلال القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر. كما ينطبق الأمر نفسه بالنسبة للقرم حيث كانوا أغلبية كبيرة حتى القرن السادس عشر، وأيضا فى الإمبراطورية البيزنطية. ويمكن أيضا اعتبارهم منافسين فى مصر مع الربانيين من القرن التاسع وحتى القرن الخامس عشر (لقد عاشت فى مصر مجموعة من ٨,٠٠٠ قرائى حتى العام ١٩٥٦ قبل أن تقيم أغلبيتهم فى إسرائيل).

نحن نعلم اليوم أن القرائية تعود إلى المجموعات الأولى من الأسانيين، وإلى بعض مجموعات الفاريزيين الذين رفضوا منذ القرن الأول أن يوضع القانون الشفهى (التلمود) على نفس وضع القانون المكتوب (التوراة)، والذى كان يعد التعبير عن الكلمة الإلهية المحددة نهائيا؛ فلا يمكن أن يحل محلها القانون الشفهى إلى حد لويها، بحجة تقديم شرح لها وجعلها متوافقة مع الحياة الدنيوية. من هنا فإن القرائية التى انبثقت من الفاريزية قد تفجرت على هيئة عديد من المجموعات والانشقاقات، ثم توحدت القرائية فى بداية القرن العاشر برعاية «يعقوب أبو يوسف الكركشانى». وخلافا للأسطورة التى ترى أن القرائية قد تشكلت حول «عنان»، فلقد تأكد اليوم أن تيارا خفيا ذا أوجه مختلفة كان بالفعل موجودًا طيلة ما يقرب من سبعة قرون قبل أن يصبح انقسامًا. من المهم أن نؤكد هنا على أن شخصية «عنان هاناسى» لم تلعب أبدا الدور الأساسى الذى أراد المؤرخون التقليديون أن ينسبوه إليه. لم يكن هو صانع معجزات أو قائدًا كاريزميًا. لقد كان اسما تم استخدامه لفترة من الزمن ممثلاً ليهود بابل، وفلسطين، ومصر، أو بلاد الفرس، الذين كانوا يرفضون إعطاء طابع العصى للقانون الشفهى؛ من هنا يتضح أن القرائية لم تقم ممارستها أبدا على أنها ملة لغياب صورة الوجه القيادى على الدوام، ومن هنا نحن أمام دين يمتلك طابعه الخاص وله تماسكه الداخلى.

ولكن قبل معالجة تلك النقطة، يجدر بنا أن نعيد إلى الذاكرة بعض سمات تاريخ القرائية، والذى لا نعرف عنه سوى بعض الأجزاء فقط؛ فعلى سبيل المثال، نعلم أن القرائين عاشوا - بشكل عام - التاريخ نفسه الذى عاشه الربانيون من السراء والضراء، وأنهم لم يكن لهم وجود غرب مصر (على الرغم من أن هناك ما يؤكد وجود بعض المجموعات الصغيرة المقيمة فى تونس، والجزائر حول مدينة «بون»، وحتى فى إسبانيا

خلال الفترة الأولى من العصور الوسطى). يمكن القول أن القرائين لم يتحملوا سوى قدر قليل من الاضطهاد نظرا للمناطق التى كانوا يعيشون فيها فيما عدا فلسطين خلال الحرب الصليبية، حيث أبعد الآلاف منهم، وفى بولندا فى القرن السابع عشر.

وبهذه المناسبة لابد من الحديث عن أمر كان محل خلاف، وهو موقف القرائية الأوروبية خلال الحرب العالمية الثانية. من المؤكد أن النازيين لم يستطيعوا حتى ١٩٤٥ التقرير اذا ما كان القراءون ينتمون إلى «العرق اليهودى»؛ وبالتالى اتسم موقف القرائين فى القرم وبولندا بالترقب والسعى إلى البقاء على قيد الحياة. لم يكن هذا أكثر أو أقل مما حدث مع بعض الطوائف الأصلية فى أوروبا الغربية تجاه المهاجرين الجدد. ولم يكن دورهم يستوجب اللوم أكثر من مدعى اليهودية الأوروبيين (خاصة بالنظر إلى العداء الذى تحملوه من الربانيين طيلة قرون عدة)[١].

أما موقف القرائين الذى يسميهم -عن حق- البروفسور «فاجدا» «حزينى صهيون»[٢] إزاء الصهيونية السياسية، فقد كان متنوعا بشكل كبير. وبينما تشير «الموسوعة اليهودية» إلى أن قرائى تركيا لم يولوا اهتماما بـ«قضية الصهيونية»، وأنه لم يأت من الاتحاد السوفيتى سوى القليل من الصدى حول هذا الأمر، نجد أن كافة قرائى العراق قد هاجروا إلى إسرائيل فى الخمسينيات من القرن العشرين. كما كان هذا أيضا شأن القرائين من مصر.

علينا أن نتذكر أن القرائين فى مصر تحملوا كثيرا فى شخص الطبيب «موشى مرزوق» الذى تم إعدامه لقيامه بالتخريب لصالح إسرائيل[٣]. (يتوجب هنا الإشارة إلى انه لم يكن هناك عناصر صهيونية عديدة فى الطائفة القرائية فلم يذكر التاريخ سوى الطبيب «موشى مرزوق» الذى كان التأثير عليه أشد من قبل كبار الأطباء اليهود

(١) فى ٩ يناير ١٩٣٩ كانت وزارة الداخلية فى برلين تعلن «أن القرائين ليسوا يهودا نظرا لعدم امتلاكهم نفس السمات السيكولوجية التى للعرق اليهودى» ومع ذلك فقد استمر الجدل حول القضية القرائية فى صفوف النازيين حتى ١٩٤٤. لقد أكد كل من الحاخامين الربانيين «زليج كالمانوفتش» و«ماير بالابان» و«اسحق شيبر» انعدام اليهودية لدى القرائين (وكان ذلك على سبيل الإنسانية على حد ما جاء فى «الموسوعة اليهودية»).

(٢) وهكذا رفضوا خلال عديد من القرون تناول الطعام وشرب النبيذ علامة على الحزن؛ وكذلك فإن صلواتهم مرتين فى اليوم تتضمن سلسلة من الأناشيد وقصائد الشعر التى لا يتم تلاوتها عند الربانيين سوى فى يوم ٩ آب (وهو تاريخ هدم المعبد)..

(٣) تم إعدام موشى مرزوق مع عازار (وهو ربانى)، وقد كانا ضحيتين لما سمى فيما بعد بـ«قضية لافون».

الصهيونيين الوافدين إلى مصر، حيث كان يعمل معهم وتحت إشرافهم فى المستشفى اليهودى فى غمرة والذى أصبح بعد ذلك مستشفى القوات المسلحة ـ المترجم).

الشعائر القرائية

ولكن فلنعد إلى الظاهرة القرائية ذاتها.

يكتب «يهودا هاليفى» فى مؤلفه «سفر ها كوزارى»: «لا تنجـذب نحـو صـرامة القرائـين، ولا تفقد الشجاعة حين ترى تسيب الذين يسيرون وفق التقاليد، أى الربانيين، لأن الأولين يبحثون عن قلاع يحتمون فيها، بينما الآخرون يستريـحون على أسـرتهم فى مدينـة عتيقـة ومحصنة.. »(١).

تتيح لنا ملاءمة تلك الملاحظة ـ فيما يتعدى النكتة ـ أن ندرك الهوة التى تفصل بين الربانيين والقرائين؛ وعلى عكس ما يؤكد عليه «برنار لازار» (بقوله ان «القرائية تعنى الجمود، وأن التلمودية ـ على الرغم من عيوبها ـ قد أعادت إسرائيل إلى الحياة، بل وأنقذتها، وكان لابد أن تتحنط إذا ما توقفت مناقشة التلمود؛ بالضبط كما لم تنتج القرائية شيئا مع تشبثها بالنص الحرفى(٢)»). لقد أنتج الحاخامات القراءون عددا كبيرا للغاية من النصوص والتعليقات، على أن تلك المؤلفات تعبر عما أريد لها؛ أى أنها أعمال أدبية عقلانية، تتولى بعد ما يقرب من ألف سنة بعد «المنفى» وحتى القرن العشرين، النقطة التى وصل إليها تفكيرهم فى مواضع التوثيق التى يتوجب إدخالها على تعليمات «التوراة»، دون أن يتم مدها فى اتجاه أو آخر(٣).

---

(١) لقد تمت ترجمة «كتاب الكوزارى» إلى اللغة الفرنسية بعناية «م. فنتورا». من المهم أن نلاحظ أن «الكوزارى» يؤكد على النشاط المزدهر لدى الطوائف القرائية فى القرم. لقد قاموا بدور ملحوظ فى القرم على الصعيد الاجتماعى ـ والاقتصادى والثقافى (وعلى سبيل المثال إدخال فن الطباعة). فى القرن الرابع عشر، وجهت لقرائى القرم دعوة أمراء «ليتوانيا الكبرى» للإقامة فى مدن «تروكى» و«لوتز». لقد استخدم قراءو أوروبا الشرقية اللغة «اليهودية التترية» حتى بداية القرن العشرين وحافظوا حتى بداية هذا القرن على علاقاتهم بالطوائف فى كل من القرم والشرق العربى.

(٢) «برنار لازار» مؤلف كتاب «مدخنة أيوب».

(٣) من هنا نقرأ فى «بنى حاميكرا» وهى مجلة اليهود القرائين فى اسرائيل فى العدد رقم ٨ الصادر فى نوفمبر ديسمبر ١٩٧٤ بقلم «إلياهو دباح» فكرة أنه من المشروع اليوم، بل من الموصى به، ارتداء «التاليث» عند الصلاة ليلا، ذلك أن نص التوراة يقول.. «سوف نرى الأهداب..»، على أن النور الكهربائى الحالى يتيح الآن رؤية تلك الأهداب، وهو ما لم يكن عليه الحال عندما كانت الكنائس تضاء باستعمال الزيت أو الشموع. تكمن أهمية تلك الملاحظة فى أنها تقدم على هيئة التوصية، وأنها تستخرج من وضع جديد إمكانية مضاعفة الرهبانية.

لم يكن لتلك التعليقات سوى قيمة تفصيلية سواء على صعيد المكان أو الزمان[١].
ليس من الغريب أن نلاحظ أن الترتيبات التى أجراها كل من «أهارون نيكوميديو» أو «إلياهو باشيازى» بشأن مراعاة «الشباط»[٢] (وهى تلك الترتيبات التى كان من شأنها إتباع مواقف القرائين لمواقف الربانيين الأكثر صرامة) لم يتبناها قراءو مصر سوى فى القرن التاسع عشر؛ أى فى الوقت الذى وجدوا أنفسهم فى حاجة إلى بعض الليونة أصبحوا الآن مستعدين على تقبلها (فكان القراؤون المصريون يطبقون حرفيا حتى ذلك الحين التعاليم مثل «لن تخرج يوم السبت من منزلك» أو «لن يشعل فى بيتك هذا اليوم أى نار أو نور»)، وهو عنصر نموذجى لنسق متجانس، كما سنستخلص عنصرين آخرين على ذات المستوى من الدلالة.

أما العنصر الأول فهو يتمثل فى مكان الصلاة القرائية وأسلوبها. تتمثل خصوصية المكان فى أن اتجاهه لم يكن نحو القدس بل نحو الشمال الغربى، أى أن الأنظار تتجه نحو «ساحة المعبد الكبير».

ومما هو جدير بالملاحظة أن كل معبد من المعابد القرائية هو نسخة طبق الأصل مليئة بالعاطفة للمعبد الكبير، يتم فيه متابعة الشعائر نفسها؛ وهكذا، فإن المؤمن الذى يؤم قدس الأقداس وهو قد خلع حذاءه وركع، قد انتقل بذلك إلى «قدس الأقداس الأول». ليست الصلاة استعادة الماضى بل هى ابتهال ـ يتم بواسطة نص لم يمس بأى تغيير ـ لا يشبه الصلاة كما كانت تؤدى فى عصر المعبد الثانى فى القدس. كل شىء يسير فى الواقع كما لو كان هذا المعبد لم يتم هدمه. إن الرثاء والنواح الذى يجرى كل يوم تعبير عن البكاء على تدمير قدس الأقداس الأول.

ويتم عقد الصيام وكبح الشهوات فى التواريخ التى جرى فيها هدم المعبد الأول الذى يحمل ـ دون غيره ـ مكانة خاصة. ويذكرنا الركوع، والانحناء، والسجود،

(١) تلقى الملاحظة السابقة الضوء على هذا الجانب الطرفى للتعليقات القرائية التى يتم تبنيها ما لم تكن تتوافق مع رأى الأغلبية الكبرى وبشرط احترام القاعدة التى وضعها «عزراها كوهين ها سوفير» (القسيس الكاتب) وهى تقول «وهكذا فإن القانون موضوع أمامك؛ لن تبتعد عن طريقه، ولن تضيف أو تحذف أى علامة من النص..» وهى العبارة التى يرددها بانتظام جميع الحاخامين القرائين.

(٢) قارن فى هذا الشأن مع قاله فى القرن الخامس عشر الحاخام القرائى «أديريث إلياهو» الذى ولد فى مدينة «اندرينبل» وعاش فى «اسطنبول»، إنه أول من جعل العادات القرائية أكثر مرونة، وهو مؤسس لسلالة من الحاخامين القرائين.

والجلوس على الأرض، بالصلاة كما كانت تؤدى غداة «المنفى الأول» أيام الكاتب عزرا الذى يعتبر فى هذا المقام من أكبر كبار اليهودية. ولذلك فإن التوراة التى كان هو أول من قام بتجميعها هى التى تحكم حياة تلك الطوائف.

وعلى نفس الوضع لم تكن الملحمة المكابية التى اعتبرت عملًا من أعمال البطولة محلا لأى احتفال كما هو الحال عند الربانيين (عيد الحانوكاه)؛ فهى غائبة من سلسلة الاحتفالات السنوية لأنها لم تكن مذكورة فى التوراة؛ فهذا العيد يتعلق بمرحلة المعبد الثانى، الذى تعتبره الأساطير القرائية مجرد إعادة ترميم وإنتاج للمعبد الأول، مما لا يضفى عليه احتراما يفوق ذلك الذى يكنونه للمعابد الحالية.

هناك جانبان من الصلاة يستحقان الذكر. الجانب الأول يتعلق بالشال الذى يجرى ارتداؤه عند أداء الصلاة (التاليث)، وهو ما يعد ملزما، ويجب أن يتضمن شراشيب يتخللها خيط أزرق وفقا لتعاليم الوصية؛ وهو التقليد الذى انتهى تماما عند الربانيين. وعلى العكس من ذلك، فإن الأحجبة (التفيلين) تعتبر غير ضرورية عند القرائين. فهى تعبير عن توصية مجازية؛ لماذا الارتباط بتلك الأحزمة والعلب التى لا تحتوى سوى على ورق مبتور ليس به إلا جزء من النص المقدس بينما «النص» قاطع فى هذا الأمر، حيث يقول: «سوف تحفظ فى قلبك وبين عيونك كامل الوصايا الصادرة عنى». وبالتالى فإن «التفيلين» هو مجرد رمز ـ فى آخر الأمر ـ لتلك الأنواع من السحق التى يمارسها الربانيون على «التوراة»؛ يرى الأساتذة القراءون أن تحويل النوايا والإيمان إلى أشياء مادية ليس مظهرية وتمثيلا. وتصبح الأحجبة لا حاجة إليها، ومربكة، وهى فى ملخص القول علامة للتأليه نابع من وحى ربانى متخلف.

أما الطابع الخاص الآخر للصلاة فهو يتمثل فى أن تلك الصلاة تؤدى مرتين يوميا، وتجرى على نفس النمط. ومهما كان طول النص الذى يقرأ (حيث يمكن للقرائى إذا كان منفردا الاكتفاء بأداء الصلاة فى بضعة سطور لأن الصلاة الجماعية وحدها هى التى تعتبر رسمية وكاملة، ومن هنا فإن الصلاة التى يؤديها الشخص منفردًا هى بكل بساطة مجرد التأكيد على عقيدته وارتباطه الدينى)، فإنه من الضرورى أن تتضمن الشعائر «المديح، والإقرار بنعم الله، والاعتراف بالخطايا، والابتهال، والشكوى، والصراخ، والتلاوة راكعا»، على أن يتم ذلك فى نفس الترتيب. ولذلك فإن المرجعية

تكون إلى منفى بابل (تلاوة ترنيمة «على ضفاف نهر بابل....»). كما ينبغى أن يذكر مرتين فى اليوم حزن الانفصال، والخلاص «التى يحملها ابن داوود».

وهناك عنصر آخر قد يعيننا على فهم التجانس الداخلى للقرائية وخصوصيتها. يتمثل هذا العنصر فى التعقيد المتناهى للقوانين التى تحكم قرابة العصب، حيث يفوق تعدد المحظورات التوراتية، كما تحظر بشدة أى أشكال من زواج المحارم أو الاختلاط الشنيع.

وعلى النقيض من ذلك، يجهل القراؤون قانون الربانيين الذى يحظر نوعًا آخر من الاختلاط، أى الأطعمة التى تتضمن اللحوم والألبان؛ وهو الحظر القائم على مقولة «لا يجب أن يجرى طبخ الجدى فى لبن أمه...». يقول الأساتذة القراؤون إنه ينبغى فهم هذا الأمر على ما هو عليه، أى أنه حظر يتعلق بعمل وحشى خاص بالجدى وأمه دون أى شىء آخر. وبالتالى، فإن كل الفوكلور الذى يحيط بتلك الوصية لا طائل من ورائه، أو أنه يتعلق بشىء غير مذكور لا يعنينا. وإذا ما تنبهنا من جهة إلى التشدد الفائق الذى يوليه القراءون فى تطبيق القوانين التوراتية ومن جهة أخرى ـ وهو ما يشير إليه بحق «جان سولير» ـ[1] فإن واقع تلك الخشية فى خلط الطعام تعود أساسًا إلى تضخيم الاختلافات والى ترميز يتعلق بالعلاقات الجنسية المحرمة («لن نضع فى نفس الحلة ولا فى نفس السرير الابن وأمه»)، فإننا ندرك من هنا التسامحية النسبية للربانيين فى موضوع الاختلاطات الزيجية إلى حد اشتباكه بالخشية الخرافية إزاء خلط الطعام.. ندرك أيضا أن ما لا يتم ترميزه عند القرائية يعود إلى الرفض المتعمد عن التخلى عن صلب النص، فى رغبة عنيدة للتمسك بحرفية النص الذى يضع القرائى فى «هنا والآن» بالنسبة لـ«مكان آخر وقبلا»، يكون هو ضامنه المطلق.

دين وليس ملة

لما كان القرائى من الأتقياء، والزاهدين، ويحمل على الدوام الحزن على صهيون، والمتهرب من الملذات حتى وإن كانت شرعية، ويضاعف الصيام والصلوات الليلية والتعبير عن الندم، ويصر على أن تكون تحركاته الروحية والمادية القابلة إلى إعادة

(١) كتاب «الرموز عن الطعام فى التوراة» مقال بقلم «جان سولير» فى مجلة «الحوليات» يوليو-اغسطس ١٩٧٣.

التفسير بحرية بشرط ألا تتناقض الإضافة الجديدة مع النص الأصلى بل تثريه، فإنه لا يضفى أية قيمة للتصوف الشخصى، ولا يعطى أى مكانة للقائد الذى يبشر بحقيقة قد تم بالفعل إظهارها؛ فهو عضو للبقية المحدودة من «شعب الله» الذى يعتمد عليه «يوم الخلاص».

ذلك أنه إذا كانت كلمة الدين تعبر فى النهاية عن مفهوم العبادة الذى يعـود إلى ماضٍ قد انفلت من زمانه ويمتد من جيل إلى آخر، وإذا كانت كلمة الدين ترجع اشتقاقيا إلى مفاهيم القراءة والعلاقة المتجددة[1]، فإننا نستطيع أن نؤكد على أن القرائية ـ فى الاحتمال الأكبر ـ أكثر اقترابا من المعنى الذى يمكن أن نضفيه اليوم على عبارة «دين اليهودية ذو القراءة النصية»[2].

الشتات القرائى الحالى

لقد اقتلع القراؤون من جذورهم المصرية (القاهرة) والعراقية (حيث كان يعيش ما يقرب من مائة قرائى)، وتجمع اليوم فى إسرائيل ١٠,٠٠٠ قرائى. لقد استقروا فى «أشدود» و«الرملة» (مقر الحاخامية القرائية الكبرى) و«بير شيفا»؛ وهم يمارسون جملة النشاطات الحرفية التى اختصوا بها منذ قديم الزمان (خاصة الصياغة)، أو أخذوا يعملون فى الزراعة فى بعض «الموشافيم» (وهى قرى تطبق القواعد التعاونية وليس الجماعية). ولما كانوا قد اندمجوا جيدا فى المجتمع الإسرائيلى، فقد حصلوا على استقلالية نسبية (فتم الاعتراف بهم منذ عشر سنوات كمجموعة قائمة من قبل السلطات العلمانية والدينية، وأصبحوا مؤهلين بالتالى بإصدار المستندات الخاصة بالحياة المدنية وفقا لشعائرهم، أى الزواج والطلاق والدفن..). إنهم ينشطون الآن فى عملية تجميع المخطوطات التى ما زالت مبعثرة، وإعادة نشر المؤلفات التى نفذت اليوم، وكذلك تسجيل صلاوات الشعائر اليومية، ويعملون على إعادة إحياء القرائية التى أخذت تزول فى المناطق الأخرى من العالم.

لم نحصل على أيه معلومات عن حياة القرائين اليومية فى الاتحاد السوفيتى بينما

(١) انظر «قاموس روبير» تحت كلمة «الدين».

(٢) «مويز فنتورا» الحاخام الأكبر للإسكندرية سابقا يطلق على القرائين كلمة «النصيين»..

تشير «الموسوعة اليهودية» إلى وجود ٦,٠٠٠ قرائى فى مقاطعة «تروكى» فى ليتوانيا، ولكنها تقدم إحصاءات متناقضة حول الذين يعيشون فى القرم ويبلغون ١٤,٠٠٠ نسمة وفقا للمصادر الإسرائيلية حيث يمتلكون الآن معبدين.

يعيش فى سويسرا وفى الولايات المتحدة الأمريكية بضع مئات من القرائين الذين شاركوا الشتات اليهودى فى المصير الاجتماعى ـ الاقتصادى؛ وتضم الجالية القرائية فى فرنسا حوالى ١٠٠ إلى ١٥٠ منهم، ويبدو أن الهجرة الأولى التى أتت من ليتوانيا ومن مدينة «سان بترسبورج» (روسيا) والتى استقرت فى باريس بعد عام ١٩١٧ هى الآن فى حالة انقراض. إن آخر الوافدين القرائين والذين من أصول تركية أو مصرية هم دون غيرهم الذين يحافظون على قدر من الطقوس الاجتماعية ـ الدينية، ويحضرون الشعائر الدينية (الخاصة) فى الأعياد الكبرى (يوم كيبور) التى يديرها أحد المؤمنين القادمين من مصر. على أن ميلهم للانخراط فى اليهودية صاحبة الأغلبية يجعل على المدى الطويل استمرارهم فى الوجود مشكوكًا فيه بقدر كبير.

هل جاء الوقت لتوجيه التحية للقرائية لكل ما أحدثته من إنعاش ليهودية العصور الوسطى فى البحر الأبيض المتوسط؟ قد يكون هذا صحيحا بشرط ألا يأخذ صورة أداء الواجب الأخير، أو كمظهر لأبوية غير لائقة. إن القرائية المجهولة تمامًا فى أوروبا الغربية، والتى تكافح فى الشرق الأوسط وفى روسيا القديمة، لم تدخل بعد متحف التاريخ. ومن الواجب اليوم إعطاؤها المكانة التى تستحقها والتى تتمثل فى كونها فرعًا رائعًا وحيويًا من الديانة اليهودية.



أحداث الحياة اليومية

بقلم: چاك حاسون

ترك مصر دون أمل فى العودة ٩٠,٠٠٠ يهودى ربانى و٨,٠٠٠ يهودى قرائى.. إن الأرقام تتكلم وتعلن عن انقضاء مجموعة من البشر كانت متجذرة فى أرض، أو مدينة، أو حى، أو بلدة صغيرة. ومع ذلك فإننا نرى فى كل مكان من العالم فى «ملبورن»، و«برمنجهام»، و«لوزان»، و«هولون»، و«باريس»، و«ميلانو»، و«بروكسل»، من هم كبار السن والأصغر منهم قليلًا وحتى من الشباب البالغ الذين يقولون عن أنفسهم إنهم يهود مصر، أو يهود مصريون، أو يهود وافدون من مصر.

يتضح هذا الإصرار بما احتفظ به هؤلاء اليهود من عادات تتصل بالشعائر الدينية، أو بأنواع الطعام، أو أسلوب استعمال اللغة، وخاصة فى الحنين العميق نحو البلد الذى ولدوا فيه وافتقدوه؛ وتصبح أغانيهم لا معنى لها ما لم تكن مغلفة بالموسيقى العربية؛ كما أن طعامهم لا طعم له ما لم يقارن بالفول المدمس والعدس حين كانوا يتوجهون فى منحنى إحدى الحارات المعبقة برائحة البقول، والبهارات، إلى جانب رائحة المجارى النتنة.

كيف يمكن كتابة تلك الأحداث باللغة الفرنسية ؟

كيف يمكن مشاهدة تلك الحلوى الغريبة التى يصنعونها، منفصلة عن المحلات الكبرى لجميع المثلجات فى كل من القاهرة والإسكندرية، وكيف يمكن تذوقها بينما تحتفظ الذاكرة بصعوبة بالحركة التى يقوم بها صانع «الكنافة».

يظل هذا الحرفى واقفًا أمام الصينية الصفيح المستديرة وهى ساخنة تمامًا وهو ممسك بيده وعاء تخترقه عشرات الثقوب الصغيرة للغاية، وهو ملىء بعجينة الخبز السائلة التى تتطاير فوق الصفيح الساخن، فيجمعها على هيئة حزمة مرنة ليضعها على قطعة قماش ناصعة.

هكذا فإن تذوق الكنافة المخلوطة ـ أو غير المخلوطة ـ بماء الزهر، المحشوة ـ أو غير المحشوة ـ باللوز المهروس جيدًا والممزوجة بالعسل أو بالماء المسكر، لا يمكن فصله عن الحركة التى يقوم بها هذا الحرفى بيده، ولا عن نظرات المارة المتسكعين، أو الموسيقى التى تذيع آيات القرآن (الكريم)، أو أغنيات الحب الولهان التى تحتوى على شربات يفوق الشربات نفسه.

وعلى غرار الإنجليز الذين يميزون لغويا بين نوعين من الخنازير، أو فيما بين الخروف والجدى، فإن اليهودى الذى كان قد تلقى تربيته فى مصر والتقى بتلك الحلويات بعد فترة طويلة من الزمن تحت مسمى «القطائف» أو «تريجونا» لن يستطيع على الإطلاق الفصل بينها وبين تلك الحركة التى يقوم بها هذا الحرفى عند إعداد هذه الحلويات.

تظهر هنا استحالة الكتابة فى الصعوبة التى تعترض محاولتنا لنقل تلك الصورة التى لا تزال محفورة فى ذاكرتنا، وهى الصعوبة الكامنة فى ذات مشروعنا.

جدير بالملاحظة أن الكتابة عن يهود مصر وعن حياتهم اليومية وعن تاريخهم من شأنها أن تبرز أمام القارئ بعض نقاط الالتقاء بين يهود مصر، واليهود فى كل من المغرب أو العراق، أو يهود الالزاس أو جاليسيا، مهما كان يبدو ذلك غريبًا ومفارقًا.

ومع ذلك فإن «يهود مصر» تعنى بالنسبة لنا تعبيرًا عن مجموعة من الأمور التى لا يمكن أن نحذف منها أى عنصر دون أن نجعل العمل الذى نقوم به باطلًا وتافهًا. ليس معنى ذلك أن نتحلى بثياب تمايز غير لائق، بل نرى من واجبنا أن نفرد جزءًا بعد آخر لسيرة ذاكرة وتاريخ قد ترك منسيًا لمدة طويلة فى أوراق «الجنيزة» التى امتلأت بتراب الماضى المحتضر؛ إنه ماض أصبح فريسة للحنين أو ـ ما هو أسوأ من ذلك ـ فريسة الباحثين والمتخصصين فى العصور الوسطى أو الاثنيات الذين يميلون أحيانًا إلى نسيان أن الذين عاشوا أو كتبوا هذا التاريخ هم لا يزالون من الأحياء.

فلنأخذ مثالًا، فهذا الحرفى الذى يعمل فى صناعة الحلوى ويمارس عمله نهارًا تحت الشمس المحرقة، وليلًا على ضوء اللمبة الغاز. إن هذا الحرفى مرسومة صورته هنا باللغة الفرنسية، وهو ما قد يثير لدى القارئ صورًا متناقضة لديه وفقا لتاريخه الخاص وتخيله الشخصى. إلا أن المؤلف الذى رأى هذا الشخص وهو يقوم بعمله، رأى فيما بعد فى بلاد أخرى بائعى الكستناء، أو الفطائر، أو غزل البنات. إن مجاراة تلك الصور بعضها ببعض لا تضمن على الاطلاق حقيقة الوصف المستند إلى تذكر الماضى؛ وهو الذى لا يمكن أن يتحلى بكل ما له من معنى سوى للذى أخذ يلاحظ هذا الحرفى، واستمع إلى الموسيقى التى تحيط به من كل جانب، واشتم الرائحة التى تفوح من معروضاته.. كل ذلك يبرز على خلفية الوجوه المألوفة، والأصوات المعروفة، والازدحام المعهود.

وعلى المنوال نفسه تكون اللغة وبنيتها، وكذلك الشعائر وفتنتها، والألف عادة البسيطة، ومئات من اللزمات التى تجعل اليهودى المصرى يتعرف فورًا على اليهودى المصرى الآخر.

ألم يتم «تعريب» اللغة العبرانية وهى لغة العبادة؟ وهى أيضًا الوحيدة التى كانت تقرأ بجانب اللغة العربية من الأغلبية الكبرى من اليهود المصريين حتى ١٩٥٦. كان الحرف «ثلاثة» ينطق مثل الصاد العربية وليس الـ «اذ» كما ينطقه غالبية اليهود. والـ «ج» كانت تنطق على طريقة العرب. وبالتالى، حينما سيكون علىَّ الإشارة إلى كلمات أو مناسبات عبرانية، سوف تشكل هذه اللغة خلفية المشهد.

هنا سوف يستند الخط إلى عادة شفهية، أو كلمة، أو أغنية، لا يمكن فصلها عن البيئة المحيطة العربية ـ الإسلامية ـ المصرية.

خلاصة القول، لم يكن اليهودى المصرى مهاجرًا؛ لم يكن يهوديًا يعيش فى مصر. لقد أصبح مؤخرا فقط يهوديا من مصر، بعد أن واجه الدولة، ومفهوم الدولة، والدولة المصرية، ودولة إسرائيل، والدولة الأوروبية؛ أى أصبح يهوديا على وشك السفر، أو الذهاب إلى المنفى.

سوف نقدم وصفًا عنه الآن فى الوضع الثنائى فيما بين التجذر والاقتلاع.

المتسول بشارع التتويج

يمكن أن نقدم صورة أولية مأساوية لهذا الخلط فى الوضع، أى وضع المتسول اليهودى بشارع التتويج فى الإسكندرية؛ وهو الذى التهم الرمد الحبيبى (التراخوما) عيونه. لأنه يرتدى على رأسه المحاطة بلحية مشعثة طربوشًا أبيض اللون بفعل العرق، وأسود بسبب الاتساخ. إنه يرتل مثل المسلمين: الله، الله. وقد تلطخ جلبابه الأبيض ببقع جميع الوجبات والجدران التى تعرفت عليها على مدى فترة طويلة من الزمن؛ إلا أن هناك شيئًا دقيقًا يميزه بشكل خاص، فهو يرتدى سترة على جلبابه، ويلبس فى قدمه حذاء قديمًا خاليًا منذ زمن من أى رباط. إنه لا يسير فى الطريق حافى القدمين على غرار إخوانه المتسولين المسلمين. إنه معروف خير معرفة فهو «سليمان» أو «عبد الله اليهودى».

هناك أيضًا صورة أخرى تضاف إلى صورة عبد الله اليهودى، إنها صورة امرأتين مسنتين، متحجرتين بسبب البدانة، إحداهما فاقدة للبصر والأخرى عوراء. يدور الحديث بينهما باللغة العربية، وهن يجلسن على الأرض على خطوات من باب المنزل الذى تقيمان فيه. إحداهن تنادى على الأخرى: «يا زهرة، متى ستتوقف همومنا والمصائب التى تحيط بنا والأمراض التى تصيبنا؟» عندئذ ترد عليها المرأة الأخرى بصوت خافت وأخنف «فى الآخرة». إنهما ترتديان فساتين طويلة سوداء اللون وبالية تمامًا. لسن محجبات كما لم تكن المسلمات محجبات حتى الخمسينيات من القرن العشرين. إحداهما ترتدى الزى التقليدى ليهوديات مصر «الحبرة»؛ وهى عبارة عن قطعة كبيرة من القماش يغطى الرأس ويشبك على الصدر ثم يربط فى الظهر؛ أما المرأة الأخرى، فهى تضع على رأسها منديلًا أسود اللون. يجرى هذا المشهد فى حارة اليهود بالقاهرة، وهو حى متسع للغاية يقع فى «باب زويلة» على بعد بضعة أمتار من جامعة الأزهر الإسلامية. نحن الآن فى العام ١٩٥٤ أمام محل الحانوتى «أشير»، ونرى رجلًا يسير فى الشارع ذهابًا وإيابًا مرتديًا سروالًا طويلًا، وصديريًا، ويغطى جسمه بـ«التاليث»، كما يحمل «التفيلين». إنه ينهى التواشيح التقليدية المضافة على صلوات الصباح، وهو يلقى نظرة سخرية على هذا المشهد الذى ينظر إليه أيضًا اثنان من الشبان يقومان بزيارتهما الأولى إلى «حارة اليهود». إنهما يقيمان بالإسكندرية، حيث يتلقيان العلم فى مدرسة فرنسية علمانية، ويهودية، يمولها المحفل الماسونى «بنى بريث».

ويحمل هذان الشابان فى أيديهما كتاب «طرق الحرية» للمؤلف «سارتر» الذى قد صدر على التو. ما هو مصيرهما فى هذا العالم الذى هبطا عليه؟ ما الذى يفعلانه فى هذا المطعم الشعبى حيث الوجبة مقابل ٤ قروش، وهى مكونة من الأرز والخضار بكميات مفتوحة. وهو ما يدعو أحدهما إلى القول ـ بطريقة غير عادلة ـ «نأكل كاشير وينتهى بنا الأمر عند أشير». ومما يلاحظ أن الذى يقول تلك النكتة وصديقه الذى يستمع إليها هما من عائلات ناطقة باللغة العربية وينتمون إلى وسط شديد الأرذوكسية (أى الأصالة والتشدد) كما يقال عن ذلك فى فرنسا.

يحيا إيطاليا

يوجد مقهى «جداليا» على بعد أمتار من هذا المطعم، وهو مقهى له تاريخ. كان يجتمع فيه العاطلون من «الحارة» أملًا فى إيجاد عمل؛ فقد يكون الأثرياء بحاجة إلى من يساعدهم على نقل مستلزماتهم من مسكن لآخر، وقد يدعوهم أحد «الخواجات» اليهود ـ إشفاقا منه ـ إلى تناول «الصعودية» (وليمة). وقد نشهد عندئذ هؤلاء العاطلين وهم يجرجرون أقدامهم، وكل أنواع البؤس التى يعيشونها ويذهبون مرتدين الجلباب نحو الأحياء الجميلة حتى يصلوا إلى فيلات المعادى أو جاردن سيتى حيث يقدم لهم الطعام بكل تعجرف. سوف يكون من حظهم تناول تلك الوجبات من الطعام ثلاث أو أربع مرات طوال حياتهم، بل يمكنهم أن يحملوا معهم ما تبقى من الطعام. ليس المطلوب منهم سوى التواجد الملىء بالمعانى ذات الصبغة الدينية. كيف يعيش هؤلاء العاطلون؟ هذا الأمر لا يعنى كثيرًا مضيفيهم؛ وهم مع ذلك يمثلون معيار النجاح الذى حققوه، ويمنحونهم القدرة على تقدير المسافة التى تفصلهم عن حارة اليهود التى تركها أجدادهم دون عودة، ما لم يكن لتوزيع بعض الصدقات مع الإعلان عنها بصوت عال فى الميدان العام. ويتركون مهمة توزيع تلك الصدقات بقدر كبير من الكتمان إلى اليهود الأتقياء وإلى اليهود الذين أبقوا على بعض العلاقات العاطفية مع هذا الشعب الذى يعيش فى حالة من البؤس والذين كانوا هم جزءا منهم.

تنطلق من مقهى «جداليا» كافة الأخبار الحسنة أو السيئة، وكذلك الشائعات الغريبة حقًا، والحكايات على شاكلة قصص ألف ليلة وليلة، وذلك على صعيد القاهرة بأسرها. كما جاء إلى علم قنصل إيطاليا الفاشية عام ١٩٣٨ بأن المارشال «بادوجليو»

سوف يحضر بنفسه للتفتيش على التشكيلات العسكرية. وهى لم تكن لها أى وجود سوى على الورق، أو أنه قد جرى تضخيم عدد أفرادها لأسباب مالية تتعلق بالقنصل شخصيًا. فتحدث هذا الأخير إلى أحد أصدقائه الحميمين من الذين يمارسون أعمالاً مشكوكًا فيها، والذى يوحى إليه الفكرة المبتكرة بأن يقوم المدعو «جداليا» بتجنيد بعض «القمصان السوداء» فيما بين العاطلين الذين يصلحون لأداء تلك المهمة، بشرط الاكتفاء بمطالبتهم بأن يظهروا يوم التفتيش بصورة ذكية وصامتة. وهكذا تمت دعوة العاطلين ممن فى حارة اليهود للحضور فى القنصلية الإيطالية التى كانوا يجهلون مجرد وجودها. حيث توزع عليهم جوازات سفر إيطالية، كما تعرض عليهم بعض الملابس التى يرحبون بها. إن القميص الذى يصرف لهم أسود اللون.. هؤلاء الإيطاليون حقا ذوو أطوار غريبة، ولكن يمكن فيما بعد صبغ هذا القميص أو حتى بيعه.

أما الآن فكل ما فى الأمر هو الاستفادة من القميص، كما تجرى الاستفادة من الطعام الذى يوزع عليهم، وتلك القروش القليلة التى تصرف لهم لأسباب غامضة. يجرى تدريبهم على الهتاف بصوت عال «يحيا إيطاليا». ولِمَ لا؟ كما يجرى أيضًا تدريبهم على السير بطريقة عسكرية.

يأتى اليوم المحدد الذى ينقضى بأكبر قدر من الإعجاب والرضا لدى كل من «بادوجليو»، والقنصل، وأصحاب القمصان السوداء ليوم واحد، وكذلك «جداليا». على أنهم يفاجأون غداة هذا المشهد العسكرى بأنه تمت دعوتهم للحضور فى القنصلية حيث يستمعون إلى خطبة عجيبة حقًا: عليهم أن يذهبوا إلى الحبشة للكفاح من أجل إيطاليا العظمى؛ وعليهم التوجه فى الأسبوع التالى بعتادهم إلى باب الحديد. هنا يتحول الشك إلى اليقين، ومن ثمة إلى الغضب. وهنا ترتفع الدعوات ضد «جداليا»، ويتم فى الوقت نفسه نهب محتويات المقهى، وتخريبه وقلبه رأسًا على عقب.

ومن هنا فإنهم فى ١٩٤٥ عند اعتبارهم الأبطال الهاربين من الجندية الفاشية، تمنح لهم الجنسية الإيطالية التى تتيح للبعض منهم تفادى المصير المشترك البائس. وهو ما سمح لهم أيضا ـ لكونهم مواطنى دولة صديقة ـ تأجيل سفرهم من مصر لمدة عقد إضافى حتى ١٩٥٦، وكذلك تفادى الذهاب إلى إسرائيل كما كان يحدث لمن هم دون جنسية. وسوف يهاجرون فيما بعد إلى أمريكا أو إيطاليا باعتبارهم مواطنين إيطاليين من سلسلة نسب عجيبة.

إنها فعلًا قصة لا مثيل لها تلك التى تتم فى مصر فى حصول عدد غير قليل من السكان على الجنسيات وجوازات السفر، ويجرى ذلك فى غياب كامل للوعى، وباستهتار لا مثيل له، وبأقصى درجات السخرية.

ومع ذلك فإن هذين الشابين المهتمين بقراءة كتب «سارتر» على جهل تام بهذه القصة. إنهما قد انتهيا على الفور من تناول قهوتهما «المظبوطة»، والذى قام بتقديمها لهما صاحب المقهى الذى يقع بجوار محلات «أشير». كما يلقيان النظر على تلك المرأة العجوز الفاقدة للبصر وما تعرضه من سلع للبيع على مسافة بضعة أمتار، وهى تصيح بنبرة غنائية «بوريك»، «بوريك».

تعيش الحارة على وتيرة تلك الأغانى، وتلك الأسئلة التى لا جواب عليها، وهؤلاء السماسرة المتأخرون دائما فى أعمالهم الساعية إلى ضمان تناول الغذاء فى اليوم القادم، وكذلك هؤلاء الحرفيون غير المعترف بهم على الإطلاق، وأيضًا هؤلاء «القباليون» (العلماء بباطن التوراة ـ المترجم) والذين سوف يتجاهلهم العالم على الدوام، وهؤلاء المعارضون بالأمس لحكام الطائفة وأصبحوا اليوم أعضاء فى مختلف الأحزاب الشيوعية أو فى مجموعات الدفاع عن النفس التى تم تشكيلها لتفادى الهجمات النادرة التى يحاول الإخوان المسلمون شنها ضد حارة اليهود.

إن هذين الشابين ـ من أنصار ستالين وسارتر ـ يعلمان ذلك تماما؛ إنهما يعرفان خير معرفة أنه توجد أقسام قوية للحركات الشيوعية المصرية، ومن بين أعضائها بعض المناضلين الذين اهتدوا إلى الإسلام حتى يكونوا على اقتراب أكبر بالشعب المصرى. نعم أنهم يتحدثون عن ذلك، بعد أن قررا بلا تبصر أن «سلانسكى» الخائن يستحق الموت بالتأكيد.

على أن «أم كلثوم» تعود بهما دائمًا إلى الحارة، حيث يجدون كل شىء فيها مألوفا وفى ذات الوقت غريبا.

ينظر هذان الشابان إلى «ماريا» المجنونة وهى ترقص، علمًا بأنها تقيم فى المركز الاجتماعى اليهودى؛ وهى مَنْ تُدْخِل البهجة إلى قلب أهل الحى الذين يعتبرونها جالبة للحظ.

ينظران أيضا إلى العملاق «جولورس» الذى يعمل عربجيا،ويبلغ وزنه ١٢٠ كيلو

جرامًا وهو قادر على أن يحمل على ظهره خزائن حديدية وزنها ٢٠٠ كيلو جرام. ويقال إنه كان الوحيد من كل الحارة الذى من مهمته عمليات النقل الخاصة بتوكيلات بيع الخزائن الحديدية.

يسمع هذان الشابان من خلال أحد الشبابيك المفتوحة الأنغام الموسيقية المستمدة من قصيدة تمت صياغتها بحب. تمامًا كما قام بذلك قبلًا أحد الملحنين واسمه «زكى مراد»، والد المطربة «ليلى مراد»؛ كما يريان موظفى الطائفة وهم يسيرون ذهابًا وإيابًا، والإخصائيات الاجتماعيات المتوجهات نحو المركز والعيادة الطبية، والمتسولين والعاطلين المصطفين فى صفوف طويلة، والذين لا يكتفون على الدوام بالتعبير عن بؤسهم، إذ يأخذون فى التحرك وأحيانًا بقدر من الشدة.

فى خدمة الشعب

وهكذا فإن إحدى الجمعيات التى كانت موجودة آنذاك باسم «جمعية نهضة الثقافة اليهودية»، ومقرها حارة اليهود، قامت بتوزيع المنشور التالى باللغة العربية الدارجة:

نهضة الأمة اليهودية

«أبدأ بذكر اسم الله الأعظم»

«أيها السادة

نحن الآن نواجه حالة حرجة لأننا لم نقم بتعليم وتربية أولادنا وخاصة الفقراء منهم؛ ويعود السبب فى ذلك إلى غياب المدارس التى فى مقدورها توفير التعليم الفعال. إنكم تعلمون تمامًا ما عليه الوضع فى مدارسنا، وانعدام فاعليتها بصورة كاملة نظرًا لنقص المدرسين، بحيث لا تعود بأية فائدة على التلاميذ. تلك هى حالة مدارسنا منذ عشرين سنة، وهو ما لابد أن يكون محل اهتمام كل شخص شريف ومدرك لهذه القضية.

أيها السادة

لقد تكونت منذ بضعة أيام فى حضن أمتنا جمعية اتخذت لنفسها

اسم «جمعية نهضة الثقافة اليهودية» والتى من أهدافها خدمة شعبنا، ودراسة قضاياه، وتأمين مستقبله بتوفير التربية لأولادنا وخاصة من هم أشد حرمانًا».

«ونظرًا للتخلف الذى أصاب مدارسنا، ولمستواها شديد التدنى، فلقد تقدمنا بعريضة لرئيس طائفتنا تحمل أكثر من مائة توقيع بهدف إبلاغه عما عليه حال مؤسساتنا التعليمية حتى يعمل على معالجتها، وخاصة حتى لا يحرم أولادنا من الدراسة والتعليم. لقد طلبنا منه ـ علاوة على ذلك ـ السماح لنا برقابة تلك المدارس، والإشراف عليها لصالح أمتنا، كما ينبغى أن يقوم به أيضًا كل فرد منا، غير أنه لم يعدنا بأى شىء».

«أيها الإخوة، إننا نشعر بالأسى من عدم تنظيم مدارسنا، ومما تعانيه من قلة اهتمام، فنحن نأسف للفائدة المحدودة التى تعود على طلبة تلك المدارس. إن بعض هؤلاء الطلبة يتردد على تلك المدارس منذ أكثر من خمس سنوات دون أن يحصل على أية منفعة من جراء الافتقار إلى النظام وإلى المدرسين. لاشك أن الأموال التى صرفت من أجلهم سواء من الجماعة أو من أموال الوقف باتت دون فائدة».

«أيها الإخوة، هل يمكن لأحدكم أن يقدم أى مثل عن طالب يكون قد أدى بنجاح امتحانات نهاية الدراسات، أو يكون قد حصل على شهادة الابتدائية (وهو ما كان سوف يتيح له أن يصبح موظفًا)، أو قد تعلم إحدى اللغات الحية، أو يكون قد تدرب على أداء الصلوات.

«أيها الإخوة، أيا كانت مدة الانضمام إلى تلك المدارس، فإن الطلبة الذين يتخرجون منها لا يستطيعون سوى أن يقوموا ببيع المحمصات، وورق اليانصيب.. ما لم يتحولوا إلى إرهابيين أو إلى لصوص. تلك هى الحقيقة القاسية لما عليه مدارسنا اليوم.

«إلى متى يستمر هذا الجمود وهذا التخلف. ألا تعتقدون أن أولادنا

هم رجال الغد؟ وإذا استمروا على مستواهم الحالى فإن المصيبة ستكون كبيرة.

«علينا أن نستعيد الحياة والتخلص من هذا الجمود. نطالبكم بضم صوتكم إلى صوتنا حتى نطالب نحن جميعًا ومعًا بتجديد مؤسساتنا الطائفية، فنكون بذلك قد أدينا واجبنا نحو وطننا. فلتتجمعوا أيها الإخوة وطالبوا وارفعوا صوتكم بأن تتحقق رغبتكم فى أن نكون معًا شاهدين على تحديث مدارسنا. تقدموا بمساعدة جمعيتنا حتى لا نكون سوى صوت موحد يمكننا من تحقيق الهدف الذى حددناه».

«أيها الإخوة.. نحن نعيش قرن التقدم السريع، ولقد أفاقت كافة الأمم من نومها العميق، بينما نحن لا نزال على حالنا. إن شبابنا يتسكعون فى الطرقات دون الحصول على تعليم أو مهنة ويبقى أطفالنا دون رعاية.

«أيها الإخوة.. نرجو منكم أن تتنبهوا إلينا وأن تتوحدوا. ونطلب من الله أكبر أن يستمع إلينا وأن يستجيب لنا».

«فليتقدم كل من يعترض على خطتنا ليعرض وجهة نظره. إن جمعيتنا ترحب بكل من يرغب فى الانضمام إليها، أرسلوا كل خطاباتكم لجمعيتنا على عنوانها بحارة اليهود».

إن هذا المسعى الذى يتم نحو السلطات الطائفية ليس من الأمور الاستثنائية، ذلك أنه بعد انقضاء ثلاثين سنة يمكن أن نقرأ مقالًا فى «المنبر اليهودى» بالعدد الصادر فى ٦ ديسمبر ١٩٣٩، وهى المجلة التى يصدرها الفريق الاجتماعى والماسونى لكبار رجال الطائفة بالقاهرة والإسكندرية، مقالًا بعنوان «حادث مؤسف» على النحو التالى:

«لقد وقعت أحداث مؤسفة خلال الأسبوع الماضى داخل طائفتنا (الإسكندرية). فقد تجمع عدد من العاطلين (اليهود) وتظاهروا أمام ديوان الطائفة عند مقر مكتب التشغيل لـ«بنى بريث» وأمام مكاتب بعض كبار الشخصيات (اليهودية) فى المدينة. إن أوضاع هؤلاء العاطلين

مؤسفة بقدر ما هى دون مخرج، وغالبيتهم من الشباب الذى تلقى تعليمًا شديد التخلف، ولا يجيدون ممارسة أية حرفة».

حقًا إن قادة تلك الطائفة يحملون على أكتافهم حملا ثقيلًا يتمثل فى تلك البروليتاريا الرثة، وفى حارة اليهود وهو ما يشغلهم ويربكهم.

هكذا فلقد كتب «موريس هارملان» رئيس تحرير المجلة نفسها فى عددها الصادر فى إبريل ١٩٤٣ ما يلى :

حارة اليهود

«على مسافة قريبة من مخبز فطير عيد الفصح بحارة اليهود، وأسفل بوابة كبيرة ومفتوحة وواضحة المعالم، ترقد على سرير حقير امرأة عجوز، بل عجوز جدًا، إذا ما كان من الممكن تسمية تلك المزقة البشرية بالمرأة. إنها فى حالة احتضار، أو ما يقرب من ذلك، وهى تتنفس بصعوبة كبيرة. إنك لا ترى على هذا الوجه المتجعد سوى بياض العينين المحفورين فيه. إنك أمام جسد شديد النحول، والاتساخ، بحيث يقشعر منه الإنسان، جسد تغطيه قطعة بالية من القماش التى إزداد سمكها بفعل القاذورات، والتى تتشاجر فوقها آلاف الذباب التى تحوم حول تلك الكتلة الفاسدة.

«هذا المنظر تقشعر له الأبدان، وهو شنيع للغاية؛ ولكن ما هو أشنع من ذلك، هو هذا الحشد من الناس الذين يسيرون ذهابًا وإيابًا حول هذا المنظر دون مبالاة، بل دون اكتراث. وتجلس بجانب تلك الجثة التى لا تزال على قيد الحياة كل من بنتها أو حفيدتها، لإثارة الشفقة فى انتظار تلقى الإحسان من المارة. إن هذا الاستغلال البشع للتسول ليس مسموحًا به الآن، ويجب ألا يسمح به أبدًا حتى فى حارة اليهود، ذلك المكان الملىء باللصوص من اليهود، وهو ما يعد وصمة مشينة لجاليتنا».

«ما من شك أن مشاعر السيد «فرسكو» ـ وهو المندوب المتفانى للجمعية الخيرية الإسرائيلية ـ سوف تهتز أمام هذا المشهد البشع، والذى لا تتسع الكلمات فى وصفه. من الضرورى أن يخضع ذلك التسول المعيب إلى قواعد تنظيمية، وهى مهمة يتوجب على لجنة خاصة القيام بها، وتكون مهمة تشكيلها واقعة على مجلس الإدارة الجديد المنتخب يوم الأحد الماضى».

هذا الشخص الذى يسرد لنا مجرى الأحداث يعود مرة أخرى لذات الموضوع فى ٥ مايو ١٩٤٩، حيث يستوقفه فيما بين سطور إعلان صغير يعدد مزايا «ماء كولونيا الدوشيس» (الدوقة ـ المترجم)؛ إلى جانب إعلان آخر يدعو الناس «لتذوق أنواع النبيذ الذى تقدمه شركة كارمل الشرقية»؛ وأخيرا، إعلان يعرض تعليم «اللغات الحية» مقابل ١٠٠ قرش لمدة ثلاثة شهور بمدرسة «برليتز بالإسكندرية».

يكاد تكون لى رغبة فى بدء إطلاق عامود أسبوعى مخصص لحارة اليهود، وقذارتها المقززة. وهو الموضوع الذى أثاره السيد «دانيال سابورتا» خلال آخر اجتماع الجمعية العامة للطائفة، والذى حاول الدكتور «ليفى» توضيح الأمر (!) بقوله إنه ليس ضمن صلاحيات مجلس الطائفة أن يحل محل الحكومة فى صيانة هذا الحى».

لكن الأمر لا يتعلق بالصيانة، بل بقواعد الصحة والنظافة، وهى التى أعنى بها الأمراض المعدية، والرمد الحبيبى، والجرب، إلخ. ذلك أن حارة اليهود أصبحت بؤرة للميكروبات؛ ومن ثم، يتعين معالجة هذا الوضع، وإضفاء مزيد من النظافة على هذا الحى؛ فلا يجب أن يقال يومًا أن هذا الشخص قذر كما هو عليه الساكن فى حارة اليهود.

الشلخت

لقد تركنا الشابان فريسة لأزقة الحارة حيث تتوالى المفاجآت أمامهما كلما التقوا بالآخر الغريب، والذى لم يتوقعا مشاهدته عن قرب فى يوم من الأيام. أمامهما الآن رجل لاح فى الأفق. أين يجرى هكذا؟ من أين خرج؟ إنه رجل ذو لحية محمرة، له بشرة بيضاء، وعينان زرقاوان، وخصلات من الشعر تتدلى وراء أذنيه، وقبعة من الفرو على الرأس، مرتديًا قفطانًا أسود اللون وقصير الطول ومربوط بحزام، يكشف عن جرابين طويلين. من أين جاء هذا الرجل؟ وما هى تلك اللغة الغريبة التى يتحدث بها مع شبيهه الذى يسير بجانبه. سوف تأتى الإجابة على هذا السؤال على لسان الرجل الذى يستند بظهره إلى الحائط، وهو مستريح على الأرض، حافى القدمين المنغمستين فى التراب. يتوقف الرجل عن قراءته اليومية للمزامير، ليقول فى تهكم «انظروا إلى «الشلخت».
هكذا نحن أمام أحد ممثلى هؤلاء «الإشكناز» الذين يقيمون بدرب البرابرة.

درب البرابرة عبارة عن حى يهودى داخل الحى اليهودى؛ وهو يحتوى على محلات بيع الحلوى، وعلى معبد الإشكناز، ونساء يرتدين الشعر المستعار، ورجال «حاسيديم» ملتحين. من لا يتذكر بائع اللبن «الكاشير» الجاثم على الدراجة ذات العجلات الثلاث، وعلى رأسه قبعة من الفرو، ومرتديًا القفطان التقليدى؟

من لا يتذكر أنهم ظلوا ـ على مدى نصف قرن ـ الصهاينة الوحيدين فى مصر إلى جانب يهود البلقان؟

ولكن ما معنى كلمة «شلخت»؟ ومن أين جاءت هذه التسمية التى تحمل معنى مهينا؟ حينما حضر الأشكيناز الأوائل فى بداية القرن هربا من عمليات الإبادة الكبيرة التى وقعت فى «كيشينيف»، توجهوا إلى حارة اليهود.

كانوا شاحبين، وقليلى التغذية، ومكدسين بالعشرات فى أكواخ قذرة، وفى حى خال من المجارى، ومن المياه النقية، معرضين لأشعة الشمس الحارقة ولهجوم جيوش من الذباب. عندئذ صاح هؤلاء الأشكيناز ـ وهم فى حالة من الاشمئزاز ـ بلغتهم الخاصة «شلخت، شلخت». عند الاستماع إلى هذه العبارة غير المفهومة قام الأهالى بإطلاقها على من قالوها؛ وعندئذ أصبح يطلق اسم «شلخت» على الأشكيناز الذكور و»شلختينا» أو «شلختاية» على الإناث منهم.

لفترة طويلة من الزمن، نظرت العائلات اليهودية التقليدية إلى الزواج من «شلختينا» باعتباره زواجًا غير متكافئ، لا يقل سوى بقدر قليل عن الزواج المختلط؛ أى الزواج بامرأة تنتمى إلى دين آخر غير اليهودية، ففى هذه الحالات الأخيرة، كان من السهولة أن تتحول أرمينية أو يونانية إلى «مريم بات سارة» أو «راحيل بات ريبكا»، وذلك بالقيام بالاستحمام الشعائرى.

معابد حارة اليهود

لم يناد اليهود من الأهالى الأصليين أو الإسبان (العثمانيين) الذين يعيشون فى مصر بـ«السفاراديم»، وهو الاسم الأسطورى والجمعى. تعد كلمة «سفاراديم» بالنسبة ليهود مصر تسمية لمذهب دينى فرضه اليهود من أصل إسبانى على يهود الشرق الأوسط خلال القرن الخامس عشر. وكان الإسبانيون الذين يتحدثون اللغة «الإسبانيولى»

يشكلون مجموعة تعيش بعيدًا عن اليهود من أهالى البلاد. كان هؤلاء اليهود من أصول إسبانية يقيمون فى الأحياء الخاصة بهم، ويترددون على معابدهم الخاصة التى تتعاقب الصلوات فيها باللغة العبرية واللغة الإسبانية. كما كانوا يتعاطون أطعمة ذات أسماء غريبة، ويحتقرون اليهود المصريين الذين يطلقون عليهم اسم «الموريسكوس» (البربر). وحتى فى حارة اليهود، ظلوا فترة طويلة متجمعين حول كنيس «ألبرتوجيزيم» الموجود فى حارة الفودة، وهى عبارة ممر ضيق امتدادا لدرب الكتاب، أو حول ذلك الكنيس بحارة الصقالبة المسمى بكنيس التركية نظرا لأن من أسسها هى يهودية من اسطنبول.

سوف تكتسب تلك المعابد على مر القرون الطابع المصرى؛ وهكذا، سوف تتجمع الموجات المتلاحقة من اليهود البلقانيين والعثمانيين الذين جاءوا إلى مصر فيما بين ١٨٩٠ و١٩٣٠ فى الممرات نفسها السابق الإشارة إليها، ولكن هذه المرة حول مصلات جديدة تحت اسم «معبد الإسبانيولية» والذى يقع ـ ياللعجب ـ بجوار مصلات المهاجرين من أهل اليمن. وهم الذين كانوا يشكلون شعبا مبرقشا وتقيا من السُّقاة، وباعة الفول الجائلين، أو الصياغ الموهوبين.

ومع ذلك، استمرت فى الكنيس المسمى بمعبد المصريين، أو فى معبد الأستاذ بقايا من الشعائر المصرية شديدة القدم، كما أفادتنا بذلك الترجمة التى قام بها الجاعون «سعاديه يوسف الفيومى»؛ وهى تلك الشعائر التى أجرى تعديلها «ابن ميمون» وسلالته «الناجيديم»، وإسبان القرن الخامس عشر، وفى النهاية من القبالين من أنصار «آرى» (أنصار اسحاق لوريا).

كان يطلق حتى القرن السابع عشر على هذا الكنيس المشيد فى درب المصريين اسم «كنيس المستعربين»، وهو المعبد الذى طالما تم هدمه وإعادة بنائه مرات عدة، والذى يعد من عمر القاهرة نفسها. فقد تم بناؤه فى العام ٣٧٠ الهجرية (٩٩٩ ميلادية)، ثم أغلق فى العام ١٥٤٥ نتيجة للنزاعات بين القرائين والربانيين، ثم أعاد إبراهيم باشا فتحه فى العام ١٥٩٤ بإلحاح من الحاخامين «إليعازر الإسكندرى» و«يعقوب بن حايم». تم تجديده مرة أخرى فى العام ١٨٦٠ وفى العام ١٩٤٥؛ وكان يحتفظ بعديد من الكنوز، منها دستور كنيس «سنباط» (وهى قرية تقع على بعد ١٢ كيلو مترا من شمال منية الزفتة)، وعلى مخطوط «التوراة» المودع فى كنيس الأستاذ فى العام ١٦٢٣ عندما لم يبق أحد من اليهود فى تلك القرية.

يقع حوش الصوف قريبًا من درب المصريين، وفيه «كنيس الردبة» (دافيد بن أبى زمرا)، وبجواره ـ فى درب الناصر ـ يوجد «كنيس رب حاييم كابوس»، وهو صانع المعجزات.

ثم يأتى درب الدهان، وفيه معبدان أحدهما تحت الأرض، وكلاهما مكرس لتكريم «يعقوب أبو شعرة»، بينما نسمع من مؤخرة أحد الأحواش فى درب الصقالبة صوت المؤمنين الذين يؤدون الصلاة فى «كنيس بعل حاناس»

وفى نهاية حارة اليهود ـ فى ذلك الجزء من درب محمود المسمى بعطفة حمام اليهود ـ يوجد «رب موشى»، وهو عبارة عن كنيس تحت الأرض يتم وصول المؤمن إليه وهو عارى القدمين. كان يأتى إليه أصحاب الأمراض المستعصية لتلقى العلاج وكان يتم شفاؤهم. وأيا ما كان الأمر، فلم تكن الذاكرة تحتفظ سوى بحالات الشفاء المدهشة التى كانت محل همس المترددين على ذلك المعبد. ألم يضع الملك فؤاد ملابسه فيه وهو يعانى من مرض خطير؟ على كل حال، هذا ما كان يتم ترديده؛ لكن مما لا شك فيه هو وجود لوحة من المرمر النادر، وفى غاية الجمال، مهداة من العاهل، وهى تزين حتى الآن حائط ذلك الكنيس الذى يمثل الملجأ الأمين الذى تنبعث الطراوة والسكون منه وسط عالم ملىء بالصخب المميز للمناطق الحضرية.

إلا أن تلك المشاهد التى تليها مشاهد أخرى لها نهاية؛ وهى تلك النهاية التاريخية التى جعلت غالبية البورجوازيين وأصحاب المهن الحرة يتركون هذا الحى منذ نهاية القرن التاسع عشر. لاشك أن عائلات موصيرى بك وقطاوى باشا لا تزال متمسكة بالأحواش التى تمتلكها، وهى عبارة عن قصور باهظة وسط تلال من البؤس؛ على أنه تم تحويل تلك القصور فى بداية القرن إلى مدارس، وكنائس، ومراكز اجتماعية أو خيرية.

وفى الواقع ـ فيما عدا بضعة آلاف من الحرفيين من البروليتاريا الرثة أو الحاقدين المتمسكين بالماضى الذين لا يجهلون الأثر المدمر للحداثة على التقاليد ـ فإن غالبية الثلاثين أو الأربعين ألف يهودى فى القاهرة كانوا يقيمون فى أحياء المدينة المختلفة. فخارج الحارة، لم يخل حى من اليهود إلى جانب المسلمين، والأقباط، واليونانيين، والأرمن، والشوام، والمالطيين، والإيطاليين، أو ما كان يطلق عليهم بشكل عام اسم

الأوروبيين. منذ الآن سوف يستقر فيما بين اليهود وجيرانهم الجدد التبادل المادى، والفكرى، وحتى الحسى، ذو الجوانب المتعددة.

كانوا فيما مضى يهودا مصريين، ولم يميز بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين والأقباط أى شيء فى الزى أو اللغة. وظل الأمر هكذا حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. لابد من أن نذكر هنا محاولة السلاطين الذين استولوا على الحكم، فرض علامات تميزهم عن غيرهم من الناس، مثل العمامة السوداء أو الصفراء. على أنه فور وفاة الطاغية، كانت تعود الأمور إلى سابق عهدها، لأن هؤلاء اليهود كانوا مصريين يدينون باليهودية، قبل أن يستعمل تعبير آخر محله. وقد بلغ التسامح فى مصر حتى نهاية القرن السادس عشر إلى الحد الذى جعل الطائفة السامرية تتعايش جنبا إلى جنب مع الطائفة القرائية والطائفة اليهودية التقليدية، وهى الربانية.

القراؤون

بجوار الحارة التى تولينا الحديث عنها، توجد حارة أخرى وهى حارة القرائين الذين يعيش أعداد كبيرة منهم بسوق النحاسين، وشوارع الخرنفش، حيث كان مشيدا عليها كنيسهم المزدهر والفسيح الذى يأتى إليه أفراد عائلات بركات، وعبد الواحد، ومسعودة، وفرج، وليشع، مرتدين جلبابهم لأداء الصلاة والسجود على «الطريقة الإسلامية،» كما يقول عنهم الربانيون. فهؤلاء الأخيرون كانوا يجهلون أن تلك الإيماءة فى الصلاة تعود إلى قديم الزمان. إن اليهودى الربانى المصرى يعتبر أن القرائين «هم منا، ولكنهم يفكرون ويؤدون الصلاة بطريقة أخرى».

لا تتضمن العبادة القرائية أى نص من نصوص «التلمود» أو النصوص ذات الطابع الأسطورى. فصلاة القرائى عبارة عن مجموعة من الأناشيد، والمزامير، والتوسلات المأخوذة جميعها من «التوراة». وإذا ما بدت الصلاة القرائية أحيانًا طويلة إلى حد كبير، فإنها مع ذلك تتميز بالرصانة والجدية. لا يشهد المعبد القرائى أى نوع من الاضطراب أو الضجيج، حيث نشهد هذا المؤمن جالسًا على الأرض، حافى القدمين، ومتكئا على كعوبه، وهو يقف، وينحنى، ويسجد فى سكون وتقوى.

إن القرائين خلفاء لتلك المجموعات التى لفظت مبكرًا منذ عصر «المعبد الثانى»

أى تقديس للقانون الشفهى («الميشنا» و«التلمود»). وبعد فترة، عمل «عنان ها ناسى» على توحيدهم، فضمت صفوفهم علماء فى قواعد اللغة (سلالة «بنى أشير») وعلماء الدين (عائلات «الكركشانى» و«النا هافندى» و«يافت بن على») الذين أثاروا مجمل العالم اليهودى بصورة كبيرة، كما استقر فى مصر نقاش مقدس. إن القرائى المنفصل تمامًا عن اليهودى الربانى (وهو الذى ينتمى إلى تعليم الحاخامين لـ «التلمود») هو المختص بالكتاب المقدس والمتابعة الحرفية للشريعة المكتوبة. فيتم التطبيق المتشدد للمحظورات المتعلقة براحة يوم السبت الذى لا يخرج فيه القرائى من بيته، حيث يكون خاليًا من أى نوع من النور المشتعل. كما يقتصر غذاؤه فى هذا اليوم على تناول وجبات الطعام غير الساخن، ويمتنع عن ممارسة أية علاقة جنسية خشية الوقوع فى خطيئة الإنجاب بارتكاب عملية الخلق. إن القواعد التى يتبعها بشأن نقاوة أو عدم نقاوة النساء تتسم بشدة كبيرة، كما أن القواعد المنظمة للعلاقات الزوجية هى أكثر شدة مما هى عليه عند الربانيين.

وعلى العكس من ذلك، يعتبر القراءون «التفيلين» نوعًا من التعاويذ التى يشعرون بالكراهية نحوها؛ وينطبق الأمر نفسه على عادة وضع «الميزوزوت» على أبواب منازلهم، وهى تلك العلب الخشبية والمصنوعة أيضًا من الحديد والفضة التى تحتوى على أجزاء مخطوطة من «أسفار موسى الخمسة». ومحظور عليهم أن ينفخوا قرن الكبش (الشوفار) يوم السبت، لأن تلك الحركة محظورة عليهم منذ هدم معبد القدس. وهم يتجاهلون عيد «الأنوار» (حانوكا) الذى جاء بعد نزول الكتاب المقدس وبعد «أسفار موسى الخمسة».

إن القرائين شديدو التمسك باللغة العربية، ويقع مكانهم - فى نظر المصريين - فى موقع ما بين الربانيين والمسلمين، وكأقلية ضمن الأقلية لديهم تنظيماتهم الطائفية الخاصة بهم، كما لهم جرائدهم، ومدارسهم، وأحياؤهم. إن الربانيين يتجاهلونهم حتى وإن حدثت ثلاث محاولات لضم الشمل أو التعاون فى عصر كل من «بن ميمون»، و«دافيد بن أبى زمرة» و«حايم ناحوم أفندى». لقد اقتضى الأمر الانتظار حتى تهدأ العقيدة، وتستقر بعض لمحات التسامح مع بروز الاتجاهات الأوروبية، حتى تخفت الميول الأزلية إلى الإقصاء، ويلتقى الربانيون والقراءون فى القاهرة.

انطلق مراد بك فرج - الذى سيصبح واحدا من أكبر رجال القانون المصريين - من

الخرنفش، كما انطلق منها الشيوعى يوسف درويش (مترجم هذا الكتاب)، والموسيقار «داوود حسنى» الذى ساهم فى نهضة الموسيقى العلمية المصرية، إلى جانب كبار الصياغ من العباسية وميدان سليمان باشا. ومن الطريف أن طفلاً فى السادسة من العمر كان يعيش فى منزل ملك القرائى شموئيل، وذلك فى العام ١٩٣٣ حيث كان يختلط بأهل شارع خميس العدس: إنه ابن البوسطجى المعروف اليوم باسم جمال عبد الناصر.

ومع ذلك سوف يزول رويدًا رويدًا هذا الزمن الذى كانت فيه مصر عبارة عن فسيفساء من الأقليات حتى يبدو أن كل حياة مشتركة أصبح أمرًا استثنائيًا. لكن علينا ألا نتعجل الأمور.

عن القرى وبعض القرويين

على غرار «عبد الله اليهودى»، متسول شارع التتويج، أصبح اليهود الذين تركوا الحياة فى حارات كل من القاهرة والإسكندرية يرتدون لباس الحداثة بقدر أو آخر من السعادة.

يسعى جاهدا هذا اليهودى ـ الذى أخذت تتزاحم على لسانه التعبيرات الأجنبية ـ فى البحث عن تأمين سبيل الحياة.. نعم، لاشك أنه على قدر من القربى باليهود الارستقراطيين، وله قدر من الاتصال بمن أصبحوا جزءًا لا يتجزأ من الانفجار الرأسمالى.

سوف يقال فيما بعد عن اليهود أنهم هم الذين أسسوا مصر الحديثة، أو أنهم نهبوا مصر فيما يعود عليهم من عظيم المنفعة. أما الآن، فسؤالنا هو: مم كان يعيش هذا اليهودى؟ إنه يعمل حرفيًا، أو تاجراً أو موظفًا، أو سمسارًا.

فى صباح كل أحد، تراهم يندفعون بالآلاف نحو المحطات الرئيسية للسكك الحديدية فى القاهرة (باب الحديد)، وفى الإسكندرية (محطة مصر أو محطة سيدى جابر)، وهم يحملون معهم عديدًا من الحقائب المليئة بعينات من السلع التى يعرضونها للبيع، ويغطون أجسادهم برداء للوقاية من الأتربة والأمطار، كما ويعلو رأسهم طربوش مستقر عليها.

وعندما يأخذون أماكنهم فى القطار، يتعرفون على بعض حيث يتجمعون لتبادل الحديث فيما بينهم. وإذا كان سفرهم فى الشتاء، فلابد أنهم قد تركوا منازلهم فى وقت مبكر مما أعاقهم عن تلاوة صلواتهم اليومية، بحيث إنهم ـ وهم فى القطار ـ ينهضون بالوقوف وهم ملتفون بـ«التاليث» و«التفيلين»، ويعملون على جمع عشرة من الرجال حيث يقومون بتأدية الصلاة. وينظر إليهم الآخرون باهتمام أو بعدم مبالاة؛ فالصلوات فى مصر تتم جماعة وفى العلن. لا شيء يمكن أن يمنع المؤمن عن أداء الصلاة فى الساعة المحددة، لأن هذا الطقس يحتل المكانة الأولى قبل كل مقتضيات الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية؛ فهو الذى تتناغم عليه جميع الطقوس الأخرى.

أحيانًا يجد أحد المسافرين اليهود نفسه معزولًا فى مدينة ليس فيها أى كنيس، وليس بها أى منزل لأصدقاء أو مقربين ليلجأ إليه. عندئذ، يتوجه إلى أى جامع ليؤدى الصلاة فيه وفقًا لما أوصى به «بن ميمون»؛ ليس هناك ما يحرم هذا المكان عليهم سواء من حيث الموقع أو الزينة اللذان لا يعوقان اليهودى فى تأملاته. ولما كانت الجوامع تكتظ بالعاطلين، والمتسولين، وبالباحثين عن الراحة، فليس هناك ما يلفت النظر إلى هذا اليهودى الذى يقف دون حركة، وهو غارق فى الصلاة. وعندما تدور فى قطارات الدلتا الصغيرة المناقشات الدينية ـ التى يحلو كثيرًا للمصرى اجراؤها وهو من أشد المتمسكين بمعتقداته ـ فإنها تنتهى دائمًا بالملاحظة التالية «كيف أنت لست مسلمًا»، والتى يرد اليهودى حالا عليها «إن ما جاء بالقرآن، رب المؤمنين وليس رب المسلمين».

اليهود يتدفقون نحو المدن الصغيرة فى الدلتا وقراها، إنهم يعملون فى السمسرة منذ قرون مضت، حيث يقومون فيما بين المدن الكبرى والريف بتبادل السلع ونقل آخر الأخبار. أحيانا تسير القطارات العادية والقطارات الصغيرة (الركاب) ببطء شديد للغاية، أو أنها لا تصل لبعض المجمعات السكنية الصغيرة فى الريف.

عندئذ نرى هذا المسافر اليهودى يندس ـ وما يحمله من حقائب ـ على ظهر عربة (كارو) يجرها حمار هزيل، أو فى إحدى سيارات الأجرة (التاكسى) التى تحمل عشرة أشخاص، وبعض أقفاص الطيور، متجولة فى ربوع الريف المصرى.

ثم يأتى وقت اللقاء مع العميل الذى هو صديق فى الوقت نفسه. ويبدأ بينهما

الحديث، وتبادل الآراء اللذان لا يقلان أهمية عن الفصال، وعمليات البيع والشراء. كما أنه الوقت الذى تعقد فيه الصداقات، وتبرز الخلافات والمرارات؛ ولكنه أساسا زمن التضامن الذى سيسمح للمسافر بالعثور على المساعدة، والملجأ، والعون، عندما تندلع الحروب أو تحل القلاقل.

وإذا كانت لا تزال هناك طائفة يهودية فى قلب المنطقة الزراعية، فإن اليهودى سوف يجد ما يكفيه من الطعام وما يحتاج إليه من مأوى، علمًا بأن الريف المصرى تنتشر فيه الفنادق الصغيرة التى تملكها عائلات يهودية، مثل عائلات إبراهيم، وراحيل، وسليمان، والتى تستضيف السماسرة ووكلاء الشركات الانجليزية والفرنسية، وأيضًا أولئك التجار المتجولين من اليهود متوسطى الحال الذين يحملون على ظهرهم كل ما يمتلكونه من سلع وبضائع.

تتسم سهرات الليالى فى تلك الفنادق بالصخب، حيث يجتمع هنا المتدينون لدراسة فصل من كتاب «الزهار»، أو نادرا من «التلمود»؛ بينما تلتقى هناك مجموعة من الأصدقاء للعب الميسر المصاحب بتناول شراب العرق، والتهام بكل شهية قطع كبيرة من اللحم المشوى.

قد يضطر أيضًا هذا التاجر المتنقل أن يذهب إلى قرية لا يقيم فيها أى يهودى؛ فنراه حينئذ متجها إلى المخبز وهو يحمل معه وجبة طعامه الموضوعة فى وعاء محكم الإغلاق، محاط بسلك من الحديد، ثم يحرص على وضعه بنفسه فى الموقد لضمان الامتثال للطقوس اليهودية التقليدية. وينتظر اكتمال طهيه، وهو جالس على حافة باب هذا المخبز حيث نجده غارقا فى قراءة «التهلين» أو «هو كل إسرائيل».

إنه يذكرنا بالرحالة فى العصور الوسطى الذين كانوا يرددون القصص الأسطورية حول القبائل التائهة التى كانت تعيش فى مناطق رائعة الجمال تقع على مقربة من هذا النهر الأسطورى الذى كان معروفا بنهر «سامباتيون»، وهو الذى سوف يحكى بعد عودته إلى المدينة الكبيرة التى يعيش فيها تلك القصص التى ستثير دهشة أطفاله.

أحيانا، نرى شخصًا يحوم حوله، مرتديًا جلبابًا أزرق، وعلى رأسه طاقية من اللباد الأسمر الخاص بالفلاحين فى الدلتا، عارى القدمين، حاملًا مجرفه على كتفه. يأتى

هذا الرجل للتأكد من اليوم الذى يقع فيه كل من عيد «بيسح» (عيد الفصح اليهودى) و«عيد الغفران» و«عيد رأس السنة» (اليهودية) . إنه ينتمى إلى آخر اليهود الفلاحين الذين كانوا يعيشون فى «قويسنا» و«منيا القمح» و«قليوب» ثم «ميت غمر»، الذين ظلوا أحيانا معزولين عن العالم اليهودى، على أنهم ظلوا متمسكين بتدين صارم. إنهم أبناء هؤلاء الفلاحين اليهود الذين كانوا يقيمون فى كل من المحلة الكبرى وزفتى أو القاهرة، وهو ما يتحدث عنه «بن ميمون» فى رسائله والذين أصبحوا فى طريقهم للاختفاء تمامًا بسبب الانتقال إلى الحياة الحضرية.

هناك منهم من يعمل فى الزراعة، أو من الفلاحين الذين يمتلكون ـ استثناء ـ قطعة صغيرة من الأرض التى يزرعونها. لا شىء يميزهم عمن حولهم من المسلمين والأقباط سوى انتمائهم للطائفة اليهودية المصرية؛ على أن الفلاحين الأقباط الذين يهتمون بالتمايز عن المسلمين يـحملون على مفاصل أياديهم منذ طفولتهم الأولى وشم على هيئة الصليب، أو السمكة، أو الحمامة. لا يوجد شىء من هذا النوع لدى الفلاح اليهودى. على أن ما يشير إلى أنه يهودى هو ذلك اللقاء الذى يجمعه بغيره من اليهود فى عاصمة المحافظة؛ وهو ما يضطره إلى السير مسافة طويلة فى المناسبات الدينية التى تستدعيه. هى الرحلة نفسها التى يجتازها حتى يصل إلى معابد زفتى أو المحلة أو ميت غمر حيث يلتقى بـ«خواجات» المدينة الذين يأتون لإدارة مصانع غزل النسيج، أو معاصر الزيت، أو مصانع نسج القطن. إنه هنا هذا الفلاح مرتديًا القفطان، حيث يظل واقفًا فى نهاية المعبد، مختلطًا بمن أصبحوا من سكان المدن الجدد ـ من الحرفيين أو صغار التجار ـ وبأفندية المدينة أصحاب الحسابات المصرفية المهمة، والحائزين على جوازات سفر غير مألوفة، كانت الدول صاحبة الامتيازات قد قامت بتوزيعها بأعداد كبيرة فيما بين ١٨٦٠ و١٩٢٠.

أين هى الآن تلك اللقاءات العابرة بين الفلاحين والخواجات اليهود الذين كانوا يجتمعون ـ دون أن يمتزجوا أبدا ـ فى المعابد الضخمة؟

تم بناء أماكن العبادة تلك بفضل تبرعات إحدى العائلات التى تحمل عادة اسم أحد الأجداد، أو اسم رئيس عشيرة. كثيرًا ما يوجد أكثر من كنيس فى عواصم المحافظات، وهو الذى يرسم الحدود الجغرافية للخصومات التى عفى عليها الزمن. يوجد فى

طنطا ثلاثة معابد تتقاسمها المدينة، بعد أن انتهت الخصومات القديمة بفضل تلاحق الاهتمامات العائلية المثالية، وهى: معبد «لونا بوطون» و«شملا» و«اسكندرانى». وهناك أيضًا كنيس رابع مخصص لمن لهم أصول مغربية، أى «كنيس المغاربة» الذى كان يقاطعه عمليا كبار القوم الذين تعود إقامتهم فى دلتا النيل إلى العصر البيزنطى.

ويتسم الوضع فى بنها بشذوذ أكبر؛ ففى العام ١٩٣٦ كان لا يزال هناك ٤٣ يهوديًا يعيشون فيها موزعين على عشيرتين، إحداهما تتكون من «فرحات خضر وهبه» و«منصور إبراهيم» و«يوسف بوخاى» وعملائهم؛ بينما تتكون الأخرى من «زكى وهبه» و«إبراهيم ويوسف نصير» و«وهبه موسى ليفى». كان المعبد الشاهق خاليا تمامًا من الرواد، حيث لم يكن فى مقدور كل من الفريقين تجميع العدد اللازم لأداء الصلاة. وحينما ضجر الحاخام من تلك الحالة، بادر بالفرار خارج المدينة تاركًا رعيته يتشاجرون فيما بينهم، فى نزاع يعود إلى أزمنة لا نهاية لها.

وإذا كانت طائفة زفتى قد انحسرت فى العام ١٩٣٠ فى عائلة «شولال» دون سواها، فإن استمرار وجود تلك الطائفة مشهود به أنه يعود إلى بداية القرن الثانى عشر. منذ ١٩٢٠ أصبحت تفتقد الطائفة إلى أية خصوصية سوى انحدارها البطىء والحتمى.

كان هناك أيضا تاريخ طويل لطائفة «ميت غمر»؛ وكانت تسيطر عليها منذ القرن التاسع عشر عائلات «وهبه» و«سلامة» و«رومانو» التى تخصصت فى صناعة الفطير الخالى من الخميرة الذى تشتهر به «ميت غمر».

فى المنصورة، هناك معبد واحد يجتمع فيه كبار القوم وعملاؤهم حتى بدايات القرن العشرين. يحتوى هذا المعبد على أرائك مرصوصة على امتداد ثلاثة جدران؛ وتعلو هذه الأرائك وسائد مطرزة يستند إليها المؤمنون؛ أما مركز «تابوت العهد»، فهو يقع على الجدار الشرقى المغطى بستارة من القطيفة. فى المناسبات الدينية الكبرى، يتم وضع اسم مؤسس العشيرة فوق إحدى هذه الستائر. يقع هذا المعبد فى وسط الحى اليهودى بالمدينة، أى فى «ربع اليهود» أو «سوق النحاسين». ويطلق عليه اسم «كنيس إبراهيم حبيب حاسون».. ثم قامت عشيرة أخرى بعد فترة من الزمن ببناء كنيس آخر، هو كنيس الحدثيين. يرتفع هذا المبنى المهيب فى المركز التجارى للمدينة، وهو يحمل حتى اليوم اسم مؤسسه المرسوم داخل خرطوشة، وهو «مخلوف كوهين» إلى

جانب اسم زوجته «سيمحا». سيظل هذا المعبد الذى تم تصميمه بطريقة حديثة يستقبل المؤمنين فى كل أيام السنة حتى عام ١٩٥٦؛ بينما لن تفتح أبواب المعبد المشار إليه سابقًا سوى أيام السبت وفى الأعياد.

حج الأستاذ

مما هو جدير بالذكر أنه يوجد بالمحلة أقدم وأقدس معبد من بين معابد الدلتا، والذى كان قد شيد فى العام ١٠٤٤ حيث كرس «للأستاذ»، صاحب المعجزات ذى الاسم المركب «حاييم فاضل بن أبى آوى بن إبراهيم بن حنانل الأمشاطى»؛ وهو اسم تتناوب فيه التسميات العبرية والعربية فى تشكيلة شبه كوميدية، ولكنها شاهدة على أصول يهودى ضفاف النيل.

تشير إلينا صورتان ترجعان إلى تلك الفترة، وصورة لاحقة، إلى الشعبية التى حظى بها هذا العالم. فى الصورة الأولى نرى يهوديًا من هذه المدينة جاء ليحج، وقد كان له شرف فتح «تابوت العهد» والذى به «سيفر» الأستاذ؛ وهذا «السيفر» مغطى بالورود، وبعديد من الوشائح الحريرية المزركشة، وعليه حبوب رمانية عجيبة الشكل مصنوعة من الفضة الثقيلة.

وإذا ما أبعدنا تلك الوشائح التى تزيد كثيرًا من وزن «السيفر»، فإننا نلحظ الغلاف النحاسى المخصص لصيانة أوراق البردية. إنه عبارة عن نحاس مطروق أصبح مع مرور الزمن أخضر اللون، ويجرى تقبيله، ولمسه بحنان، واحتضانه آلاف المرات. وقد تم تثبيت لوحة عليه تقول: هذا إهداء من «حاييم بار بن حنانل المعروف باسم فاضل بن أبى آوى بن ابراهيم الأمشاطى» (المتوفى) إلى معبد من هم من أصول قدسية، فليجعله الله الرحمن الرحيم فى رحمته وتحت رعايته، هو وأخويه «شمويل» و«منشة» وكل عائلته.

البردية المصنوعة من جلد الغزال أصبحت داكنة على مر الأيام. يعد هذا «السيفر» أثرًا مقدسًا حيث تنطق أشد الوعود خطورة مع وضع اليد اليمنى عليه. ومن هنا، حينما ادعى أحد حاخامات الإسكندرية ـ «موشى حازان» وأصله من الإمبراطورية العثمانية ـ أنه اكتشف على «السيفر» بعض علامات التلف مما يجعله غير صالح للعبادة، كاد

أهالى المحلة أن يرجموه بالحجر. تكرس جميع الهبات التى تقدم بمناسبة القيام بالحج الكبير فى الأول من آيار (مايو) لتزيين ذلك المعبد.

إن يهود المحلة ـ وهم من صغار الحرفيين أو أصحاب المزارع الصغيرة ـ ليسوا سوى بقايا لطائفة عالية المقام كان يراسلها «بن ميمون»؛ وهى التى كانت تعد فى عهد «جوزيف سمبارى» واحدة من أهم الطوائف المصرية فى القرن التاسع عشر؛ غير أن جاذبية المدن الكبرى أدت إلى تشتيتهم. ومع ذلك، تم تجديد المعبد مرة أخرى فى بداية القرن العشرين. ولما كان يغطيه المرمر من «كرارى» (إيطاليا)، فهو يتحلى بهيئة شامخة فوق المنطقة لما هو عليه من ثراء وروعة. إنه يجلب عديدًا من الحجاج الوافدين من كافة مدن مصر نحو تلك المدينة المقدسة؛ حتى أن حارات اليهود تصبح خالية من سكانها، وتستمر الأعياد فيها لمدة يومين بكاملهما. وفى الميدان، يتم ذبح قطعان كاملة من الخرفان، ويقوم الناس بشى اللحم وتناوله مصحوبا بأكواب البيرة «ستلا»، أو شراب العرق لإطفاء الظمأ. كما يعلن عن اتمام عقود الزواج مصحوبة بالموسيقى، والصخب، والزغاريد، إلى جانب تلاوة الدعوات. هنا أيضًا ـ على غرار ما يتم بشأن أولياء العرش ـ يقدم أوائل المواليد الذكور للأصدقاء والمعارف. وتجرى أيضا الاحتفالات الدينية فى جو من الضجيج، بينما يتبارى من بلغوا سن المراهقة ـ وتم قبولهم مؤخرا فى دائرة البالغين ـ فى الجدل حول تفاصيل تلمودية غامضة نسيت حتى أصولها. وينصب الاهتمام هنا فقط على موضوع الجدل الذى يثير لدى هذا الشباب منافسة مميزة ولافتة للنظر.

فى يوم الحج، تتضمن صلاة الصباح إنشاد أحد التراتيل الجماعية التى تكرر ثلاث عشرة مرة:

«واحد: أدوناى هو الذى خلقنا

«اثنان: موسى وهارون

ثلاثة: آباؤنا إبراهام وإسحاق ويعقوب

أربعة: أمهاتنا سارة، وريبيكا، وليا، وراحيل

خمسة: كتبنا المقدسة

ستة: كتب المشنا

سبعة: أيام الأسبوع

ثمانية: أيام الحمامة (الختان)

تسعة: أيام الحمل

عشرة: كلمات الوصايا العشرة

حادى عشر: نجوم السماء

ثانى عشر: قبائل إسرائيل

ثالث عشر: سن البلوغ.»

وفى الليل، بحضور ممثلى الحكومة المصرية، يطوف موكب احتفالى اثنتى عشرة مرة حول المكان المقدس؛ حيث يتم دون توقف ترتيل «وبصوت الله تمت مباركة قبائل إسرائيل»، وكذلك الآية التالية «الله يحكم، الله حكم، الله سيحكم إلى الأبد». يعاد تكرار هذا النشيد إلى ما لا نهاية حتى الانتشاء، ونشاهد فى أحد أركان هذا المكان المقدس مجموعات من الناس يرقصون ويفرطون فى الطعام على أنغام الفرق الموسيقية العربية، كما نشاهد المتدينين يصلون ثم يلتحقون بالآخرين. يتراوح المشهد ما بين النص الدينى المقدس الذى كتبه الأستاذ إلى الأغنية الدنيوية، والخيام الملونة التى تستقبل المطربين والراقصين. هذه الأعياد الصاخبة تذكرنا بالأعياد التى كان يقيمها الأقباط لـ «الشهيد المقدس» فى شبرا، والتى ذكرها لنا المؤرخان العربيان «المقريزى» و«ابن إياس». يمتنع التلموديون من الحضور إلى هنا، ويكتفون بترديد عبارة «ابودا زارا» (أى عبادة غريبة وملحدة)، بينما يقول الأغنياء الجدد وكبار البورجوازيين الذين يتبنون الأساليب الأوروبية بصوت مليء بالاحتقار مصحوب بلكنة باريسية (أو أوكسفوردية، أو رومانية): «انهم حقا العرب الذين يذهبون هناك».

ومع ذلك، فإن صورة فوتوغرافية أخرى تم التقاطها بمناسبة مناسك هذا الحج تظهر لنا أنه ليس فقط اليهود المرتدون الجلباب أو القفطان هم الذين يتوجهون إلى المحلة، حيث نشاهد فى أحد المقاهى امرأتين ورجلين يرتدون ملابس حديثة أوروبية الطراز، أى البدل ذات اللون الرمادى الفاتح، والأحذية ذات اللقامة المنسقة

بالنسبة للرجال؛ أما النساء فهن يرتدين الفساتين الفضفاضة، والأحذية ذات الكعوب العالية؛ ويرتدى الجميع القبعات الأوروبية. تتمثل التفصيلة الوحيدة التى تدعنا نفكر فى انتمائهن لليهودية فى أسلوب المناقشات الحامية التى تدور بينهم. من الممكن أن يتكرر المشهد نفسه فى كل من ميناء مارسيليا، وفى برشلونة، أو دوفيل عندما يكون المناخ جميلًا. ولكن لماذا تبرز هنا صور الموانـئ؟.. يعود ذلك إلى بقع الشمس التى تتناثر فوق الشخصيات، وعلى الحائط الخيرزانى الذى يرتفع خلفهم، مما يذكرنا بانعكاس الشمس على مياه البحر. إنها رقصة الذرات المضيئة فى الجو الساكن والمشبع بالرطوبة فى يوم الأول من آيار فى المحلة الكبرى. هناك أيضا تلك الصورة الفوتوغرافية التى عفا عليها الزمن والتى ترضد لنا مرور بعض صغار الحجاج حديثى الإقامة بالمدن، والذين جاءوا للمشاركة فى الاحتفالات الشعبية التى يعود تاريخها إلى تاريخ برديات «التوراة».

عجيبة للغاية مدينة المحلة الكبرى، وهى مع ذلك على صورة اليهودية المصرية القديمة. ألم يقل «سيسيل روث» (مؤلف كتاب تاريخ الشعب اليهودى) ـ وهو شخص شديد الجدية ذو نزعة بريطانية واضحة ـ فى تنويه عن «الجنيزة» القاهرية أن «هذا الكنز من الوثائق يكشف بدقة خاصة كل ما يتعلق بمجتمع نابض بالحياة على الرغم من أنه عابث إلى حد ما».

أتقياء نابضون بالحياة وعابثون

فى الواقع كان يهود مصر لفترة طويلة نابضين بالحياة وعابثين. فلقد اعترف لنا الحاخام الأكبر «روفائيل أهارون بن سيمون» ـ وأصله من مينة القدس ـ عن اضطرابه الذى يعبر عنه فى كتابه «نهار مصرايم»، حيث كانت من عادة العاهرات اليهوديات تطريز قطع فاخرة من القطيفة بأسلاك من الذهب لتغطية القوس الذى يحتوى على البرديات المقدسة، وكن يهدين تلك الأقمشة بعد ذلك إلى المعابد اليهودية. ولابد من القول هنا أن حظر تلك العادة من شأنه إثارة زوبعة من الاحتجاجات، فاكتفى الحاخام الأكبر فى نهاية القرن التاسع عشر بحظر كتابة العاهرات لأسمائهن على الأقمشة «حتى لا يتوتر المؤمنون أثناء الصلاة بفعل أى صورة مدنسة قد تأتى إلى أذهانهم عند التعرف عليها».

كما عمد الحاخام نفسه «بن سيمون» أن يذكرنا بعد انقضاء أربعة قرون على الأمر الذى كان قد أصدره «رابى دافيد بن أبى زمرا» بالحظر على الموسيقيين العزف فى المعابد، وعلى الراقصات الشرقيات التردد على حفلات الزواج اليهودية. وقبل ذلك بفترة طويلة، فى القرن الحادى عشر، تذكرنا «الجنيزة» بقصة تؤكد على أن هذا الطابع النابض بالحياة والعابث طالما ميز هذا المجتمع الذى اتسم بالثراء وحرية الفكر... إلى جانب أقصى درجات التعصب والتشدد. تتعلق القصة بالمغامرات العاطفية لإحدى سيدات الأعمال اليهوديات فى قاهرة القرن الحادى عشر. كانت رائعة الجمال ويسمونها «الوحشة» على سبيلٍ قلب المعنى. عقدت علاقة جنسية مع أحد يهود «أشكلون» حيث أنجبت منه طفلًا غير شرعى سمى «أبو سعد»، وهو الذى تم طرده من معبد البابليين يوم عيد الغفران نظرا لما يقوم به من أعمال طائشة. غير أن المرأة كانت أيضًا متعلمة، وبعد مرور قرن، ظل من كانوا من سلالتها ـ من القضاة، وصانعى القرار ـ متمسكين بالإعلان عن انتمائهم لها، مع الاحتفاظ باسمها كلقب لهم. ولابد من ملاحظة أن عديدًا من النساء كان فى مقدورهن فى أوائل العصور الوسطى فى مصر ليس فقط العمل فى الأنشطة التجارة، ولكن أيضًا الحصول على التعليم. كانت تلك المعلمات يقمن بتدريس العلوم الدنيوية والعلوم الدينية للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث وثمانى سنوات. ولقد انتهى الأمر بأن أمر «بن ميمون» بالسماح بها بعد أن أدهشته تلك الممارسات.

ما القول أيضا عن «بوريم» (عيد الأقدار)، وهو العيد الذى كان يحتفى به فى الحى اليهودى حتى الخمسينيات من القرن العشرين بكل ما كان له من المظاهر التالية:

ركوب الخيل، ألعاب الحواه، المفرقعات والصواريخ، الأسهم النارية، التجول بدمية «همام» الشرير ثم حرقها علنا، الفرق الموسيقية العربية، الرقص الشرقى، والكميات الهائلة من البيرة والعرق.. كانت تلك الاحتفالات تتم على الدوام بحضور المسلمين مع اليهود طيلة ستة أيام كاملة مليئة بالرقصات الصاخبة، والإباحية، وبكل مظاهر الإخوة.

لم يتوقف فضول الرحالة ـ طيلة قرون ـ أمام هذا المزيج من التقوى والملذات الذى يتسم به أيضا يهود الإسكندرية. كان هذا حال «ميشولام فولتيرا» الذى ترك لنا عرضًا بليغا عما شاهده أثناء مروره بالإسكندرية فى العام ١٤٨١، كما كان الشأن نفسه مع «عباديا برتينورو» الذى قام بزيارة تلك المدينة فى العام ١٤٨٧.

فهو يلتقى بيهود يرتدون ملابسهم كالمسلمين، ويدخلون حفاة فى كنائسهم، ويجلسون على الأرض لإقامة الصلاة، وهى تلك العادة التى سيستمرون فيها حتى نهاية القرن الثامن عشر على الرغم من تحذيرات الحاخامات العثمانيين، غير أن «عوباديا برتينورو» يقدم لنا تفاصيل أخرى مذهلة عن تلك الطائفة؛ فهو يقول إن يهود الإسكندرية ـ بعد انتهائهم من أسبوع العمل والتوجه إلى الحمامات ـ يفرطون فى تناول الأطعمة اللذيذة وفى شرب كميات من النبيذ والكحول حتى يصل بهم الأمر إلى حافة السكر. عندئذ فقط يتوجهون للكنيس مرتدين أجمل ما عندهم من ملابس حيث يجلسون على الأرض ويقضون كل الليل تقريبا فى تأدية الصلاة، وترتيل الأناشيد، وتوجيه التسابيح إلى الرب. وعندما يعودون إلى منازلهم، فإنهم يلتزمون براحة يوم السبت بدقة شديدة، أكثر شدة مما يحدث مع اليهود فى بلدان أخرى؛ فهم لا يخرجون من بيوتهم سوى من أجل التوجه للمعبد أو قاعة العلم. سوف يقضون أيام السبت فى ظلام كامل، ويتناولون الأطعمة الباردة التى تم إعدادها فى اليوم السابق دون أن يكون قد اقترب منها أحد الكفار لتدفئتها كما هى العادة فى البلدان الأخرى.

فى القرن السابع عشر كان كل من «يعقوب فراجى»، حاخام الإسكندرية، و«سعادية سلامة»، القائم مقامه، يحكيان بأنه كان يجرى تربية الأطفال مبكرًا على قراءة «التوراة» إلى الدرجة التى يصبحون فيها من الكهنة المرموقين فى جميع أنحاء الشرق الأوسط العربى؛ ومع ذلك فقد انفجر غضبا الحاخام «إلياهو إسرائيل» بعد مرور قرن أمام تراخى سلوكيات بعض يهود الإسكندرية، حتى أنه ينوه فى خطاب دينى شهير ألقاه فى العام ١٧٧٣ عن اليهود رجالًا ونساء الذين يتنزهون فى حديقة كنيس «إلياهو هانابى» وهم يتناولون النبيذ معًا إلى درجة السكر، ويتبادلون العبارات البذيئة أيام السبت وحتى فى الأعياد الدينية، وتعلو ضحكاتهم الفاسدة على مقربة مباشرة بالمكان المقدس المحاط بعديد من السير المقدسة التى تبعث على التأمل. ألم يصل بهم الأمر أن ينام فى ملحقات المكان المقدس، الرجال والنساء والأطفال معًا فى حالة من الاختلاط الكامل، بحجة تلقى العلاج؟ ألم نر أيام الأعياد يهوديات يتجولن فى الطريق العام وهن مكشوفات الرأس، ومرتديات الملابس الشفافة للغاية؟ من هنا قرر «إلياهو إسرائيل» الامتناع عن الذهاب إلى كنيس «إلياهو هانابى»، مفضلًا معبد «عزوز» (وهو الذى تم بناؤه على الاحتمال الأكبر فى بداية القرن السابع عشر)، ومفضلًا أيضًا معبد «زارادل»

(الذى تم تجديده فى القرن الرابع عشر، على أن «بن ميمون» يشير إلى وجوده عند مروره بالإسكندرية).

هكذا نرى التداخل الوثيق بين التمسك المتشدد بالعادات والأعراف والتسيب الكبير فى السلوكيات، حيث يسيران جنبًا إلى جنب ويختلطان حتى الامتزاج الكامل.

هناك مركز آخر للحج يتداخل فيه بشدة كل من الدين والتسيب. إنها مدينة «دمنهور» الواقعة على بعد خمسين كيلو مترًا جنوب شرق الإسكندرية، والتى تستقبل الحجاج الذين يأتون أحيانًا من أقصى غرب شمال أفريقيا للاحتفال بـ «يعقوب أبو حصيرة» صانع المعجزات الذى ولد فى المغرب وجاء إلى مصر فى ضيافة الرجل التقى «موسى سيروسى» إلى أن توفاه الله. هكذا، تجرى حول ضريح هذا الرجل القديس المشاهد نفسها التى سبق الإشارة إليها فى المحلة، حيث نرى انفلات الغرائز، ونفس القدر من تدفق «المخمورين»، ومن الباحثين عن المشاجرات. يشير المؤرخ «موريس فارجون»، مؤلف كتاب «اليهود فى مصر» إلى بعض المشاجرات التى لا تقبل النسيان فيما بين «عاشور» العربجى وبعض الحجاج بعد تناول كميات من البيرة والعرق.

ومع ذلك، لم تكن الأحوال فى دمنهور دائمًا على ما يرام، حيث تم فى كل من العام ١٨٧٣ والعام ١٨٧٨ توجيه اتهام لليهود بالقتل الشعائرى، على غرار الاتهامات التى تناقلها المالطيون واليونانيون ضدهم فى كل من الإسكندرية وبورسعيد خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر. إلا أن يهود دمنهور يشعرون أنهم مواطنون كاملو الأهلية، ويحسون بكثير من الألم مما يجرى لهم، على أنهم لا يهملون الدفاع عن أنفسهم حتى أنهم كانوا يرسلون العرائض لأعلى السلطات المدنية والدينية فى البلاد مطالبين بالحصول على العدالة ورد الاعتبار الأدبى؛ ولذلك حينما أخذ البارون «منشة» يحفزهم على مغادرة المدينة، بادر «موسى سيروسى» بتوجيه رسالة احتجاج ساخطة إلى «الرابطة الإسرائيلية» فى باريس.

قصص منسية

فى هذا الخطاب المؤثر بما كان يحمله من غضب يؤكد «سيروسى» على أن إقامة اليهود فى تلك المدينة الصغيرة تعود إلى أوائل القرن التاسع عشر، ومع ذلك فإن

المراسلات بين «بن ميمون» والحاخام «هالفون» ـ قاضى دمنهور وصانع القرار فيها ـ تكشف عن مدى قدم هذا الاندماج. وأيا ما كان الأمر، فإن المعبد القديم قد هدم عندما بلغ خط سكة حديد الدلتا تلك المدينة فى العام ١٨٥٥، وهو ما يشهد على طول ذلك التاريخ. لا شك من الصعوبة التى نلقاها فى القيام بتلك العملية الاستطلاعية التى تمسكنا باجرائها، أى اكتشاف تلك الحياة اليومية التى نحصل على شذرات منها من خلال الأرشيف، والقصص، والروايات، تتخللها أيضًا الكثير من تعثرات الذاكرة. من الذى لا يتذكر هذا المشهد العادى الذى يتمثل فى الإجابة المتفائلة على معلومة حول مدى بعد مكان معين بأنه على مقربة خمس دقائق؛ هذا، وإن ظل المرء أحيانا يسير لمدة نصف ساعة أو أكثر، ولا يكون المكان المقصود على مرمى البصر. وعندما كتب «سيروسى» فى العام ١٨٧٣ ـ وهو من رجال الصناعة ورجال الخير ـ «أن اليهود يقيمون هنا منذ أربعين سنة على الأقل ولن يتحركوا من هنا على الاطلاق»، وتتناقض مع هذا القول المعلومات الواردة فى الوثائق القديمة، فمن الطرف الذى ينبغى تصديقه؟

من ذا الذى يتخيل فى صفوف صغار البورجوازيين فى كل من القاهرة والإسكندرية، الذين تطبعوا بالعادات الأوروبية، أن تقاليد الحج اليهودى تعود إلى أسحق العهود القديمة فى مصر؟

ومن هنا، قبل أن يكتسب حج الأستاذ الشعبية، كان اليهود يتدفقون من كل أنحاء مصر نحو «داموح» وهى المدينة الذى لا يزال موقعها محل جدل حتى اليوم. وفى هذا الصدد يرى «نورمان جولب» أن «داموح» هى أحد أحياء مدينة ممفيس بينما يذهب «جوثيل» إلى أنها مدينة صغيرة فى الدقهلية. على كل، كان يرتفع بها حتى القرن الثالث عشر مبنى يطلق عليه اسم «كنيس موسى»، يقال إن موسى أقام وأدى الصلاة فيه، وهو ما يشير إليه كل من «المقريزى» والمسيحى «أبو صالح» فى ١١٧٣ و»بنيامين دى توليد» فى العام ١١٧٣ . ويتفقون جميعا على تقديم وصف لتلك العمارة المهمة المحصنة، ذات الصالات الكبيرة التى كانت مأوى للحجاج. على أنه ـ عند مرور «بنيامين دى توليد» لم يعد فيه سوى يهودى واحد، وهو قواس الكنيس «الشيخ أبو نصر». إلا أن «داموح» كانت تشهد حتى القرن الخامس عشر عودة الحجاج سنويا. وفى هذا الصدد يقول «سمبارى» فى القرن السابع عشر أنه لم يعد يبقى من هذا الكنيس سوى أكوام من الخراب إلى جانب لقب يهودى ينسب إلى المدينة، أى «الداموحى».

من الذى كان يتخيل فى صفوف عامة الشعب من سوق السمك بالإسكندرية أو من غمرة بالقاهرة ـ فيما عدا بعض المثقفين والعصاميين ـ أنه عند نقطة التقاء النيل بالبحر الأبيض المتوسط كان هناك عدد كبير من اليهود ممن كانوا تجارًا فى البحار، أو بحارة، أو عمالًا فى الملاحات، وأنهم كانوا يعيشون فى ترف؟ فمن المعروف أن هناك طائفة يهودية مزدهرة عاشت فى «رشيد» حتى نهاية القرن الثامن عشر؛ وذلك منذ الحقبة الفاطمية. كان يميز هؤلاء اليهود الذين يعملون فى البحار عن غيرهم ارتداء غطاء الرأس الأزرق الذى كانوا يلفونه على هيئة عمامة؛ وقد ازدهرت أحوالهم فى حضن المعبدين السابق الإشارة إليهما.

لقد دخل حاخامات تلك المدينة فى جدل لمدة طويلة مع «بن ميمون» (القرن الثانى عشر) أو مع «رادباز» القرن السادس عشر اللذين حاولا فرض عادات وشعائر واردة من خارجهم. على أنهم بلغوا ـ فى القرن الثامن عشر ـ أوجهم، فلم تعد اهتماماتهم تتسم بتلك الروحية. وكان سلطان القسطنطينية قد منح رئيسهم «يعقوب اليهودى بيباس» حق احتكار استيراد المنتجات الواردة من الهند واليمن، وهو ما أصبح حقًا متوارثًا أبا عن جد، مما أثار تبادل عديد من الرسائل شديدة اللهجة فيما بين كبار رجال القوم من مدينة رشيد والباب العالى. لقد ترك اليهود تلك المدينة بعد قرن من الزمن وذهبوا إلى الإسكندرية حيث أخذوا يقيمون فى «سوق السمك القديم» الذى أصبح الحى اليهودى فى المدينة؛ وعندئذ أصبحت معابد «رشيد» تئن من الخراب، على أنه مع ذلك سوف يولد فى رشيد أحد أصحاب المصارف الخيرين، وهو «شماياهو أنجيل» (١٨١٠ ١٨٧٤).

إلى جانب تقديم منح كبيرة للطوائف اليهودية فى سوريا، شارك فى ذات الوقت فى دعم المجهود الحربى للباب العالى، وانتهت حياته وهو محاط بعناية السلطان عبد العزيز الذى منحه أعلى الأوسمة العثمانية. إلا أنه فى العام ١٩٤٠ لم يبق فى تلك المدينة سوى عائلة يهودية واحدة لتذكرنا بتلك الطائفة اليهودية.

يتشابه مصير يهود دمياط بمصير يهود رشيد؛ وتشير إحدى وثائق «الجنيزة» أن اليهود عاشوا فى دمياط منذ ٩٨٩. كما تشير نصوص أخرى إلى أسماء تلمودية على غرار «يهودا ها ـ ميلاميد»، و«مردخاى الدمياطى»، بالإضافة إلى صناعيين مدوا أعمالهم إلى إسبانيا، مثل: «أبو سعيد ها ليفى هالفون الدمياطى» الذى حصل على حوش فى

القاهرة فى حدود عام ١١٤٠ ـ ١١٤١، والشاعر «يهودا ها ـ ليفى» المنتقل من إسبانيا إلى القدس، والذى أمضى نهاية حياته بالإسكندرية.

وهكذا نشهد المسار نفسه، والتوهج نفسه، والانحدار نفسه.

فى بدايات ذلك القرن، عثر بعض البنائين وهم يبنون بيتًا جديدًا على أنقاض مبنى متهالك فى دمياط كما يحدث كثيرا فى مصر على لفائف كثيرة للتوراة، وكتب، وبرديات.

هل ترك أهالى دمياط من اليهود ـ الذين هاجروا إلى القاهرة والمنصورة ـ بعض الذكريات حول حياتهم الماضية فى أذهان الأجيال التالية؟ يعود انتقال يهود مصر إلى الحياة الحضرية إلى أزمنة ساحقة أضعفت الذاكرة التى طغت عليها القصص والروايات العائلية التى تميل إلى محو ذكرى «الفلاح» لصالح ذكرى «الخواجة».

رأس البر وعلى أقصى طرف النيل

قد يظهر أمامنا أحيانًا شىء عجيب بفضل مسطح مستقر، وهو رأس البر التى تقع فى أقصى قمة فرع النيل الشرقى نحو البحر الأبيض المتوسط، ذلك أن رأس البر تجذب إليها سنويًا آلاف اليهود القادمين من القاهرة، ومن المدن الصغيرة فى الدلتا، أو حتى من الإسكندرية. هنا يتمتع الناس بالاستحمام فى مياه البحر، وهو زمن ازدهار «أصلان كوهين» الطباخ. من لم يسمع عن «أصلان» فى صفوف تلك البورجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية؟ إنه شخص ضخم الجسم، وشرس.. وكصاحب مطعم، وفندق، يقوم بتنظيم الأحداث الترفيهية لتلك الكتلة الهائلة من المدرسين، ومن صغار الموظفين، والتجار الذين دائما على شفا الإفلاس، أو أصحاب الحرف الذين يدفعون فى بطء نحو وضع اجتماعى أفضل سيتيح لهم فى العام القادم تناول شراب العرق وإقامة الصلاة، وحينما تغوص الشمس الساطعة فى البحر الأبيض المتوسط طلب يد إحدى المحبوبات بفضل المستقبل المزدهر الذى يلوح أمامهم.

من يونيه إلى أكتوبر من كل سنة، تقام فى رأس البر عديد من العشش بمعرفة «أصلان» الطيب هذا. وتقام أيضًا العشة الكنيس، حيث يقوم المبشر ـ وهو الجزار الشعائرى ـ بأداء الصلاة بينما تتوجه ابنته مرتدية فستانها فى أوائل ساعات الفجر، وقبل هجوم السياح للغوص فى البحر بعيدًا عن النظرات الكافرة والشهوانية.

نرى على إحدى الصور التى تعود إلى الثلاثينيات من القرن العشرين حاخام مصر الأكبر «حاييم ناحوم أفندى»، ومن حوله عديد من الحاخامين ومن كبار رجال القوم اليهود، حيث يرتدى البعض منهم الملابس الغربية والطربوش، بينما يظهر البعض الآخر بالجلباب والطاقية، أو الجلباب مع الصديرى والطربوش. كما يبدو على العديد منهم وكأنهم خارجون من استعراض للملابس الجديدة. وفيما بين النساء، نشاهد جنبا إلى جنب الفلاحة اليهودية، ونساء لا يسىء مظهرهن أحد الأفلام الجيدة.

لقد جاء الحاخام الأكبر، الدبلوماسى السابق لجمهورية تركيا الفتية، قادما من مدينة «سيفر»، لزيارة رعيته وهم فى حالة ابتهاج. إنه شديد المدنية، وذو ثقافة رفيعة، وهو الذى سوف يؤسس مع «لويس ماسيجون» أكاديمية اللغة العربية بالقاهرة. وهو ما لا يجعله يشمئز من تلك الفتيات اللاتى يظهرن على الشاطىء بلباس البحر، وقد قمن بتقصير شعورهن كما تقول الأغانى التى يرددها رواد ملحات بيع الجعة فى القاهرة.

أعضاء فى البرلمان ومجلس الشيوخ وأحيانًا متمردون

يظهر «حاييم ناحوم أفندى» فى عدسة الآلة الفوتوغرافية مبتسمًا ومرتديًا اللباس التقليدى للحاخامين المصريين المكون من الطاقية السوداء اللون، والعباءة السوداء مع قفطان أبيض اللون مخطط باللون الأسود، ممسكًا فى يده منشة لطرد الذباب؛ يقف بجواره نائبه والحاخام المحلى. لقد كانت تلك الحقبة من السنوات فيما بين الحربين العالميتين مزدهرة للغاية، ومثيرة جدًا بالنسبة ليهود مصر بنفس القدر الذى كانت عليه القرون التى تولى الحكم فيها الفاطميون والأمويون. لقد اندمج اليهود كاملًا كما لم يحدث قبلًا، ولن يحدث فيما بعد. كانوا ممثلين فى البرلمان، ضمن المقاعد الوفدية أو السعدية؛ كما كان «يوسف قطاوى باشا» يمثلهم فى الحكومة، و«حاييم ناحوم» شخصيا فى مجلس الشيوخ. اضطرت عشرات المجلات والدوريات التى كانوا يصدرونها بالفرنسية، والعربية، والعبرية، والعبرية ـ الإسبانية، وكذلك كنائسهم ومدارسهم الدينية، إلى التعايش مع المدارس اليهودية العلمانية ومع البعثة العلمانية الفرنسية. أما حركات الشباب والكشافة، فكانت تعبئ أعضاءها فى صفوف الشباب اليهودى من طنطا، والقاهرة، وميت غمر، والإسكندرية. ألا يقال أن هذه الحركات

جذبت الشباب إلى درجة أن المسنين المتشددين كانوا يفضلون ربط أولادهم بحبل فى رجل السرير حتى لا يهربوا عند نزول الليل للحاق بذويهم؟ ومع ذلك، سوف يواجه عديد من الشباب تهديد الضرب بالكرباج، وسيكتشفون هكذا متعة ترتيل الأناشيد الدينيـة فى الهـواء الطلق بعيدا عن الكنائس المعبقـة برائحة الدخان البارد والكتب المتعفنة. إنهم سوف يورثون هذا التمرد ـ غصبا عنهم ـ إلى أولادهم الذين سافروا بعد سنوات إلى الغرب، وسيحتفظون فى ذاكرتهم بصور مزرعة النخيل، والجد المعتدى بالكرباج، وأنغام الصلوات التى يكاد لا يمكن تمييزها عن صوت العود.

الموسيقى

ومع ذلك، فإن أماكن الحج والعبادة تلك، سوف تستمر لمدة طويلة لصيقة بتعريف اليهودى المصرى، أو على الأقل هذا اليهودى الذى يكون موقعه فيما بين البروليتاريا الهشة والبورجوازية العليا والمتوسطة، والذى حافظ على الأثر الذى عهد إليه به.

إن من تضايقه فتحات أكمام البدل والصدارى، ومن تخنقه رباطات العنق، والأحذية، سيسرع إلى بيته متلهفا بشعور من الراحة نحو جلبابه وشبشابه. كما أن المتعب بسبب السفر الدائم لمتابعة أعماله، سوف يذهب مساء الجمعة إلى المعبد ليردد بصوت مرتفع «تعالى ياخطيبتى، تعالى يا خطيبتى» التى ألفها الصوفى «شلومو القابس». إنه هذا الشخص الذى يؤكد بايماءة راضية على البركات الكنسية، ويشجع بصوته أو بهزات رأسه الطابع الشرقى فى تمديد الحروف المتحركة، والغناء حتى ضياع النفس، ونزول دمعة على خد أكثر المتشددين.

إن تلك الترنحات الصوفية التى أدخلها اليمنى «شالوم شعرابى» تمثل زمنا معلقا؛ زمن يتوجب فيه على من يؤدى الصلاة التشبع بكل حرف من الحروف التى يتشكل منها النص الدينى الذى يصبح رسالة سرية. هذا الوقت هو الذى يكون فيه المؤمن فى غاية النشوة. يجب أن يتولد ضغط الجسم من انعدام الحركة، خلافًا لما هو متبع فى أوروبا الشرقية حيث من المفروض أن يؤدى تحرك الجسم، والصلاوات الصاخبة إلى الوصول للنشوة نفسها.

كان المصرى يمقت مثل هذا الهياج حتى أن أيام السبت كانت تنطق بداية الآية

«كل عظمى أيها الرب يقول إنه شبيه بك» «كل» (بفتح الكاف) لتفادى الظن أن النشوة تأتى نتيجة لهذا المشهد الذى ينطوى على تحرك الجسم. ومن هنا، من ذا الذى لا يتذكر هذا الشيخ الذى اعتاد على رؤيته سكان ميدان محمد على بالإسكندرية. من ذا الذى لا يتذكر هذا الشخص التقى الذى كان لا يتكلم سوى «اليديش» (اللهجة العبرية ليهود شرق أوروبا ـ المترجم) واللغة العربية؛ وهو الذى أصبح ينطق لغة وسطية تعرب «اليديش» و«تيدش» العربية؛ كان تلموديًا من المتعمقين فى تعاليم التوراة، حيث كان محل تقدير خاص من «اليشيبوث» بالإسكندرية (الأكاديمية التلمودية). كانت خطبه الدينية مشهورة للغاية، وتعليقاته تجذب العديد من اليهود الذين يستمعون إليه كل ليلة سواء فى الكنيس الأشكنازى «نتزاح إسرائيل» بميدان محمد على، أو كنيس «يشيبا هاتيشبى» الذى أسسته عائلة «أبو طبول» بالإبراهيمية، أو فى أى مكان آخر تؤدى الصلاوات فيه. غير أنه عندما تأتى ساعة فتح أبواب «تابوت الكتاب المقدس»، ويترنح جسمه من الاضطرابات، نرى أصغر المصلين سنًا يضحكون، هازئين، بينما الأكبر سنًا يغضون الطرف كما لو كانوا يشهدون انفلاتًا تامًا من أى قدر من اللباقة، يعبرون عن ذلك بإيمائهم حركة شبيهة بتلك الحركة التى يلجأ إليها من يقوم بالضحك، وهو يغطى فمه بكل خشوع.. كما يليق أن يكون.

لقد نسى أغلبيتهم أن هذا الترنم أى التغيير فى نبرات الصوت، كان فى الأصل جزءًا لا يتجزأ من التدريب الروحى. إنهم لا يحتفظون اليوم سوى بهذا التطريز المشكل بدقة من نشيد ملىء بالمتموجات، والذى يتحول إلى مجرد همهمة لا تكاد تسمع ثم تنطلق فى صرخة تجعل الحاضرين يرتعشون، والذين لا يسعهم أحيانًا إلا أن يقولوا «الله» تعبيرًا عن الاعتراف بالجميل وبالسرور الخالص للجمال. لا يمكن أن يتخيل من لم يسمع الأخوين «عكنين» الفاقدين للبصر منذ الولادة وهما يتلوان غناء المزامير فى معبد الإسماعيلية بالقاهرة، أو الحاخام «أنزاروث» يملأ كنيس «بن بوراث يوسف» فى يوم العيد بصرخة «هناك صوت يعلن، ويعلن، ويقرر»، مدى الأثر المذهل الذى تحدثه تلك الأصوات التى تحولت إلى رنين خالص.

ألا يقال إن الذين حافظوا على بعض العلاقات مع الكنيس لديهم قنواتهم الموسيقية، كما يحتفظ آخرون بولائهم لبعض المبشرين.

عن شعائر اليهود المتداخلة

إن ما يهم هؤلاء اليهود الذين أصبح عددهم يقل يومًا بعد يوم هو احترام الشعائر بكل دقة؛ فقد كانت تثور فيما بينهم بانتظام المشادات التى تعود إلى زمن بعيد منذ القرن التاسع، والتى كانت تقسم الطوائف، وتصل إلى حد وقوع انشقاقات خطيرة. لقد سعى يهود مصر طيلة قرون عدة إلى الحفاظ على شعائرهم الدينية التى طالما كانت محل نقاش، من قبل البابليين أولا، ثم من «بن ميمون»، وأخيرًا على يد اليهود المطرودين من إسبانيا، ويهود المغرب. خلال تلك المعارك، هوت عديد من تلك الشعائر، بينما ظلت شعائر أخرى بفضل ما توفر لها من دعم الاستناد إلى هيمنة الشعائر غير المتجانسة. أحيانًا تصبح الشعائر التى يذكرها «الجاعون يوسف الفيومى» حافزًا لإجراء مناقشات، وهى مجرد محاولات بعض العناصر الأجنبية للاستيلاء على السلطة فى الطائفة المصرية. ومن المعروف أن الحاخامين الذين عهد إليهم بالتحكيم فى هذا الشأن، مثل «دافيد بن أبى زمرا» قد كلفوا بالتدخل لتقرير أى من الشعائر ينبغى الحفاظ عليه، وأى منها يحذف ويحظر. وهكذا كان الوضع بشأن العادة القديمة التى لا وجود لها فى المغرب، والتى تقضى بأن يتم تلاوة الابتهالات الإضافية مرتين على صلوات أيام السبت وفى الأعياد. وهكذا رأينا كيف أنه بعد انقضاء قرون عدة كان هناك يهود مصريون معزولون فى المدن الريفية الفرنسية أو البلجيكية يفضلون التردد على الكنائس ذات الشعائر الألمانية حيث يجرى تطبيق تلك العادة عن التوجه إلى أماكن العبادة «السفارادية» خشية أن يواجهوا الخلاف القديم اللاهوتى ـ العشائرى.

وينطبق الأمر أيضا على العادة السابقة على القرن العاشر والخاصة بتنظيم مواكب فى «عيد الأكواخ» قبل قراءة شريعة الله، بينما تجرى تلك المواكب بعد تلك القراءة فى جميع المجتمعات اليهودية الأخرى. كما يتم ذلك أيضًا مع صلاة «كال نيدريه» حيث يعمل يهود مصر بإشراك جميع الغائبين مع كل الحاضرين فى مكان العبادة:

(لقد تعهدنا لهم، ودعونا لهم، وقمنا بالملعنة عليهم، وفصلناهم عنا).

إنها حقًا تفاصيل عديمة الأهمية، وتافهة؛ غير أنها كانت تسمح ليهود حوض النيل بالتمايز، والتأكيد على هويتهم. ولما كان هؤلاء يقضون بالغناء السخيف، وفى

ذات الوقت شديدى الرقة، فإنهم قد عمدوا إلى تجديد نظرية أهل الرأى؛ ففصل لهم بإمكانية تناول شرب القهوة قبل صلوات الصباح التى يجب ـ وفق التقاليد ـ أداؤها فى صيام كامل. ولما كان استحسان يهود مصر الكبير لشراب القهوة، فلقد اضطرت السلطات الدينية التى عجزت عن تغاضيهم تلك العادة، إلى إصدار النصوص ذات التسامح الاستثنائى، والتى تنطبق فقط على يهود مصر دون غيرهم.

فى صباح كل يوم، يقف بإصرار «الكوهانيم» من سلالة الطبقة الكنسية، ملتصقين بظهورهم فى «تابوت العهد»، وهم حفاة القدمين، رأسهم مغطى بـ«التاليث»، وأياديهم ممتدة إلى الأمام وهم يرتلون آيات المباركة الكنسية.

على أن هناك من العادات المرتبطة بأسلوب الحياة العشائرية، والمليئة بالتقوى، التى يعيشها يهود مصر، والتى تستحق المعرفة. فعلى سبيل المثال، ليس من العادات عندهم عزل من أصيب بوفاة أحد من أقرب أقربائه؛ فهناك مكان مخصص فى نهاية المعبد لهذا الحزين، وهو يتوجه إليه حيث يستقبله كبار رجال القوم، ويلتحق بهم كل أفراد الطائفة. وفى نهاية الصلاة، يذهب إليه كل من رئيس الطائفة والحاخام ليحدثاه عن المتوفى، وصفاته وأخلاقه، وعن الحزن الذى أصابه، كما يعملان على تهدئة خاطره.. وعن الوعد بالبعث. وفى مساء يوم السبت، يتوجه إلى داره كل من رؤساء الطائفة، والقضاة الدينيين، للالتقاء به ومشاركته الألم والحزن.

هناك عادة أخرى، وهى الامتناع يوم فيضان النيل عن الاعتراف العلنى، والقيام فى هذا اليوم أيضًا بتلاوة «الهليل» والتى تبدأ بكلمة «هاليلويا»، بينما تذهب أعلى السلطات الدينية إلى الخليج للالتقاء بالرؤساء المدنيين والدينيين لكل من الطوائف الإسلامية والقبطية للاحتفال بهذا الحدث السعيد.

كما تجدر الإشارة إلى العلاقة الغريبة التى تربط اليهودى بـ«التيفيلين» لما كان يهود مصر شديدى الاتصال بالسامريين، ومن القرائين الذين يمتنعون عن ارتداء تلك القطع المستطيلة لاعتبارها من التعاويذ السوقية، كان اليهود الربانيون فى مصر ينتهزون كل الفرص لحملها حول أذرعهم، ووضعها على جبينهم، مما يميزهم عن المنشقين. وهكذا، كان يهود القاهرة يحملون تعاويذهم فى صلاوات بعد الظهر «المنها» التى تسبق ليلة عيد الغفران أو فى أول أيام الشهور القمرية، على الرغم من عدم وجود إلزام

دينى بذلك.. ألم يصل الحال بالبعض منهم إلى وضع تيفيلينين اثنين؟ إذ من المعروف أن تلك العلب الخرافية تحتوى على مستخرجات من «أسفار موسى الخمسة». فيما يتعلق بترتيب كتابة تلك المستخرجات، هناك اتجاهان مختلفان؛ فاتجاه «راشى» ـ أستاذ مدينة «تروا» ـ يضع الكتاب السادس من «أسفار موسى الخمسة» قبل الكتاب الحادى عشر؛ بينما الاتجاه الآخر الذى يضم أقلية صغيرة ويدعو إليه الحاخام «تام» (حفيد «راشى») اعتاد أن يرى العكس. بعض الأتقياء من يهود حوض النيل ـ وهم يعدون الوحيدين من هذا النوع ـ يرفضون الانحياز لأى جانب فى هذا الخلاف بحيث إنهم يأخذون بكل من الاتجاهين واضعين على جبينهم وعلى ذراعهم اليسرى تلك اللفافات. كما أن اليهودى التقليدى يمتنع عن تأدية صلاة الصباح مع حمل تعاويذه يوم ٩ آب فى الذكرى السنوية لهدم معبد القدس، وهو يوم من الحزن والصيام الصارم. وقد استغرب الحاخام «بن سيمون» القادم من القدس من وصول رعاياه فى وقت متأخر لتأدية صلوات الصباح، حيث دخلوا واحدا بعد الآخر فى المعبد الكبير بينما كان الحاخام «بن سيمون» قد بدأ إقامة الصلاة.

كانوا حفاة القدمين، يرتدون أقدم ما عندهم من الملابس التى يلطخ بعضها الرماد والتراب الذى يتم تجميعه فى المدافن؛ وكما هى العادة، كانوا جالسين على الأرض، يبكون فى حسرة على «المنفى»، وهم يتلون رثاءاتهم؛ على أن تأخيرهم فى المجىء إلى المعبد ظل بدون تفسير. بعد التحرى، اكتشف «بن سيمون» أنه من عادات يهود القاهرة والدلتا تلاوة الصلوات فى منازلهم وهم يحملون تعاويذهم.

ومما لا شك فيه أن كافة الحاخامين الآتين من إسبانيا وإيطاليا الذين يتولون مهامهم فى مصر فى العصور الوسطى قد هددوا بتحريم المعارضين المتشددين. ولم يكن أمام «بن سيمون» سوى أن يمنع بحذر تلك الممارسة، دون تحقيق أى نجاح، إذ أنه حتى اليوم لا يزال بعض المؤمنين يمارسون تلك العادة القديمة التى تعد انتهاكًا للحرمات.

هناك أيضًا من العادات القديمة الأقل استفزازًا التى تميز يهود مصر عن غيرهم من يهود العالم؛ هكذا نرى عندهم أن وليمة رأس السنة «روشاناه» يسبقها قيام المؤمنين بترديد مجموعة من العبارات التى كان قد حررها بعض اليهود المصريين.

وهنا يتم تلاوة الآيات التالية اثنتى عشرة مرة:

«لقد رأى نوح الرضا فى عيون الخالق» «وقد راعى اسحاق رى هذه الأرض وباركه الله»؛ كما تتلى آية «لأن يوجد فيك منبع الحياة» عشر مرات؛ ثم تقال الآية التالية سبع عشرة مرة: «نورك هو قوة العادل وفرحة المؤمن»؛ وأخيرا تردد آية «ستقولون بكل من هو حى فلتكن فى سلام وأن يكون محل إقامتك فى سلام وأن يكون كل ما تملكه فى سلام» عشر مرات. هذه التكرارات تذكرنا بحلقات الذكر الإسلامية. لا يهتم المؤمن بالمأساة التى من المفروض أنه يثيرها، حيث يجب أن يظل القائم بها، وقارئها. بعد تلك التراتيل، سوف يقرأ «مقدمة النبى إيلى»، فى كتاب «الاستشراق»، وينهى تلك الصلوات بالنشيد التالى: «فلتبدأ السنة وبركاتها». إن المعنى المصور لهذه الابتهالات سوف يتجسد فى الوليمة الثرية للسنة الجديدة، والتى تبدأ بمباركة الخبز المغموس فى السكر وليس فى الملح، وحيث يتبع ذلك إقامة وليمة من الواجب أن تتضمن رأس سمكة، والكرات، والرمان، والأعشاب، واللوبيا، والبلح، وقطعًا من لحم الخروف.

وفى اليوم التالى على تلك الوليمة، بعد صلاة الصباح حيث يجأر الشوفار «الوعد بالبعث» بعد قراءة كافة المزامير، سوف يجتمع الأتقياء بعض الظهر على ضفاف البحر، أو النيل، أو إحدى القنوات، للمشاركة فى القداس الإلهى لتغطيس الخطايا مع ترتيل: «سوف تلقى كل خطاياهم فى الأعماق»، فيقوم المؤمنون بقلب جيوبهم، وضرب أجسادهم كأنهم يريدون طرد كل الخطايا منه. وإذا وقع رأس السنة يوم السبت، فإن هذا الاحتفال يظل قائمًا بخلاف العادات المتبعة فى البلاد الأخرى كافة.

وهناك أيضًا عادة أخرى خاصة بذلك العيد والتى تقتضى فى اليوم الأربعين السابق على رأس السنة أن يقوم رئيس الطائفة بإعفاء الرهبانية من توسلاتها وتعهداتها، وبعد عشرة أيام (فى الأول من أيلول)، سوف ينهض المؤمنون كل صباح قبل الفجر طيلة شهر كامل لتلاوة التضرعات ولسماع خوار قرن الكبش. كما سيطلب من الأتقياء (وقد يجازون ماليًا لقيامهم بهذا القداس) من قبل كل كنيس دراسة إجمالى «كتاب الاستشراق» و«الكتب الأربعة والعشرين» من الكتاب المقدس اليهودى.

ويقوم الأطفال ـ قبل يوم رأس السنة بأسبوع ـ بوضع القطن فى الصحون العميقة حيث يغرس القمح فيها لينبت فى الوقت المناسب مع حلول السنة الجديدة.

بعد ذلك بأسبوع تقع عشية عيد الغفران؛ عندئذ يقوم اليهود ـ حتى من يقيم منهم فى الأحياء الراقية ـ بوضع جملة من الفراخ فى صالات الاستحمام أو على سطوح منازلهم؛ حيث يحدد ديك عن كل فرد من الذكور، وفرخة عن كل امرأة أو بنت، ليضحى بهم عشية يوم الغفران الكبير. وإذا كان هذا العيد يبدأ مساء يوم الأحد، فإن الأسواق تتحول فى هذا اليوم إلى مذابح حقيقية، حيث يقف على المنضدة من يتولى إتمام الضحية، وعلى ضوء العديد من اللمبات الوهاجة وصراخ الطيور المحتضرة وصياح الجمهور المحتشد والنداءات التى يطلقها باعة الخضر والفاكهة الجائلون الذين ينتعشون فرحًا من تلك النعمة. وتقدم كل عائلة من العائلات، مقدما إما فرخة أو ديكًا لمن يقوم بعملية الذبح (علمًا بأن السيدة التى تكون حاملًا يتوجب عليها تقديم ديك وفرخة فى الوقت نفسه)، ويتم عندئذ ذبح الطير فى ظل همهمة يتم ترديدها آلاف المرات «هذا الذى يحل محل الآخر»، ثم تقدم تلك الطيور المذبوحة إلى «الفقراء» الذين يقفون فى صفوف متراصة حول من يقوم بعملية التضحية. ولا تحتفظ كل عائلة لنفسها سوى بواحدة أو اثنتين من تلك الطيور التى تصاحب الشوربة بالتجارينس ـ وهى العجينة الطازجة التى تعد فى المنزل ـ وتمثل وجبة الطعام التى يتوجب على كل يهودى الاكتفاء بها طيلة فترة الـ ٢٦ ساعة التالية.

من الملاحظ أن الاحتفال بـ «الصيام الكبير» فى مصر لا ينطوى على خصوصية كبيرة؛ ما لم يكن أنه يجب على الأتقياء ـ فى الساعات الأولى من مساء اليوم السابق للصيام ـ أن يتلقوا أربعين جلدة على ظهورهم تكفيرًا عن خطاياهم؛ كما تقوم النساء بإشعال اللمبات فى الكنائس وأماكن العبادة فى ذكرى آبائهن وأجدادهن وأقربائهن.

فى «عيد الغفران» هذا، يمكن ملاحظة تنوع الطوائف اليهودية فى مصر، من خلال تعدد أماكن العبادة المؤقتة التى تزدهر فى هذا اليوم: الكورفويين، وإسبان سالونيك، وإسبان المغرب، ومن هم من أزمير أو إسطنبول يتفرقون فى تلك المناسبة.

ويهجر السوريون من دمشق كنيس يهود حلب، كما ينفصل الألمان عن الذين من شرق أوروبا، ويترك الإيطاليون من عشيرة «الإيطالكى» كنيس يهود « ليفورن» (إيطاليا) السفارديم.

وفى هذا اليوم أيضًا يتم فى المعبد منح إحدى المهام الشرفية بالمزاد العلنى، كما

قد يصل إعطاء شرف حمل السيفر (الكتاب ـ المترجم) «كال نيدرى» مقابل أربعمائة جنيه (أى خمس وثلاثين إلى ثمانين مرة ما يكتسبه شهريا أولئك الذين يترددون بانتظام على الكنائس وأماكن العبادة، والذين يستبعدون فى هذا اليوم الرهيب من جميع المزايا الشرفية).

وأخيرًا، فهو اليوم الذى تدرك الطائفة اليهودية فيه مدى التقدير الذى تتمتع به من قبل السلطات العليا وفقًا لأهمية المندوبين الذين توفرهم السراى الملكية لتمثيلها فى الكنائس الكبرى؛ وعندما ذهب محمد نجيب بنفسه فى العام الأول من الثورة المصرية فى تمام ساعة الـ «كال نيدرى» إلى المعبد الكبير «شعر هشامابيم» بالقاهرة، تنفس جميع يهود مصر الصعداء.

وفى نهاية هذا «الصيام الكبير»، تنصب فى منازل اليهود، وشرفاتها، وأسطحها، الكبائن التى يتناول اليهود فيها الطعام لمدة ثمانية أيام.

تغطى تلك الكبائن بفروع من النخيل، أومن شجر البلح، البعض منها رفيع الزينة بينما الأخرى عادية تماما؛ وفى أماكن أخرى، قد تكون أقل قدرا بكثير من الجمال. فى مصر، الحاخام الأكبر لكل مدينة هو الذى يهدى كبار القوم فى المدينة التى يقوم فيها، ولمختلف الكنائس، وأماكن العبادة «السدرات» المقدس مصحوبا بفرع من شجرة الصفصاف، والريحان المعطر، وقلب فرع النخيل؛ وهى التى ستعين كل صباح على تحديد الجهات الأربع، وكذلك الأفق، والأعماق التى يحكمها الرب.

عيد بوريم القاهرة ـ بوريم «مصرابيم»

هناك احتفاء خاص بمصر، وهو عبارة عن الاحتفال بعيد «بوريم» الخاص بالقاهرة فى يوم ٢٨ آذار من كل عام فى ذكرى ما جرى هذا اليوم من عام ١٥٢٤، حيث أجبر حاكم من المماليك المسمى بـ «أحمد باشا الشيطانى» ـ وهو ابن يونانى اعتنق الإسلام ـ «الشلبى» (وزير المالية) «إبراهام دى كاسترو» على الانشقاق، وصك النقود من أجله. نظرا لولائه للباب العالى، رفض كاسترو، وهرب من القاهرة مسافرا إلى اسطنبول لإبلاغ السلطان سليم الأول عن هذا العصيان.

وعندئذٍ، قام المماليك بالهجوم على الحى اليهودى حيث تم اغتيال خمسة يهود

(منهم أحد القرائين الذى مات نتيجة الخوف، وفقا لما قيل وقتذاك) وطالبوا بمبالغ طائلة من المال على سبيل الغرامة الجماعية تفاديًا لاتخاذ إجراءات ضدهم شديدة للغاية.

تم على الفور إقامة الصيام وتنظيم الصلوات فى العلن التى لم يشترك فيها «دافيد بن أبى زمرا»، وهو أمر يثير الاستغراب. إن الذين تدارسوا هذا الحدث ـ وخاصة «اسحاق حزقييل يهودا» ـ يتوهون فى بحر من الاحتمالات. فهل امتنع هذا الرجل الطاهر ـ الذى ولد فى إسبانيا وقادم إلى مصر من الجزائر العاصمة ـ عن التضامن مع طائفته؟ هل كان يأمل أنه سيحظى هكذا ـ هو واليهود المغاربة ـ بمصير آخر؟ هذا ما لا يعرفه أحد. فقد كتب بنفسه فى وقت لاحق بطريقة تنم على شىء من الخجل أنه امتنع عن الخروج من باب بيته، خوفا من تعريض حياته للخطر. أيًا ما كان الأمر، فإن «أبراهام الكركمانى اليهودى» هو وحده الذى تفاوض مع السلطات المدنية، كما أن الحاخام «صموئيل بن سيد» (المعروف باسم «سيديلليو») هو الذى أعلن فى «كنيس المستعربين» تأسيس نظام الصيام وتلاوة التضرعات.

فى يوم ١٨ آذار، أصدر (صموئيل بن سيد) قرارًا بقيام الصوم العلنى، وخرج مع غروبِ الشمس إلى حارة اليهود، وهو عارى القدمين، مع غطاء على رأسه ووجهه، ممسكًا «السيفر» (التوراة) بين يديه، بينما يتكاثر من ورائه الأطفال، وينفخ الرجال فى «الشوفار» وهم يذرفون الدموع ويصرخون:

«لماذا التغيب يا رب»... «لماذا أنت ساكن لا تتحرك»

أيا كان الحال، فهذا ما جاء فى الحوليات عن تلك الواقعة المليئة بالأحداث المأساوية؛ وتم تأجيل الفدية بعد عديد من المساومات والصلوات حتى وقع تدخل الجيوش العثمانية التى التحقت بالفرق العسكرية الموالية لها، أو التى كانت فى حالة من الترقب. عندئذ، اختفى «أحمد الشيطانى» فى الدلتا، وتوفى فى ميت غمر، حيث كانت تعيش طائفة يهودية كبيرة، والتى لم تشعر بأى قلق من حاكم المنطقة المتمرد. هذا وقد تم إعدام «أحمد الشيطانى» بفصل الرأس على يد العثمانيين؛ كما قيل إن رأسه علقت فوق باب زويلة، على مقربة من الحى اليهودى الذى انطلقت فيه أناشيد الابتهال والشكر. منذ ذلك الحين، يقرأ كل سنة فى القاهرة فى «كنيس المستحرمين»

(المستعربين) «الميجيلاث مصراييم» (لفافة القاهرة) التى تسرد تلك الملحمة على نمط أسلوب «لفافة إستر»، حيث تقرأ كل آية من آياته باللغة العبرية واللغة العربية على التوالى. يعتبر يهود القاهرة هذا اليوم نصف إجازة.

عادات أخرى

هناك عادات أخرى كتلك التى ترتبط بصفة خاصة بـ«يوم الأحزان» فى التاسع من شهر آب، والتى من المهم ذكرها. يمتنع اليهودى منذ الأول من شهر آب عن أكل اللحوم، فيما عدا يوم السبت السابق على الأحزان (ومع ذلك فمن المحظور عليه تناول طير الحمام). فى يوم السبت هذا، لا تذكر الطقوس الأحزان القادمة؛ ويبدو المعبد فى هذه الليلة كأنه خرابة؛ فالنور الوحيد به يلقى ضوءًا خافتًا على المكان الذى تم إخلاؤه من المقاعد والدكك. ويجلس الرجال على الأرض وهم حفاة؛ كما ترفع ستارة «تابوت العهد»؛ ثم تطفأ جميع الأنوار حينما يذكر القائم على القداس عدد السنوات التى مرت على هدم المعبد، ويمتلئ المكان بالبكاء والعويل؛ ثم يفترق المصلون دون أن يتبادلوا السلام. وعندما يرجعون ليلا إلى بيوتهم، يحرصون جميعا على قراءة قصة أولاد «حناه» السبعة الذين فضلوا الموت عن الارتداد عن دينهم، وهم جالسون على الأرض. هذه القصيدة الأسطورية «كيسيث حناه» مكتوبة باللغة العربية الدارجة.

فى يوم الأحزان لا توضع برديات التوراة على المنضدة التقليدية «التبة»، وإنما توضع على منضدة صغيرة حيث تجرى قراءة التوراة بنبرة غنائية منخفضة مليئة بالحزن.

ومع ذلك، فإن الذى قام فى الصباح بقراءة قسم «الأنبياء» فى «التوراة» الذى ينبئ بالمصير الكارثى لليهود، سوف يقرأ فى المساء كلمات العزاء النبوية. فى هذا اليوم الذى يسير فيه الرجال شاحبين، ويرتدون البدل البالية أو الجلابيب المهلهلة، تقوم النساء فى الساعات الأولى من المساء بالاستحمام، والتبرج، ووضع العطور. فهن يمثلن بنات صهيون اللاتى يحتفلن - بعد النواح - بالوعد بنهوض المدينة المقدسة من خرابها فى نهاية العالم.

في عيد «حانوكا» الذى يتم فيه الاحتفال بذكرى انتصار «المكابيين»، يقوم اليهودى من مصر بحرق الزيت فى «الحانوكية» التى يمتلكها، والتى يشعلها كل ليلة لمدة أسبوع، بالإضافة إلى كل صباح فى المعبد. وهو يضع تلك اللمبة على يسار باب الدخول عملا بما أوصى به «إسحاق لوريا»، وليس بجوار أحد الشبابيك. وهى عادة قديمة كان يتبعها اليهود الفرنسيون فى القرن الثانى عشر (ماحزور فيترى)؛ كما تم أيضًا تعديل صيغة المباركة وذلك وفقا لتعاليم «لوريا». فى إطار هذا الاحتفاء بتلك الذكرى، يضع المراهقون لأول مرة «التفيللين»، مما يجعلهم يدخلون عالم البالغين. أما اليوم الأخير من ذلك الاحتفال، فهو يشهد إعداد «الزلابية»، وهى عبارة عن فطائر صغيرة مغموسة فى العسل وتلتهم العائلات كميات كبيرة منها.

أخيرًا، فى أقصى أيام الشتاء بمصر، يجرى الاحتفال برأس سنة الأشجار، حيث تتزين مائدة الطعام بـ ٢٦ نوعًا من الفاكهة الطازجة، والفواكه الجافة بمناسبة «توبشباث» المسمى بالعربية «الخبَّاط» لأن الرياح العنيفة فى هذا الموسم تلقى بضربات متتالية على أبواب وشبابيك المنازل.

إن هذا العناد، والالتزام بصور تحد من المساحة المتاحة أمام اليهودى فى مصر - على غرار عديد من الرموز - من شأنها أيضًا دعم الاحتفالات العشائرية لأنها تهدف إلى استمرار الاحتفال بذكرى «أونياس الرابع»، وهو كبير الحاخامين الصادوقيين ومؤسس معبد «ليونتوبولس» (تل القناطر)، أو الاحتفال بذكرى السلالة المباشرة لـ «بن ميمون» الذى قام بتعريب الشعائر الدينية، ولغة القداس العبرانى، إلى حد اعتبره علماء الدين اللاحقون الذين قدموا من الشواطئ الإسبانية أو من صقلية فضيحة حقيقية.

وهكذا فإن طقوسًا فاخرة كانت تتوج فترات الصيام التى أسسها متصوفو العصور الوسطى. فكان الأتقياء يصومون من شروق الشمس حتى غروبها يومى الاثنين والخميس لمدة تتراوح بين ستة إلى ثمانية أسابيع. على أن هذا الصيام كان يتم التوقف عنه فى «كنيس المغاربة» بالإسكندرية لتناول كميات من الشاى بالقرنفل، وفى أنحاء مختلفة من ذلك المعبد كانت تتم مجادلات تلمودية من شأنها سهر الحرفيين وأصحاب المحلات الصغيرة حتى ساعة متأخرة.

أما فى القاهرة، فقد كان اختتام تلك الفترة من الصيام مصحوبا بإقامة الاحتفالات

الفاخرة. وكان يجتمع اليهود فى الخميس الأخير بكنيس المصريين ـ المعروف باسم «كنيس الأستاذ» ـ وعند الانتهاء من تلاوة القداس التقليدى تبدأ القراءات المكثفة، مع تكرار الجمل؛ كما كانت تتلى أيضًا بعض المزامير مثل المزمار الذى يبدأ بالتالى: «أنت يا من جالس فى السموات»، والذى يجرى تكرار تلاوته حتى ٨٠ مرة. كما كان يتم أيضًا قراءة قسم كتاب «الخروج» وهو «اذهب لرؤية الفرعون»، ثم يعاد تكرار المائة والخمسين مزمارا مرتين حتى سيصبح جمعها نوعًا من الابتهالات؛ ذلك أن مجموع الكلمات- الأرقام لكلمة «كابر» (اغفر!) يبلغ ثلاثمائة... ومع تكرار تلاوة المزامير يعنى ذلك طلب الغفران.

وتستمر القراءة بصوت عال، وهنا يقوم المؤمن بترتيب الفقرات التى تشكل أولى كلمات «مصرايم» فى المزمار الذى يطلق عليه اسم «ألفا بيتا». عندئذ يتم أمام «التابوت المقدس» المنفتح على لفائف البرديات المقدسة ـ التى تعود إلى آلاف السنين ـ التعبير بالصراخ وبالأغانى عن الآية التالية:

«تقبل أغانى شعبك، تولينا بحمايتك، طهرنا من آثامنا أيها الرب الجبار»... وهى التوسلات التى تكون أحرفها الأولى بالعبرية كلمة «اقض على الشيطان». ثم تدق ساعة صلاة بعد الظهر «المنحا» التى يتم تلاوتها فى هذا اليوم الساعة ١٢,٣٠ ظهرا. ثم يؤتى بثور صغير فى حوش المعبد، ويجرى ذبحه وفق الشعائر القدسية، ويوزع لحمه على المشاركين فى هذا الاحتفال، حيث يتم تناول لحمه بعد شيه. لا يجب أن تترك أى قطعة من تلك الدابة التى ضحى بها. يبدو أن هذا هو السر وراء ذلك الاحتفال الذى يقترب من الهرطقة إذا تمعنا فيه.

ففى الواقع، منذ بناء المعبد الثانى للقدس، قامت الطبقة الكهنوتية بحظر أى أضحية (خاصة من الثيران) خارج الدائرة المقدسة... ثم عندما جرى هدم هذا «المبنى»، أعلن علماء التوراة اعتبار أى أضحية من المدنسات، وهى القاعدة التى لا تتحمل أى استثناء حتى نهاية العالم؛ غير أن تلك الأضحية لا يزال معمولًا بها فى «كنيس الأستاذ». هل تمثل ذكرى للطقوس «الصادوقية» من «ليونتوبولس»؟ عامة ما تكون الإجابة على هذا السؤال بعبارة «الله أعلم». يرتبط هذا الفعل الذى يحمل معنى التضحية بالرجوع إلى القراءة المتقطعة للكلمات المرصوصة فى فوضى مقصودة، وإلى الابتهالات،

والنداءات للجبار والرحيم، سعيا إلى تشكيل تكوينات أسطورية غامضة أمام التقى، ثم تفكيكها. وبقدر ما تزداد الكثافة، بقدر ما يبلغ المصلون حالة من السعادة تصل إلى حد الاستمتاع؛ ويفتح «التابوت المقدس» سبع مرات متتالية، كما يجرى تلاوة الصفات الثلاثة عشرة «للرب الذى لا يوصف»؛ وهنا يقف المؤمن فى خشوع، منحنيا، وصوته يملؤه التأثر. يجرى ايضًا إعادة ترتيل المزامير مرات عدة بحيث يغمر المعنى هذا الذى يقوم بأداء الصلاة، ويحدد له لحظة التجرد عن كل شىء، والاستسلام التام؛ ذلك أن هذا الاستسلام هو الذى يجعل فريسته ممن لا تقهر. وسوف يحظون فيما بعد بترف التسامح، والتعايش فيما بين الديانات كما كان يحدث على نطاق واسع فى القاهرة، وخاصة فى مدن مثل طنطا أو المنصورة حيث كانت تلتقى قيادات الطوائف الإسلامية، والقبطية، واليهودية لتبادل بعض الملاحظات والأحكام التى لم تخل من علاقة الصداقة على الرغم من طابعها الإلقائى.

ليلة التوحيد

كان يتميز الاحتفال الذى يتم فى ذات «كنيس الأستاذ» ليلة الأول من «نيسان» (أربعة عشر يوما قبل حلول عيد الفصح اليهودى) بقدر أكبر من الفخامة؛ وكان هذا هو تاريخ يوم رأس السنة اليهوذية فى عصر ما قبل الخروج، كما أنه الاحتفال الذى يستمر يهود مصر الاحتفال به وحدهم على ما يبدو. فى تلك الليلة، يجتمع أهم حاخامى القاهرة حيث كانوا يتناوبون فى إنشاد «الهلليل» الكبير، والمزامير، والتوسلات التقليدية، مع الحرص على أن تلى الآية العبرية ترجمتها العربية. عند منتصف الليل، يهب واقفًا أقدم المنشدين لقراءة «سيدر التوحيد» (كتاب التوحيد) الذى يبدأ بالتالى: «باسم الله الرحمن الرحيم»، وهو مكتوب باللغة العربية الفصحى، وتتلى الأوصاف الإلهية وفقا للطريقة القرآنية مما يعود بالذاكرة إلى تلك التى يستعملها «المعتزلة».

وعندما يتعرض النص لتسمية كبار رجال اليهودية، فنحن نقرأ باستغراب شديد أن «ابراهام» يطلق عليه اسم «إبراهيم الخليل» ـ كما جاء فى القرآن ـ والكاهن الكبير «أهارون» يسمى «هارون الإمام» وأن «موسى» أصبح يحمل ـ على غرار النبى محمد (ﷺ) ـ اسم «موسى رسول الله».

كيف يمكن التصور بأن تلك النقطة القصوى لتعايش يعود إلى القرون الهجرية الأولى لم تطبع اليهودية المصرية منذ القدم حتى الأزمنة المتأخرة من التفرنج؟

لقد قلنا إن تلك الاحتفالات كانت فاخرة، على أنه يجب الإضافة أنها كانت ذات صفة تمثيلية؛ فقد مثلت يهودى «الحارة»، وهو «المستعرب» الذى بلغ البؤس به، بحيث تكونت آنذاك «جمعيات الأخوية» مثل «حبرات مازون» (جمعية الأخوة من أجل الخبز) حتى تجعله لا يموت جوعًا.

إن تلك الاحتفالات التى أصبحت اليوم منفية كانت فى الواقع تشكل مبررًا للغرق فى عبق الشرق، وممارسة الإباحية. ولكن من ذا الذى كان يمكن أن يهتم آنذاك بتلك القلة من أتقياء القاهرة وحياتهم التى غاب عنها الحراك على مدى ألفيتين، واتسمت بعلاقة وثيقة مع الرب؟ لا أحد أو لا أحد تقريبًا. فلقد نسى عديدون مجرد وجود هؤلاء، وهناك عدد قليل من الآخرين الذين يكادون يضفون عليهم اليوم الطابع الأسطورى، أو استعمالهم كزينة أو حلية. غير أن البؤس والظلامية التى كانوا غارقين فيها، إلى جانب هوسهم الدينى وسيطرة الشعائر والطقوس الدينية على أذهانهم، لم يتوقف عن اختراق حياة يهود مصر؛ تلك الحياة اليومية التى يقضيها هذا اليهودى، ويعيش كل هذه الأحداث الصغيرة التى تولد فيه الفرح والحزن فى ذات الوقت، وكذلك العطف مع القسوة الشفهية.

عمال الصباغة فى قليوب ورجال المال فى القاهرة

سوف نحاول الآن تقديم وصف لتلك الحياة اليومية على مختلف جوانبها، والتى ظلت مركزة على هذا الوسط الذى كان يشكل الغالبية الكبرى من اليهودية المصرية؛ وهى التى ظلت محتفظة بقدر من الاتصال مع حارة اليهود حتى وإن كانت قد اتخذت موقعا لها فى العالم الغربى. كانت تشكل بعض العائلات المقيمة فى مدينة «طوخ» الواقعة شمال القاهرة حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط مجموعات متنافسة فى أحيان كثيرة، ولكنها تظل متضامنة فيما بينها؛ وهى العائلات التى تضم أسرًا مثل «ليفى - جربوعة»، و«روسانو»، و«يعبس»، و«رومانو»، و«وهبة»، و«كوهين - صبان»، و«عذرى»، و«شينازى»، و«نحموكا»، و«ندا». انضمت فيما بعد عائلات جديدة قادمة من سوريا ولبنان، مثل آل «لانيادو»، و«دويك»، و«هرارى» و«وايش» إلى تلك

المجموعات القبائلية المنتمية إلى أقدم أصول اليهودية المصرية. كان كل هؤلاء عمال صباغة فى قليوب، وإسكافيين فى شبين الكوم، وتجار أحذية فى طنطا، ومن مصدرى ومورّدى الجلود والأقطان، بل ومنهم من رجال البنوك، أو صغار السماسرة فى كل من القاهرة والإسكندرية. وهكذا نجد بعض المسنين المهاجرين إلى «كيبك» (كندا) أو على ضفاف نهر «الراين» الذين يحكون بانبهار كيف أنهم ـ وهم أطفال ـ تناولوا الطعام مساءً عند عمهم الكبير، وهو أحد باشاوات القاهرة، وذلك فى «الحوش» ملكه بحارة اليهود حيث كان يحيط به الخدم من النوبيين والعبيد من الحبشة.

إنها حقًا حالة من التشابكات البارعة حيث كل امرئ «يحتفظ بمكانه»، على إنه يشغله بطريقة كاملة.

يوم الشباط

هى أيضا تلك التشابكات التى كانت تسمح لأى يهودى من مصر أن يعيد فى بضع ثوان إلى ذاكرته شبكات من التحالفات، والانتماءات، وأن يعرف عدد الحاخامين أو كبار القوم الذين ينتمون إلى سلالة الشخص الذى يتحدثون معه. إننا معنيون الآن بهؤلاء اليهود الذين عاشوا حياة منظمة سلفا فى أدق تفاصيلها. أى أولئك الذين يعنى لهم يوم الخميس تناول وجبة الفول المدمس الذى تم طهيه اليوم السابق فى القدرة النحاسية. وهم الذين يفطرون فى صباح اليوم التالى ببواقى هذا الفول بعد إضافة القشدة عليه. كما أنهم من يتكون غذاؤهم يوم السبت من «الدفينة»، وهى عبارة عن صحن من الفريك أو من حمص الشام تستوى فيه على نار هادئة منذ صباح يوم الجمعة وكل من البيض، والبطاطس، واللحم، أو الكوارع؛ وهى الأكلة التى سوف يستعان ببقاياها لطعام يوم الأحد.

إن من نتكلم عنهم هم أيضا الذين يتوقفون عن العمل أيام الجمعة عند الساعة الحادية عشرة صباحًا حتى يتمكنوا من التوجه إلى الحلاق قبل أن تبدأ صلاة الجمعة عند المسلمين. إنهم هؤلاء القوم الذين تتشكل وجبة غذائهم يوم الجمعة من «الملوخية» صيفا، و«القلقاس» شتاء لأنه من الضرورى قضاء يومين دون تناول اللحوم من أجل استقبال أيام السبت بكرامة وعزة.

إنهم الذين يحل وقت استحمامهم بعد ظهر أيام الجمعة، وهو الحمام الساخن الوحيد طيلة الأسبوع. فى هذا اليوم، منذ الظهر حتى نهاية المساء، نشهد فى الصالة طاسة مليئة بالماء يتم تسخينها على وابور «بريموس»، حيث يتناوب أفراد العائلة الواحدة اغتراف كمية من مائها؛ وهو ما يعد من اللحظات العظيمة التى تمهد للدخول فى قداسة اليوم السابع.

على أن هناك من الاستعدادات الأخرى التى يلتزم بها كافة أفراد العائلة، حيث نشاهدهم يتدفقون منذ يوم الخميس على الأسواق، وغالبا ما كان الرجال هم الذين يتولون تلك المهمة؛ البعض منهم يفضل شراء اللحوم خلال تجولهم فى القرى حيث يمكنهم التأكد من التزام الجزار بالشعائر الدينية، إلى جانب ضمان نوعية البضاعة التى يشترونها.

إنهم يتسكعون فى الأسواق والبازارات، فيتحسسون الخضار والفاكهة، ويحملونها بأيديهم، ويساومون على ثمنها، ثم يبتعدون، ثم يعودون لاختيار هذه الثمرة أو تلك التى وصلت بأعجوبة كميات منها فى اليوم المناسب لأداء الشعائر اليهودية؛ ذلك أن التاجر المسلم أو القبطى يعرف تماما التقويم اليهودى وما يشير إليه من الاحتياج إلى أنواع من الأطعمة الخاصة. فكانت الجرائد والمجلات حريصة بانتظام على نشر كل من التقويم الجريجورى، والإسلامى، والقبطى، واليهودى. كما كان يتوقف العمل تمامًا أيام كل من عيد الغفران ورأس السنة اليهودية وعيد الفصح اليهودى فى المؤسسات المصرفية الكبرى، والمكاتب، وفى بورصة الإسكندرية، وبورصات القطن.

كيف يمكن للتاجر أن يكون على جهل بأنه فى عشية يوم رأس السنة تمتلئ مائدة طعام اليهودى باللوبيا، والرمان، والكرات، والسلق، والبلح الطازج، والقرع؟ وأنه يتم التضحية بآلاف من الفراخ والديوك عشية عيد الغفران، كما أن تناول الأسماك يعد من الأمور الأساسية أيام السبت على غرار وجوب تناول لحم الأوزى فى عيد الحصاد؛ ذلك أن الأوزى تجرى فوق المياه الخفيفة، وهو ما يمثل تقليديًا «التوراة» التى حصل عليها اليهود فى هذا اليوم، مما يعنى أن تناول لحم الأوزى هو فى الواقع الاندماج فى هذا الطين الذى لا ينفصل عن المنظر الطبيعى للريف المصرى وجداول المياه التى تتخلله.

كيف يمكن لتاجر الطيور أن يجهل تلك العادات وهو يشهد «الشوهيت» (الكاهن الذى يقدم القرابين) يجوب أحياء المدينة؟ وعندما يتوقف أحد اليهود عند التاجر ويحدد اختياراته، نرى هذا التاجر يقف فى مدخل محله ويصيح بصوت مرتفع «يا شمعون» أو «يا إبراهيم» لاستدعاء «الشوهيت» الذى يسرع فى المجىء مظهرا شارة مهنته، أى سكين طويل يحمله بكل حذر. إذ أنه يكفى أن يلاحظ أحد زبائنه من المتزمتين أى خدش على السكين حتى يفقد فرصة الحصول على الربح. عندئذ يستولى «شمعون» أو «إبراهيم» على هذا الطير الذى يتلمسه بيديه، ويجرى فحصه، ثم يشد رأسه بعنف إلى الوراء ويقوم بطعنة سكين واحدة ودقيقة بقطع رقبته، ويلقى به على الأرض ثم يتعقبه لتغطية الدماء التى سالت منه بالتراب، وهو يهمهم عند كل خطوة يخطوها «لأن الدماء هى الحياة، لأن الدماء هى الحياة».... وهو المشهد الذى يقوم فيه كل شخص بذات الدور الذى لا يتغير فى الإعداد لتلك الطقوس الكهنوتية التى تحتل مركز حياة المصرى. وتمثل أيام العمل مقدمة نشطة لهذا اليوم السابع، حيث يبدو لنا أن كلًا من الترزى والنجار والصائغ والاسكافى والسمسار والموظف لا يعملون سوى من أجل تلك اللحظة التى سيتوقف فيها الزمن. هناك الآلاف من المحظورات التى ترقى إلى مستوى أدلة الولاء والتشيع المقصود لما يؤدى إلى التمايز عن الآخرين، ولكن أيضا لما يتضمنه من المتعة. إنه اليوم الذى يقوم فيه أشد الاتقياء بلف منديلهم حول الرقبة أو حول المعصم... أو فوق غطاء الرأس، وحيث لا تبقى ساعة اليد محشوة فى غلافها، بل قد يعمل على إبرازها، لأنه إذا كان من شأن حمل أى شىء يعنى الخروج عن قدسية اليوم السابع، فإن حمل هذا الشىء بهدف التزين به يعنى تكريم يوم «الشباط» (السبت). فى هذا اليوم يتم التخلى عن الأحذية ذات الأربطة لصالح الأحذية الخالية من الكعب والرباط، لأن القيام بعملية الربط يعد من الخطايا، وهو ما ينطبق أيضا على إشعال النار، بل يحظر مطالبة غير المؤمنين بإطفاء أو إشعال نور الكهرباء.

هكذا قد حان وقت القيام بطقوس مساء يوم الجمعة، حيث يتوجه رب العائلة مصحوبًا بأولاده لتأدية الصلاة. أحيانا يغيب أحد الأبناء؛ ذلك أنه يسير فى طريق الـ «ابيكوروسيم» والفاجرين؛ ويتابع الحاضرون مشهد هذه المجموعة الناقصة بنظرة مليئة بالأسى، وأحيانًا متلهفة. يظل المكان الذى كان قد خصص لهذا الابن شاغرا لأنه قد

يعود إلى رشده. فأحيانًا يلجأ المصاب «بداء الكفر» إلى الحيل لأن غضب البطارقة قد يكون مرعبًا؛ وهكذا سيدعى أنه كان فى كنيس آخر، تلك التى تكون العائلة غاضبة عليها؛ وهنا تزول كل المآخذ ويبقى الإنسان مرفوع الرأس.

نحن الآن فى صلاة المساء، حيث تتوالى الأناشيد والمزامير. تلك اللقاءات بين الوجوه والأغانى المألوفة هى فى الواقع مقدمة للعودة إلى منزل العائلة التى تعد المشهد الحقيقى للطقوس. هنا، منضدة الطعام معدة بغطائها الأبيض الساطع، وأدوات الأكل اللامعة باستثناء السكاكين، حيث إن هذه المنضدة تمثل الهيكل الذى لا يجوز لأى سلاح أن يشوهه.

على أحد الأثاثات هناك لمبة سهارى ينغمس بها فتيل فى الزيت، وقد قامت ربة المنزل بإشعاله بعد أن تكون قد قامت بتلاوة البركات المعتادة.

يوجد على المنضدة اثنى عشر رغيفًا من الخبز مغطاة بقطعة قماش محلاه برموز توراتية.

هنا يهم رب العائلة ويتبعه أولاده بالدوران اثنتى عشرة مرة حول المنضدة لتوجيه السلام لملائكة الرحمة الذين يحومون حول المنزل أيام السبت. ثم يأتى دور توجيه التحية والتقدير لربة العائلة، وهو ما تستحقه بجدارة لاهتمامها البالغ فى تنظيم وإعداد ذلك الاحتفال الأسبوعى. ومع ذلك، فإن تلك المرأة التى يتحدث عنها «سفر الجامعة» تحولت على يد القباليين إلى مصيبة طقوسية.

يستمر القداس العائلى بالتعليق طويلًا على «كتاب الاستشراق» وهو «الزهار» بالجملة التالية «تذكر يوم الشباط من أجل تقديسه»، ثم تأتى الأغانى التى تركها لنا «إسحاق لوريا» «ها ارى» (الأسد) والتى يجرى تلاوتها باللغة الآرامية، وكذلك دراسة مستخرج جديد من كتاب «الزهار» قبل تقديس هذا اليوم بتناول كأس من عصير العنب الطازج الذى يحل محل النبيذ فى مصر. عندئذ تبدأ الوليمة حقًا بعد أن يقوم الأطفال بتقبيل يد أهاليهم بكل وقار، حيث يبقى هؤلاء الأهل دون حركة فى انتظار التكريم الذى يستحقونه.

فى الشتاء يكون الوقت مبكرًا جدًا لتناول الطعام؛ فيتولى الضيوف عندئذ تلاوة «نشيد الأناشيد»، ثم يأتى دور إنشاد «أسفار موسى الخمسة»، وتتم قراءة كل جملة

مرتين باللغة العبرية، ومرة باللغة الآرامية، وهو ما تبقى من العصر القديم الذى كانت فيه اللغة الآرامية هى لغة الشعب. لم تعد تستعمل هذه اللغة. إلا أن هذا التقليد مستمر، وهو الأهم. فالتقاليد وحدها هى القادرة على خلق ذلك الشعور بالحب، والاستمتاع، والفرح، نظرا لانعدام معقوليتها وتكرارها.

بقى الغسيل المقدس للأيادى وقراءة تراتيل أخرى.. عندئذ فقط يطلق رب العائلة بصوت مكبوت تلك الجملة القدرية (والتى لا توجد فى أى شعائر، ولكنها تنتقل من جيل إلى جيل فى مصر): «تحولت جميع الأنظار إلى الانتظار، وقد أعطيت الطعام للبشر فى الوقت الذى حددته..افتح يديك، وأشبع كل حى وفقا لرغبتك. (فى هذه اللحظة، تتجه جميع الأيادى إلى أعلى، فى حركة انتقلت إلينا من الإسلام). فليبارك الذى يقدس «الشباط». «فليبارك من يخرج الخبز من الأرض...»، وهنا يتم قطع الخبز، وغمسه فى الملح، وتوزيعه على الحاضرين حيث تبدأ وجبة الطعام الذى يتم تناوله حسب الترتيب نفسه كل مرة، أى: السمك المقلى، والشوربة، والحمص الشامى، والفراخ، والخضار، والسلطات، والأرز. أحيانا تتزين قائمة الطعام بطبق المخ. كما تتولد البهجة نفسها بفضل الكلمات المعبرة ـ أو الأقل تعبيرًا ـ التى يتبادلها الضيوف الذين لم يتناولوا وجبات جماعية منذ أسبوع. وإذا كان يهود مصر يخضعون للمقولة الثلاثية وهى الابن الجيد، والزوج الجيد، والأب الجيد، فإنه يحتفظ لنفسه بحق عدم إظهار ذلك، ويلجأ إلى الصمت المطبق أو إلى الانفجار الذى قد يصبح من أشد الهزليات، ما لم تكن علامة على العذاب والقلق الذى يشعر بهما صاحبه.

إنه العذاب والقلق إزاء الغد من وقوع أى مشكلة قد تجعل المستقبل هزيلا، وهى المشاعر التى كان يتقاسمها إجمالى سكان مصر. ينبع هذا الشعور بالعذاب والقلق أيضا من العقيدة المعتمة التى تتراكم فيها مجموعة من التعليقات القانونية والتشكيلات الأسطورية حول مفهوم من المحظورات يستبعد أى احتمال للعفو. يمكن اختصار كل المفهوم الدينى عند اليهودى فى مصر ـ بل كل مفهومه عن الحياة ـ فى كلمة واحدة وهى الجهل؛ أى الجهل بالخطط الإلهية، والجهل فى ذات الوقت بمصير غير أكيد وبماض قد انبطح فى نظره أمام حداثة غامرة. والجهل أخيرًا بما لا يمكنه نقله من تاريخ أصبح هو نفسه لا يعرف عنه كثيرا.

إلا أن كافة أفراد العائلة وضيوفهم مجتمعون الآن حول منضدة وليمة طعام يوم

السبت، والوقوع فى الوجوم يعد إهانة لملائكة السلام، كما أنه يدخل الفرحة فى الكيان الشيطانى. ولذلك نراهم يقومون بتلاوة الأناشيد المهداة إلى «بار يوحاى»، المؤلف المفترض لكتاب «الزهار»، أو التوجه بالشكر بغناء عاطفى إلى «الصخرة التى وزعت علينا الطعام». يجرى كل ذلك إلى أن يفتح باب الشقة، حيث يظهر احد الجيران أو البواب الذى جاء عنوة لإطفاء جميع الأنوار، تاركًا العائلة فى ظلام لا يخفف حدته سوى ضوء الفتيل المغموس فى الزيت والذى سيظل مشتعلا طوال الليل.

صباح يوم السبت، يعود رجال العائلة مرة أخرى إلى المعبد لحضور القداس الذى يبدأ مبكرًا، ويمتد طيلة الصباح. أحيانا، يسبق هذا القداس قداس أقيم خصيصا للذين يضطرون للعمل فى يوم الراحة.

ومن المعروف أن الذين ينتمون إلى القبالية ـ من «بيث إيل»، وهى أخوية أسسها شالوم شعرابى فى القدس فى بدايات القرن الثامن عشر ـ يصلون فى وقت متأخر. إنهم استيقظوا فى الواقع فى الفجر للقيام بتلاوة الجزء الأكبر من الصلاة فى بيوتهم، بينما يركزون على كل كلمة، ويخوضون فى إنتاج تشكيلات من الحروف والأرقام، وهى التمرينات الروحية التى تستهدف «الاقتداء للرب» الذى التمس فى علاقته بالبشر.

أحيانًا تحضر بعض الشخصيات الغريبة التى تضفى لمسة مبتكرة على جماعة المصلين؛ حيث نشهد أحد اليمنيين مرتديًا قفطانًا من الحرير المخطط، ويحمل «التاليث» (خمار الصلاة) ذا الخطوط الخضراء أو البنفسجية، ويقال إنه من كبار صياغ القاهرة؛ كما نرى أحد المجريين بقبعة من الفرو على رأسه، والذى ينطق العبرية بصعوبة كبيرة؛ وإذا ما كانت الصلاة التى يتلوها تستدعى بعض الأجوبة، فلابد أن يتولى أحد المشاركين من الذين يجيدون تفهم اللغة العبرية بلهجاتها المختلفة الإشارة للحاضرين لترديد عبارة «آمين» فى المقاطع السليمة. أحيان يأتى أحد المصرفيين أو من رجال الصناعة يجوب إحدى تلك الكنائس الصغيرة التى تحظى بحسناتهم؛ حينئذ يصبح القائم على قداس المعبد وأمين الصندوق على أكبر قدر من اللياقة وحسن المعاملة؛ فيندفعون نحو القادم لتقديم مقعد الصدارة إليه، بينما يهمهم المسنون: «لماذا لا يذهب هذا الشخص إلى المعبد الكبير الذى تحول فيه فرق الغناء المختلطة لغة القداس إلى إحدى اللغات اللاتينية، ويقدم أحد الحاخامات المواعظ باللغة الايطالية أو باللغة الفرنسية حتى يفهمها من كانت معرفته بالعربية ضعيفة».

إلا أن القداس يستمر بما يحمله من أغانٍ، ولحظات من السكون، وانعدام النظام، والتوقف المطلق عن الحركة. ثم يأتى وقت العودة إلى المنزل، وتناول وجبة الصباح بما يسبقها من تلاوة القراءات التلمودية ودراسة «الزهار». تتكون تلك الوجبة الصباحية من مجموعة من السلطات فقط، ويعقبها استراحة قصيرة يسمح خلالها بتبادل الأحاديث وممارسة الألعاب المختلفة؛ كما قد يأتى بعض الأقارب أو الجيران لإضفاء البهجة على هذا اليوم السابع المجهد.

ذلك أن ساعة صلاة «المنحا» قد دقت، وهو القداس الذى يتم الاحتفاء به فى كل مكان آخر عند نهاية فترة الظهيرة. أما فى مصر، وفى بعض الطوائف الشرق أوسطية ـ دون غيرها ـ فتقام هذه الصلاة عند الساعة الثانية عشرة والنصف، على غرار صلاة الجمعة الإسلامية. يتوجه المؤمنون إلى المعبد للقيام بالصلاة بعد أن يكونوا قد استمعوا قبلًا إلى تعليق علمى على إحدى آيات الكتاب المقدس يتولى عرضه على الحاضرين أحد اعضاء الهيئة الدينية.

تتبع تلك الصلاة تناول الوجبة الثالثة ليوم السبت، والتى تمثل أهمية خاصة لوضعها تحت علامة يعقوب «والد السبعين الذين ذهبوا إلى مصر (مصرايم)، الأب الذى أتاح ـ بما كان يتحلى به من طيبة ـ البقاء لسلالته والنجاة من حروب أجيج ومجيج، ومن مآسى «مصرايم» الناتجة عن تلك المعارك...»

ظل الطعام على نار هادئة منذ العشية، وهو يتكون من الخضروات الطازجة فى الصيف، أى «البامية» أو الفول الأخضر المصحوب باللحم الضانى أوالبقرى، ومن «الدفينة» فى الشتاء. إنها وجبة طعام دسمة، ساخنة، ثقيلة، مليئة بالتوابل، مما يجعل هذا الحارس المجتهد ليوم «الشباط» ممتدًا على مقعده فى حالة صمت تام وذهول مطلق.

لقد حان الوقت الذى يجمع فيه هذا الوالد أولاده من حوله وهو الذى لا تعنيه اطلاقًا العلوم الدنيوية التى يتلقونها والتى تعتبر من اختصاص النساء ليقرأ لهم بابًا من ملخص «شلهان أروخ» (منضدة الطعام المعدة)، وهو تقنين دقيق للتعاليم والحركات التى يتوجب على اليهود المتدينين ممارستها، كما تشير بدقة إلى فردة الحذاء التى يتوجب استعمالها قبل غيرها عند الهبوط من فوق السرير، وإلى أدق تفاصيل التوضئة الشعائرية.

تجرى تلك القراءة باللغتين العبرية والعربية، ثم يجرى التعليق عليها إلى ما لا نهاية؛ علمًا بأن الوقت يبقى محدودًا بضرورة قراءة قسم «المزامير» الخاص باليوم، وكذلك «أسفار موسى الخمسة» و«سفر الأنبياء» عن الأسبوع التالى، مما يتيح لوالد الأطفال التأكد أولا بأول عما عند أولاده من حسن معرفة بالإنشاد التقليدى.

إنها نقطة الالتقاء الوحيدة بين الأب وأولاده، حيث إنه منشغل بنشاطاته المتعلقة بكسب العيش، واهتماماته الدينية الصرف، وأطفاله؛ لذلك، فإن تلك اللحظة المتميزة تبقى منطبعة دون شك بالصراخ والضرب. من هو هذا الأب الشرقى الذى لا يفهم الوصية التى تقول «أعط العلم لأولادك» على أنها أمر واجب التنفيذ، حيث يختلط الحرص على بلوغ الكمال بما للعائلة من كبرياء، وبالحب الذى يتوجب أن يكون مطبوعًا بالشدة فى ذات الوقت؛ وهى الشدة القادرة على توليد الاحترام، وعلى إدراك الصفات الخاصة برب السموات.

إلا أن هذا الوقت يتم اختصاره، لأن بعد ظهر يـوم السبـت هو أيضـًا فرصـة للالتقـاء بكبـار «الدرشانيم»، وهم العلماء والمبشرون الذين تمت تربيتهم فى ذات الوقت على تقاليد المدارس التلمودية وتقاليد قبالى الشرق، والذين يتناولون دون إعداد ـ لفترة ثلاث إلى أربع ساعات ـ التعليق على جزء من آية فى «أسفار موسى الخمسة» أو فى «نشيد الأناشيد»، من خلال الانتقال من مؤلف إلى آخر: من «بهى بن باكدا» إلى «ابرافانل» و«حاييم فيتال» و«جوزيف كارو» و«ابن ميمون» أو «عزرا الجيرونى». وهنا تتدفق حشود من البشر الصامتين تمامًا للاستماع إلى الأستاذ الذى يقدم باللغة العربية الفصحى بنية تفسيرية مذهلة ورائعة. وحتى إن كان الحاضرون يهتدون تأثرًا فى كل مشهد يرونه، فهم يظلون على موقفهم النقدى؛ ولذلك قد يقاطع أحد المؤمنين «الحاخام» بكل أدب وتهذيب، مشيرا إلى أنه قد عثر فى قراءاته على تفسيرات أخرى قد تختلف قليلًا عن تلك التفسيرات. تدفع أحيانا المناقشة التى تدور الحاضرين إلى مواقف حادة، مما يجعل الفتيات الصغيرة الواقفات فى شبابيك المنازل بأحد الأحياء فى القاهرة أو الإسكندرية يتعجبن من رؤية هذا الحماس المقدس الذى يثير تلك الخصومات العنيفة والردود المتوترة؛ أى العبارات على غرار: «عندما يصاب الحديد بالصدأ فلابد من التخلص من هذا الحديد، وإلقائه جانبًا، وعندما يصاب المبنى بالطاعون فلابد من هدمه».

إلا أن كل ذلك يبقى استثناء؛ فغالبا ما تستقبل الملاحظات التى يبديها الحاضرون بكل ترحيب، وهو ما يعد دليلًا على أن الكلمة لا تزال حية والفكر لا يزال يتحرك بسهولة، وعلى نفس القدر من الإثراء.

أحيانًا نرى بعض المؤمنين الذين يرغبون فى الاحتفال بذكرى إحدى حالات الحزن؛ فهم يوزعون على الحاضرين كميات من الفستق، واللوز المحمص، وقطع البسكويت المملح، وايضًا مشروب «العرق». ويستمع الحاضرون إلى «الحاخام» حتى كسوف الشمس وقد امتلأت أفواههم بتلك المأكولات، وتمددت أجسامهم دون حركة. ويجرى كل ذلك حتى ظهور النجوم الثلاثة فى الأفق، إشارة إلى انتهاء اليوم المقدس. قد يمتد هذا الحديث طويلًا لما يحمله من شدة الحماس إلى أن يقوم «الشماس» ـ وهو قداس المعبد ـ بتوزيع فروع القرنفل على الحاضرين خلال شهور الشتاء الثلاثة، والتى سوف تتيح بعدئذ استقبال الأسبوع الجديد بكل احترام وكرامة. ذلك أن القداس الختامى ليوم السبت يتبعه على الفور مجموعة هائلة من الأناشيد الواردة من «لونل» بفرنسا إلى الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. إنها تلك الأناشيد التى تدعو إلى عودة النبى «إيليا»، وهو الذى يعلن عن نهاية العالم. تنتهى تلك الأناشيد بالمباركة التالية: قيام القائم بالقداس وهو يحمل بين يديه كوبًا من النبيذ بالغناء والترنيم بينما الابتسامة على شفتيه حيث تشير الجملة الأولى بكل قوة على نهاية هذا اليوم: «فى ظروف من السعادة، وتحت علامة جيدة، يعلن النبى «إيليا» عن قدومه؛ فلتنزل البركات على دياركم، فلتنزل البركات على أبنائكم وأحفادكم، فلتنزل البركات على من خلق فاكهة شجرة العنب». وهنا يهنئ الحاضرين ابتهاجا: «البركة لمن خلق الأنوار. البركة لمن خلق تلك النباتات العطرية». عندئذ، يقوم جميع الحاضرين بفرك تلك النباتات بين أيديهم حتى يتشرب الجسد بعطرها. «البركة لمن يميز فيما بين النور والظلام وفيما بين إسرائيل وباقى الأمم»، وعلى الجمهور المصلى أن يصرخ بأعلى صوت «آمين». نعم، التمييز شىء جميل، إن التمييز هو المحبة. إن التمييز يستحق العبادة. وبينما يقوم من يتولى القداس بتلاوة البركات المقدسة بعد تناوله جرعة من النبيذ، يذهب الذين يعتقدون فى الخزعبلات ـ تحت أنظار المؤمنين المستفزة ـ ليغمروا أصابع أيديهم فى كوب ثم يضعوها على مؤخرة رؤوسهم، حيث تقول التقاليد إن الإنسان سوف يبعث إلى الحياة انطلاقًا من الفقرتين الأوليين للعنق، ومن شأن هذا النبيذ تأمين إتمام البعث.

يمتد هذا القداس فى كل شهر ببركات الهلال الجديد «بركات هالبانا». وهنا نرى المؤمنين يجتمعون فى مدخل المعبد حتى رصيف الشارع حيث يستغرقون فى تأمل النجم الساطع، ويشاركون بالفرح مع من حولهم بإنشاد الآيات بكل من اللغة العبرية واللغة الآرامية.

إنها حقًا مسيرة مليئة بالتفاؤل حيث نستمع إلى صدى الأناشيد فى منازل القاهرة، والإسكندرية، وطوخ؛ وهى تشكل ختامًا انتصاريًا يغمره الحنين إلى اليوم الذى تبدأ فيه العودة إلى العمل، وإلى الحيل الصغيرة التى سوف تجعل اليهودى على قيد الحياة حتى يوم السبت التالى.

إلا أن تلك الأيام من كل أسبوع تتخللها هى أيضا الصلوات التى تتم مرتين يوميًا كما تتخللها دراسة صغار الأطفال لـ «تعاليم الآباء» و«التلمود» لمن بلغوا دينيًا سن الرشد، أو دراسة «الزهار» لمن زاد عمرهم على أربعين سنة، وكذلك القسم اليومى من «المزامير» و«حق لى إسرئيل». أما بالنسبة لمن هم أكثر تمسكًا بالتعاليم الدينية، فإن اليوم يبدأ مبكرًا عن ذلك، أى قبل ظهور أشعة الفجر. فيقومون بتلاوة قصائد الرثاء المؤثرة المهداة إلى الأمهات اللاتى ينحرهن الحزن وهما «راشيل» و«ليا». إن كل الذين ينتمون إلى مختلف التيارات القبالية يبدأون يومهم وهم حفاة القدمين، ورؤوسهم مغطاة بالرماد، حيث يقومون بالنواح والأنين؛ وينتهى هذا اليوم عندهم بالتجمع حول أحد المفكرين والمعلقين ممن المفترض أنهم توصلوا إلى حد ما إلى خرق غموض النص القدسى. وعندما يلقى هذا التقى بنفسه على سرير النوم، فهو يعمد إلى قراءة مستخرج «أسفار موسى الخمسة» التى تبدأ بالعبارة التالية «اسمع يا إسرائيل»، والمزامير، والابتهالات، ومستخرجات من «كتاب الاستشراق» حتى يهبط النوم عليه؛ وعندما يتجه نحو زوجته، فيكون ذلك بأمل أن تنجب له مزيدًا من الأبناء.

خلال الثغرات التى تخلل هذا الوقت المكرس للدراسة، يقوم هذا اليهودى بالعمل والنشاط. لا يوجد فى مصر موظف دينى، باستثناء بعض الشخصيات الرسمية التى لا تعتبر دينيًا محل ثقة كبيرة.. إن هؤلاء اليهود الذين يعيشون من التسول، والأعمال الحرفية، والتجارة، كانوا يعتبرون أن الهدف من عملهم المأجور هو توفير كمية الغذاء الضرورية للعيش خلال الأسبوع، والكافية لسد حاجات أيام الإجازة بكرامة.

تناقضات

هكذا أصبحت تعبيرات التدين، والتقوى، والبؤس، والتعنت، والجهل بمثابة مرادفات. وسيظهر لنا المنحى الذى يسعى أولئك الذين لا يحلمون سوى بالاندماج فى الحياة المادية على هيئة تائهين. فعلى غرار الإبرة الممغنطة الخاضعة لتأثيرات مغناطيسية ذات قوة شبه مماثلة، سوف تدين البرجوازية اليهودية بولاءات متعددة، قد تكون متسقة مع النظام العثمانى، ولكنها ستثبت فشلها فى نهاية المطاف. ففى الوقت الذى تتشكل فيه الدولة المصرية على النمط الرأسمالى، ستبرز الأقلية اليهودية التى حررها محمد على (مبكرا عن إيطاليا، أو رومانيا، أو سويسرا) أمام المراقب السطحى على هيئة شديدة التضامن، والديناميكية. تحافظ هذه الأقلية على علاقات مع أكثر العناصر التى عفا عليها الزمن على أرض مصر، حتى وإن كانت تفقد أحيانا ذاكرة أصولها؛ أما من الناحية الأخرى، فهى تتقرب من القوى الحاصلة على الامتيازات الأجنبية، ومن البلاط؛ ألا يقال إن الملك فؤاد الأول الذى يكاد يتحدث أو يكتب باللغة العربية ـ وفقا للشائعات الرائجة ـ كان يطلب من عضو مجلس الشيوخ وكبير الحاخامين «حاييم ناعوم أفندى» صياغة خطاباته للأمة؟

منذ ذلك الحين، سيساهم كبار القوم بالطائفة فى الانفجار الاقتصادى للبلاد. فكم من المصارف، والمزارع النموذجية، ومصانع الغزل وحلج القطن، ومعاصر الزيت، وتكرير السكر، وشركات القطارات والنقل الحضرى ساهموا فى تأسيسها! كما ساهموا أيضا فى إعادة إحياء الدراسات العربية، وتأسيس صناعة السينما، ونهضة الموسيقى العلمية. وقد تجسد حبهم لمصر منذ نهاية القرن التاسع عشر فى شخص الرجل الوطنى «يعقوب صنوع»، ولاحقا من خلال الشراكة السياسية مع سعد زغلول، وخاصة مع الوفد. عديدون ممن كانوا يعيشون فى طنطا أو كفر الدوار شاركوا فى ثورة ١٩١٩ ضد المحتل الإنجليزى، كما ناضل كثيرون بكل نشاط فى صفوف الحركات الشيوعية منذ تأسيس الأممية الثالثة. وسيتبنى عديدون قضية ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، سواء بسبب شعورهم الوطنى المصرى أو العثمانى.

يكفى أن نقرأ فى الصحافة اليهودية الجدل الدائر حول الالتزام السياسى حتى نقتنع بذلك؛ فمنذ عام ١٩٢٩، يدعو «موريس فارجون» فى جريدة الوفد، اليهود إلى النضال

فى صفوف هذه المنظمة؛ ويلحق به فيما بعد «فيليكس بن زاكن» (من طنطا)، الناشط الوفدى، ومحامى القضايا السياسية حتى الخمسينيات، كما ينضم إليهما «زكى عريبى»، و«ألفريد يللوز» وآخرون. مع تدرجهم فى النضال السياسى المصرى، سيتابع هؤلاء باهتمام شديد الأحداث التى تدور فى أوروبا، سواء على مستوى السياسة الدولية، أو فيما يتعلق بالطوائف اليهودية. وهكذا، قام سفير ألمانيا عام ١٩٣٥ برفع دعوى بالسب والتشهير ضد «فارجون» الذى كان يتهم هتلر عام ١٩٣٢ بالإعداد لإبادة اليهود. كما سيكتشف فجأة كبار رجال المال من القاهرة والإسكندرية انتماءاتهم الصهيونية مع قدوم اللاجئين من ألمانيا إلى الإسكندرية فى ١٩٣٦، حيث سيخصصون لهم مبلغا كبيرا من المال يسمح بمغادرة مصر، والاستقرار فى فلسطين، وشراء قطعة أرض هناك سيطلقون عليها اسم «كفر يديديا».

أحيانا يتجسد ما يمكن أن نعتبره اليوم دليلا على إزدواجية سياسية عجيبة فى شخصية واحدة. فهكذا يكرس المحامى «ليون كاسترو» كل وقته وجهده فيما بين ١٩٢٢-١٩٢٦ فى الدفاع عن مصالح الأمة المصرية فى إطار المفاوضات الجارية بين الوطنيين المصريين وممثلى الإمبراطورية البريطانية؛ كما أنه يرأس فى الوقت نفسه المنظمة الصهيونية الضعيفة بالقاهرة.

هذا فى حين لم يتوقف المعلم «سوميخ» فى نهاية القرن التاسع عشر عن القول بأنه لا يمكن فصل مصير اليهودى عن مصر؛ وبينما لم يتردد «ماركو باروخ» عن استعمال أقسى الكلمات لإدانة «الحالمين والكفيفين» الذين يقبلون الجنسيات الأجنبية، ويرسلون أطفالهم فى مدارس البعثات العلمانية، أو فى المدارس الدينية الأوروبية.

هل هى ازدواجية حقا؟ قطعا لا؛ فاليهودى ـ مهما كان انتماؤه الاجتماعى ـ أشبه بالمتسول «عبد الله اليهودى»: أى الجلابية والسترة، والطربوش والحذاء.

حتى أسماؤهم تنم عن هذا الخليط؛ فهناك وفرة من الـ«عبد الله ألدو»، و«موسى ـ موريس»، و«هنانل ـ كليمانت»، و«فيليكس ـ سعد»، و«جيمس ـ يعقوب»، و«شحاتة ـ ريمون»، و«عزيزة ـ إيميه»، و«زهرة ـ روزيت». بينما يحمل أحيانا بعض أعضاء أخوية عمال الجلود من قليوب أسماء تشير بوضوح إلى أصولهم الإسبانية.

واللغة نفسها تبدو وكأنها أصيبت بعدوى ذلك الاحتكاك بين اليهود والغزاة

المتتاليين لوادى النيل. ومع ذلك، لم يصنع يهود مصر أى لغة يهودية خاصة بهم، على عكس المغاربة، أو سكان أوروبا الشرقية، أو الإسبان البلقانيين. فقد تحدثوا اللغة العربية، وهى اللغة التى يقرأ بها «سدر التوحيد». كما يقدمون مثالا فريدا فى العالم الإسلامى، حيث تكتب ترجمات كتب صلواتهم بالحروف العربية؛ وهو ما يصح حتى آخر الإصدارات لتلك الكتب فى عام ١٩٤٧.

وإضافة إلى ذلك، يتم تدريس اللغة العبرية فى كتب محررة باللغة العربية؛ وهكذا ينشر «فرج حاييم مزراحى» عام ١٩٠٦ فى الإسكندرية كتابا بعنوان «تعليم اللغة العبرانية»؛ كما تحمل أجزاء من «الجنيزة» النص العبرى مع ترجمته العربية على نفس الصفحة.

ويمكن القول أنه على غرار مصر التى تحكمها سلالة ألبانية فى بلاط يتشكل من أفراد الأرستقراطية التركية الناجين، وبواسطة مجلس ملكى يتحدث لغة عربية ركيكة، كانت تسيطر على الطائفة اليهودية فى مصر أقلية كثيرا ما ربطت نفسها، كما ربطت الأمة التى تتحمل مسئوليتها، بمصالح وهموم التاج والمندوب السامى البريطانى.

إلا أن «رينيه بك قطاوى» حاول فى ١٩٤٣ أن يعيد تنظيم أمور الطائفة اليهودية بالقاهرة، من خلال إطلاق حركته باسم «الإصلاح». والغريب أنه كانت مدارس الطائفة تقوم - فى الوقت نفسه - بإعداد ٢٠٠٠ طالب للحصول على شهادة البكالوريا باللغة العربية؛ وهم الطلبة الذين شكلوا مع طلبة مدارس التدريب المهنى (مثل مدرسة «سلمون شيكوريل» بالقاهرة، ومدرسة الفنون والمهن بالإسكندرية) شريحة الموظفين، والفنيين، والمهندسين الذين تلقوا تعليمهم باللغة العربية، وتربطهم علاقات بجمهور اليهود «المعربين» الذين تنتمى أصولهم إليه. أما الطلبة الآخرون، فإنهم يذهبون إلى المدارس الخاصة الفرنسية للطائفة، مما يمثل نوعًا من التمييز المزدوج؛ وهى المدارس التى ضمت «مدرسة بارونات منشه»، ومدارس «جابس»، والمدرسة الراقية التى أسسها الماسونيون بالإسكندرية، أى مدرسة «الرابطة اليهودية للتعليم».

ومع ذلك، لم يكن الفصل بين المجموعتين مكتملا تماما؛ فعلى الرغم أن عديدين يسعون إلى التكلم بالفرنسية فقط، تظل اللغة العربية هى الوحيدة التى يعرفها بعض الأقرباء. ومن جهة أخرى، كان ينبغى التواصل مع آلاف الأرمن، واليونانيين، والشوام،

والإيطاليين، والمالطيين الذين يعيشون فى مصر. وهكذا برزت لغة فرنسية مصطبغة بكل اللكنات والمعاملات الخاصة بموانئ الشرق. وقد تغلغلت هذه اللغة حتى فى أوساط «تلك الكتلة الممتلئة بالفقر التى تغادر أوكارها فى سوق السمك القديم، وممتلكاتها فى حوش الحنفى وحوش النجار، للتوجه يوميا إلى الجمعية الخيرية للطبيخ الشعبى، مجرجرة أحذيتها البالية فى شارع تتويج فى يوم «روش حوديش»» وفقا لما جاء ـ بكل استهتار ـ على لسان «نورى فرحى» فى ٧ نوفمبر ١٩٤٥.

هذه الكتلة تتحدث العربية، ولكن نسمع أحيانا كلمة برتغالية (مثل «باكالاه» أو «إسكولا») تتغلغل هذه اللغة؛ وهو ما يذكرنا بنداء «روبابيكيا» (ذو الأصل الإيطالى) الذى يستعمله بائعو الخردة من المسلمين واليهود.

ومن ثم، نجد أن معابد القاهرة الـ٢٧، إلى جانب الـ١٣ معبدًا الموجودة بالإسكندرية و١٦ معبدا فى مناطق أخرى من البلاد، والمدارس التلمودية، أو الجمعيات العلمية، والمدارس العامة أو الكتاتيب التى تستقبل الأطفال منذ سن ثلاث سنوات، وحضانات الأطفال المصممة على أحدث طراز، كانت تقدم تشكيلة لغوية واجتماعية واسعة التنوع.

من شأن المرء أن يتساءل فى أى مكان خيالى يتواجد حينما يشاهد فى يوم «بوريم» الخدم يهرولون من حى إلى حى، حاملين الصوانى الفضية المحملة بحلوى «وذان همام»، و«سنان همام»، و«الغريبة»، و«المنين»، و«الكعك» للالتزام بطقس «تبادل الهدايا»، بينما ينقض المتسولون اليهود على الأحياء الراقية؛ كما من حقه أن يستعجب بأى لغة يتواصل أولئك وهؤلاء.

نحن هنا فى نادى «سبورتنج» ـ الذى له طابع النادى الإنجليزى المغلق ـ حيث تجتمع كل مساء النساء حول ألعاب «البوكر»، أو «البريدج»، بينما نجد الرجال والنساء المنتمين إلى نفس الأسرة أو القبيلة يمارسون تلك الألعاب مساء السبت والأحد.

ولكن، فلنكن عادلين؛ فهؤلاء الناس قادرون على إظهار قدر كبير من الشجاعة؛ فحينما أطلق مسيحيو مصر فيما بين ١٨٧٠ و١٩١١ اتهاماتهم ضد اليهود بممارسة القتل العشائرى، نشط هؤلاء بلا حساب، مقيمين الدعاوى فى المحاكم، ومتصلين بالخديو، والسفارات الأوروبية، أو حتى ببابا الأرثوذوكس فى القسطنطينية.

كما كانت هذه الطبقة الأرستقراطية تدعم الأعمال الخيرية التى تتراوح ما بين عشرات المعاهد الخيرية، والمدارس، والمستشفيات القادرة على استيعاب حتى ٤٠٠٠ مريض والتى ارتبطت بأكبر أسماء الأطباء الأجانب، والمستوصفات (حيث كان يعالج عام ١٩٣٦ ٣٠٠٠٠ مريض من القاهرة، و٢٠٠٠٠ من الإسكندرية، ينتمون إلى جميع الملل)، وخدمات العناية الطبية المنزلية، ومساعدة الفقراء واليتامى والمسنين، والنوادى الرياضية، والحلقات الدراسية. أحيانا ما كان يحمل هؤلاء الأرستقراطيون ألقابا (مثل: بك، أو باشا، أو بارون)، ومع هذا كان ينظر إليهم فى السر ببعض الاحتقار. ذلك أن كل ما يتعلق بأسلوب حياتهم ومعتقداتهم يميزهم عن الجماهير؛ فجميع هؤلاء الرؤساء، وسكرتيرى الجمعيات الذين يقدمون بكل كرم جزءًا من ثرواتهم للحصول على بعض التكريم لا يمثلون أى حقيقة مجسدة لحماية المحتاجين؛ فهم مجرد أسماء كتبت حروفها بماء الذهب على أبواب المستشفيات، أو المعابد.

المناضلون هم الذين يلتقون بالبروليتاريا الرثة؛ إنهم ينتمون إلى أسر ميسورة، وقد أدت أحيانا مشاهدتهم لهذا البؤس إلى صدمة حقيقية بالنسبة لهم. إنهم يمضون أى وقت فراغ يتركه لهم أعمالهم فى جمع التبرعات ثم إعادة توزيعها على سكان هذه المناطق الفقيرة. كما يقومون أحيانا بإنشاء جمعية، أو مركز اجتماعى، يتولون مباشرة إدارته، إنهم هؤلاء الخيرون الذين يصبحون الموظفين المتطوعين والمجهولين لتلك المنظمات. وعند وفاتهم سيطلق عليهم تعبير «رودف ها سيداكوت» (أى الذى يجرى من أجل الخير وتحقيق العدالة).

قد يطرأ وضع طارئ يتطلب تأسيس لجنة تظل عالقة فى الذاكرة. وهكذا، أثناء معركة العلمين، أدى إمطار الإسكندرية بالقنابل فى عام ١٩٤٢ إلى هروب عدة آلاف من فقراء المدينة خارج الإسكندرية. وقد لجأ ٣٠٠٠ من هؤلاء إلى القاهرة حيث تم إيواؤهم فى معابد حارة اليهود؛ كما نظم المتطوعون وسائل توفير المأكل، وحدًا أدنى من الظروف الصحية الملاءمة؛ وسعوا إلى إعادة تسكينهم فى مدارس «السكاكينى»، وفى ملحق معبد «بن عزرا» فى الفسطاط، أو فى المدرسة القرائية.

وفى الوقت نفسه، كانت الإسكندرية تستقبل ما يقرب من مائة يهودى ليبى هاربين من مناطق القتال؛ فقام أفراد من الطائفة بإيوائهم فى البناية المسماة «وكالة الليمون»،

واستطاعوا البقاء على قيد الحياة بفضل كرم مضيفيهم، ومساعدة فقراء اليهود القليلين الذين كانوا لا يزالون فى الإسكندرية.

غير أن معركة العلمين لم تكتف بإدخال رؤية مبتكرة لأوروبا إلى مصر؛ وإنما سمحت بلقاءات لم تكن متوقعة؛ فكثير من يهود الإسكندرية انتشروا فى مدن الدلتا، أو لجأوا إلى مواطنهم الأصلية، حيث عاشوا جزءًا من الحرب دون المعاناة من أية محظورات. ولم يكن نادرا آنذاك أن ترى فلاحًا شابًا يوجهه فلاح أكبر سنا، يتوجه إلى اللاجئين اليهود حاملا البط، والخرفان، وشكائر القمح فى تلك الأزمنة الصعبة. وحينما يستغرب أحد الجيران، كان يقول الفلاح العجوز بنبرة لا تحتمل الرد: «إنهم أحفاد حبيب، أو إبراهيم، أو موسى؛ وواجبنا هو إطعامهم».

وعند العودة من القاهرة أو طنطا، كان يهودى «سوق الترك» يلاحظ الهوة التى تفصله عن أولئك الذين جمعوا الثروات أثناء الحرب، أو تعاملوا مع أوساط مشكوك فيها للحصول على فتات إضافى من السلطة؛ حينئذ، كان يقول ذلك اليهودى الذى أصبح أكثر فقرا عن ذى قبل، إنه لن يقايض حياته البائسة مقابل حياة هؤلاء الكلاب الذين يعيشون مثل شخوص روايات «لورانس دوريل». أما فيما يتعلق بهذه الثروات المستقرة، وطغيان بعض قيادات الطائفة، فكان يهودى «حوش الجعان» يطلق بضحكة كبيرة (على طريقة الحشاشين الذى قد يكون واحدا منهم) «من برة مرمر ومن جوة براز»؛ وهو ما كان يسمعه أكثر اليهود تشبها بالأوروبيين.

فكيف له ألا يسمع ذلك؟ ففيما عدا بعض المتخاذلين، كانت تنتمى الأغلبية العظمى لهؤلاء اليهود إلى الأقلية نفسها؛ وهم بهذه الصفة ينتمون إلى التاريخ نفسه.

فلنأخذ مثالا خارج مصر ليلقى علينا بعض الضوء. كثيرا ما كان كبار البرجوازيين اليهود فى وارسو يصوتون لصالح المارشال «بيلسودسكى» أو لصالح أى حزب معتدل؛ وكانوا يجهلون لغة «اليديش»، كما لم يميزهم عن باقى البولنديين من نفس الطبقة سوى أشياء ضئيلة. ومع ذلك، حينما تسترجع السينما، أو الذاكرة، والأدب صورة اليهودى البولندى، فإنما لا تتطرق إلى وجوه هؤلاء الأرستقراطيين، بل تهتم بإبراز يهودى القرى أو الأحياء الفقيرة، أو الشيوعى، أو عضو إحدى الحركات «الحاسيدية» العديدة.

إنهم يجسدون اليهودية البولندية على عكس مثال يهود فرنسا فى القرن التاسع

عشر الذين يصورهم خيالنا على هيئة أشباه «بيريرى»، و«مانديس»، و«موسى»، و«لامبير»، و«كريميو»، أو «دريفوس»، بدلا من التفكير فى الباعة الجائلين من إقليم «الألزاس».

وهكذا، فإن الذاكرة تحتفظ بأولئك الذين يمثلون من خلال اختلافهم أو تباينهم مع الأمم اليهودية الأخرى فى الشتات حقيقة البلد الذى هم انعكاس لصورته.

من أجل إعادة تشكيل وضع اليهودى من مصر، ينبغى أن نقوم برسم صورة مشوهة لهذين الواقعين المتطرفين فى اتجاهات معاكسة. فإذا ما عدنا إلى الروايات، والمذكرات، والحوليات الخاصة ببدايات القرن العشرين، سنجد ـ على سبيل المثال ـ أن هناك لغة جديدة فى طور التكوين بالقاهرة أو الإسكندرية؛ إنها لغة هذه البرجوازية المتوسطة الشرق أوسطية التى تتفتح نحو الغرب؛ وهى لغة مكتظة بالعبارات القديمة، مطعمة بالألفاظ الإنجليزية، وبتصريفات لغوية عربية، أو مالطية أوعبرية. تزداد هذه العبارات الدخيلة وفقا للطبقة الاجتماعية، إلى الحد أنها قد تتحول إلى لهجة بديلة.

هنا، تحدد اللغة الشرق أوسطية الاختلاف، والتمايز عن الشعب المصرى، وعن كتلة اليهودية المصرية. فيما عدا استثناءات بسيطة، تستند السمات المميزة لمن يوصف هنا باليهودى المصرى إلى العناصر الثلاثة التالية: استعمال اللغة العربية (إلى جانب لغات أخرى)، والتمسك بنمط الحياة التقليدية (مما لا يمنع تبنى عادات وسلوكيات جديدة عند الأكل، أو الحب، أو فى الحياة بصفة عامة)، والاعتراف بتشكيل ثنائية اليهودى ـ المصرى الذى لا يمكن أن يخفت أحد أطراف هذه الثنائية دون نزع الصلاحية للطرف الآخر.

قد يشير هذا الحب والحنين لدى بعض المنفيين نحو تلك التقاليد، واللغة العربية، والأرض المصرية، والأشكال المألوفة، والطعام، إلى استمرار وجود نقاط مرجعية لهويتهم.

عيد الفصح اليهودى فى مصر

إننا فى عيد الفصح مع كل ما يتطلب من إعداد دقيق؛ منذ اليوم الأول لشهر نيسان (أى ١٤ يوم قبل العيد)، يستقبل معبد «الأستاذ» بالقاهرة هذا الشهر الأول فى السنة

بليلة «التوحيد» الكبيرة. وفى أماكن العبادة الأخرى، يستغرق المؤمنون فى دراسة «ليمود روش هوديش نيسان» (دراسة الأول من نيسان) الذى أعد نصوصه الصفاديون من خلال مزج نصوص من «الزهار»، والابتهالات، وبعض نصوص «أسفار موسى الخمسة». تستمر هذه الدراسة لمدة ثلاثة عشر يوما مع استرجاع قداس معبد القدس؛ وتنتهى فى ذروة اليوم الرابع عشر مع التنبؤات المريحة لزكريا الثانى، والتى يرتلها جموع المصلين أثناء صلوات الصباح.

غير أنه لا يمكن فصل هذه المقدمة الطويلة فى المعبد عن الاستعدادات اليومية المرئية بطريقة مباشرة. فهناك محال تفتح أبوابها لمدة خمسة عشر يوما فقط لتبيع الخبز المسمى بـ«الأزيم» (الخالى من الخمير)، والنبيذ المستورد من فلسطين أو الذى تتم صناعته يدويا حينما تكون الطرق مقطوعة، والجبن والفطائر التى تم إعدادها خصيصا لهذه المناسبة. أحيانا ما تتم عمليات البيع تلك فى ملاحق المعابد حيث توزع بالمجان على أفقر الفقراء. كما يباع البلح، والعنب، والفواكه المجففة، وأصابع السكر. وهى أيضا فترة الدهان السنوى للمنازل، وزمن النشاط الفائق. يتم إعداد «الحاروسيث» التقليدى قبل أسبوع من الاحتفالات؛ فعلى مدى ساعات طويلة، تقوم النساء القرفصاء بنزع نوايا البلح، وتنقية الزبيب والعنب الأسود، وطهى هذا الخليط على نار هادئة حتى يصبح مربى ثقيلة ومتجانسة يرش فوقها الجوز واللوز المدهوك ـ أى هاون العبرانيين الذين كانوا عبيدا فى مصر القديمة ـ وهو أيضا زمن تنقية الأرز ـ الذى يسمح بتناوله خلال عيد الفصح فى منطقة وادى النيل ـ حتى لا تتسبب حبة منه قابلة للتخمر فى إفساد العيد؛ وهو الوقت الذى يتم فيه تحميص البندق، والفول السودانى، واللوز؛ وهى المكسرات التى يتناولها هؤلاء اليهود أثناء أيام الاحتفالات الثمانية؛ كما أنه فترة تجهيز الملابس الجديدة بالنسبة للجميع.

سوف تنتهى هذه الاستعدادات الطويلة فى الأيام الأخيرة السابقة لعيد الفصح؛ فيذهب الرجال والنساء إلى النحاس محملين بأوانى المطبخ؛ يقوم الحرفى بعمل حفرة فى الأرض تملؤها النار، ثم يأخذ الأوانى الكبيرة ويغطيها بالتراب والرماد، ويجلى برجليه الوعاء من خلال سلسلة من الحركات نصف الدائرية، وكأنما يرقص رقصة «الشارلستون». بعد ذلك، يضع الأوعية النحاسية فى النار، ويغطيها بطبقة من القصدير، ويغمرها فى الماء البارد. هذه العملية ليس لها أى طابع استثنائى؛ إلا أنه فى

هذا اليوم الذى يسبق العيد، هناك يهودى من كل ملة يحضر «الأغالا» تطوعيا لمباركة الطقس.

وهكذا، من استعداد لاستعداد نصل إلى «ليل شيموريم» (أى ليلة السهر). لقد تم إخراج أى خميرة من البيوت، كما حفظت جميع الأدوات المنزلية فى حجرة مغلقة خارج المنزل، بينما تظهر أطقم الصينى المكرسة لعيد الفصح.

انتظارا لليلة العيد الأولى، يتم تناول الوجبتين الأخيرتين وقوفا، فى أحد الممرات، أو على ركن طاولة، وكأنما الأمر يتم قبل سفر متسرع؛ ثم يجمع آخر فتات الخبز المنثور فى المنزل، ويلف فى ورقة ويحرق بعد ترديد العبارة المعتادة، ويلقى فى أحد جداول المياه.

جاءت ليلة العيد حيث الطاولة مجهزة؛ هناك على صينية ثلاث قطع من الخبز «الأزيم»، وثمرة خس، والكرفس، وعشب «الهاروسيث» ذو الطعم المر، والبيض المسلوق الذى يذكر بحزن الرحيل، ووعاء الماء المملح أو المخلوط بالخل، وأخيرا عظمة من الخروف المشوى ملتصق بها قطعة من اللحم والذى يرمز إلى «الذراع الممدودة» التى أشارت إلى الطريق للعبرانيين المغادرين من مصر. هناك كتاب موضوع أمام كل ضيف؛ إنه «الهاجادا» التى تقرأ ليلة عيد الفصح وتحكى قصة الخروج من مصر. لقد قام «هلال فرحى» بترجمتها إلى العربية، كما قام بإصدارها فى حارة اليهود «شموئيل رحامين أشير»، أو «فيليكس مزراحى، أو «سالمون برسانو»، أو «شالوم إيليملخ». هناك إصدارات عربية أخرى لهذا النص منسوخة بالعبرية، مثل النسخة التى أصدرها «يعقوب بن عطار» فى الإسكندرية. إلا أن النسخ الفرنسية - المطبوعة فى فيينا أو فى الإسكندرية تحت رعاية الحاخام الأكبر، أو فى القاهرة بواسطة «فيليكس مزراحى» - بدأت تنتشر، كما توجد نسخ أخرى مترجمة إلى اللغة اليهودية الإسبانية.

أما رب الأسرة، فأمامه أيضا نسخ أقدم تتضمن تعليقات «أبرافانيل» أو «أبو دراهام»، والتى سوف تكون مجالا لجدل لا نهائى. الداعى الليلة هو أكبر أفراد الأسرة سنا، أو أكثرهم تقوى. لقد ارتدى المؤمنون خمار الصلاة فوق جلبابهم، ويستعد الشباب الأصغر إلى بدء لعبة الأسئلة والإجابات. قبل بدء ترتيل القصة البطولية، تصطبغ

تلك الليالى بنغم..النشيد الملكى المصرى؛ ثم يتناول الحاضرون النبيذ، ويأكلون فرعا من الكرفس المغموس فى الماء المملح. يتقدم أصغر الأطفال سنا، ويمسك الأب بقطعة من الخبز «الأزيم» الذى يرمز إلى قبيلة «ليفى»، وينطق باللغة العربية: «على غرار سيدنا موسى الذى قسم البحر نصفين، فإننى أقسم هذه الفطيرة نصفين؛ فليفتتح النصف الأول الوجبة التى نتناولها، وليختتمها النصف الثانى»، حيث توضع هذه القطعة الأخيرة فى الكيس الذى سوف يحمله الصغير على ظهره؛ ويبدأ الحوار التالى بين الأب والابن:

«من أين أنت قادم؟

- أنا قادم من مصر.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا ذاهب إلى القدس.

- فلتأخذنى معك.

- فى العام القادم.»

ثم يرتل الحاضرون فى صوت واحد الآية التى تصف خروج اليهود بناء على أمر موسى، بعد أن خبأوا تحت معاطفهم المشنات المتضمنة لعجين الخبز الذى لم يختمر بعد.

لا يحتوى أى من الكتب الموضوعة أمام المدعوين على هذا الحوار؛ فهو ينتقل من أب إلى ابن؛ فإلى أى ماض ينتمى؟ ما زلنا نسمعه عند اليمنيين. هل كان موجودا فى مصر أثناء فترة «بن ميمون» الذى أثر كثيرا على طوائف اليمن؟ هل هو الذى أدخله إلى مصر؟ لا يبدو أن أحدا يعرف الحقيقة؛ ولكن العادة جرت على تبادل تلك الكلمات التى يلتزم بها الجميع دون الشعور بذرة من السخرية.

تعد هذه الليلة نوعا من الاستفزاز، إذ يعرف اليهودى أنه هو الذى خرج من مصر؛ وها هم كل أولئك الذين خرجوا من مصر. المصريون مجتمعون هنا للاحتفال بالخروج من مصر؛ إنها مثل لعبة المرايا الخادعة؛ فهؤلاء الذين يحتفلون بذكرى أكثر عمليات النفى مرارة، يجلسون هنا ـ حتى أكثرهم تقوى ـ فى أوضاع مشابهة للملوك.

ثم يأخذ الأب قطعة الخبز ويطلب فتح باب الشقة وهو يغنى: «هذا مثل خبز البؤساء الذى أكله أجدادنا فى مصر»؛ لا نجد تعبير «مثل» الموجود فى هذه العبارة سوى فى مصر، حيث دفعت الروح المحافظة إلى احتفاظ المصريين به، بينما اختفى لدى الطوائف الأخرى فى العالم.

ثم تستمر تلاوة القصيدة الأسطورية، مع ترجمة كل مقطع إلى اللغة العربية، إلى أن تأتى اللحظة المقدسة التى تذكر بآفات مصر العشر. يجلس الرجل وبيده كأس من النبيذ، وتقف زوجته حاملة فى يد وعاء النحاس الذى يستعمل للوضوء، وفى اليد الأخرى إبريق ملىء بالمياه. مع كل آفة مذكورة، يلقى الرجل فى الوعاء بضع قطرات من النبيذ، كما تلقى الزوجة بعض قطرات من الماء. بعد تلاوة الآفة العاشرة، يقوم الرجل بسكب باقى كوب النبيذ الذى يشطفه. إنه طقس عجيب، ليس له تفسير، ويترك المدعوين فى حالة تسمر.

تستأنف الرواية، بينما يسترجع الحاضرون قصص الاتهام بالجرائم الشعائرية التى تعود إلى القرن الرابع عشر، أو قصص لحكام دمويين من المماليك. ويستمر الأمر إلى أن يتوقف النص عند مباركة النبيذ الثانية، يليها مباركة الخبز «الأزيم». تلك اللحظات التى ينتظرها الجميع تسمى «اللقمة الصغيرة» و«اللقمة الكبيرة»؛ وتتمثل «اللقمة الصغيرة» فى تناول العشب المر بين شريحتين من الخبز؛ أما «اللقمة الكبيرة»، فهى عبارة عن تغليف قطعتين من الخبز بالكرفس، والخس، والأعشاب المرة المغموسة فى مربى «الهاروسيث»؛ فيقوم الحاضرون بدفنها فى أفواههم بينما يلطخون ذقونهم وأصابعهم بنوع من الشهوة؛ إنه الحيوان الضحية الذى يأكلونه، وهو ما يستمتعون به؛ وينطبق الأمر نفسه على الوجبة التالية حيث سيكون للخبز الأزيم مكان الصدارة، سواء مع كفتة اللحم فى الشوربة، أو فى فطائر اللحم، أو مع قطع اللحم الكبيرة المحشوة بالبيض المسلوق.

إذا كان الضيوف الأقل تدينا يختفون بعد انتهاء العشاء، يستمر الآخرون فى تلاوة التراتيل، و«نشيد الأناشيد»؛ فالليلة طويلة، إنها رمز للغياب والرحيل.

فى الليلة التالية فى المعبد، قبل بداية العد التنازلى للأيام الـ ٤٩ السابقة لعيد العنصرة

اليهودية، يتلو القائم على القداس مقطعا طويلا من «كتاب الاستشراق». ثم يقوم بإطلاق صرخة لا تحتمل وهو يلفظ بالكلمات التالية: «سوف أمر من فوقك (وهو مكان أو إنسان مشار إليه بالصيغة المؤنثة)، وسأجدك ملطخة بالدماء، ومدمرة» وسأقول لك: «باسم دمك المسكوب عودى إلى الحياة، وبفضل دمك المسكوب عودى إلى الحياة؛ فلتبارك روحى الرب..»؛ هذه العبارة تقال فى مصر فقط، وغير منصوص عليها فى أى مكان يتعلق بالطقوس الدينية.

شم النسيم

من الميلاد حتى الموت تمتزج الشعائر الدينية بالخزعبلات؛ ذلك أن اليهودى من مصر يؤمن بالخرافات إلى أعلى حد؛ فهو يتبنى الماضى الذى يجعل منه حاضره؛ وهكذا يتكون نمط مميز من الحياة، نابع من ممارسات تعود إلى الزمن المنسى، وإلى أماكن قد تكون مجهولة بالنسبة إليه. وتبرز طريقة للنظر إلى العالم ليست غريبة تماما عن الوسط المحيط الإسلامى ـ القبطى. وهو ما ينطبق على شم النسيم، العيد الفرعونى الذى يشارك فيه اليهود. فهم يقتحمون الحدائق العامة، وشواطىء البحر، وضفاف النيل، مرتدين «البيجامات» الجديدة والأحذية الضيقة بالنسبة للذكور، والفساتين الفضفاضة ذات الألوان الزاهية بالنسبة للإناث. ويحتفلون بالعيد مع تناول كميات كبيرة من «الفسيخ»، والبصل، والكرات، مصاحبة بأكواب عديدة من البيرة. كثيرا ما يتصادف هذا العيد مع غداة اليوم الأخير لعيد الفصح اليهودى؛ فى هذه الحالة، تبدأ الاحتفالات منذ اليوم السابق فى هذه البيوت المنهكة بفعل الممنوعات المفروضة على الأطعمة، واستهلاك الخبز «الأزيم» حتى الثمالة. منذ غروب الشمس، تقوم الأسرة بتخزين الصينى المخصص لعيد الفصح والذى سيظل مخزونا هكذا لمدة سنة. ثم تصل إلى المنازل حفنات من الخبز الطازج الذى ظل محرما إلى حد نسيان مجرد وجوده. إنه الخبز «البلدى»، والخبز «الشامى»، والخبز «الفرنسى»، الذى سيظهر من جديد إلى جانب المعجنات، والبقول، والأسماك، والبيرة، والحلوى التى تم إعدادها على عجل، أى «الكنافة»، و«البقلاوة». فى مدخل الشقة وعلى عتبة الباب، تتناثر أوراق الخس؛ تلك الثمرة التى نراها على الجدران الفرعونية، والتى تلعب دورا مهما فى نهاية عيد الفصح، وكأنها مقدمة للعيد الوثنى الذى أصبح مشتركا لجميع المصريين.

إعادة شراء الأطفال البكر

يعود طقس إعادة شراء المولودين البكر من الذكور إلى التاريخ القديم ليهود مصر؛ وهى العادة التى اختفت فى جميع أنحاء العالم، فيما عدا وادى النيل.

يتم هذا الاحتفال فى اليوم الواحد والثلاثين لمولد الرضيع؛ ويقوم أحد أعضاء الطائفة القدسية يحمل لقب «كوهين» ـ وعادة ما يكون من أفقر الفقراء ـ بالدخول فجأة وسط الوليمة التى تجمع أسرة المولود الجديد، لينقض على الطفل. هذه المحاكاة للاختطاف مهداة إلى أحد المعابد التى تم تدميرها منذ العام السبعين للتقويم الميلادى. يهرع الأب والأم والأقارب نحو الطفل؛ فيسأل الـ«كوهين» الأم إذا كان هذا الطفل هو الثمرة الأولى التى أنجبتها؛ وهى تجيب عليه: «هذا ابنى البكرى، فلم أنجب أو أجهض طفلا من قبل». لو كانت الأم غائبة عن هذا الاحتفال، ينبغى أن يوجه لها السؤال بواسطة شخص «يحظى بالثقة، وعاقل، وأكيد». ثم يلتفت الـ«كوهين» إلى الأب ليسأله: «ماذا تفضل؟ لو كان هذا ابنك البكرى، يمكنك شراؤه منى بمبلغ خمس قطع من الفضة (وزن كل واحدة منها لا يقل عن ٣١ درهمًا من الفضة الخالصة)، وإلا سوف تعطيه للكوهين كما تأمرك به التوراة..». عندئذ، يرد الأب: «إننى مرتبط بابنى البكرى، وأنا مستعد أن أعطيك خمس قطع من الفضة لإعادة شرائه، كما أوصانا به المقدس فى توراتنا». ثم يضيف الـ«كوهين»: «هذا ابن بكرى، وقد أوصت التوراة المقدسة بإعادة شرائه وفقا للنص المكتوب.. سوف تعيد شراءه بثمن خمس قطع من الفضة.. حينما كانت تحملك والدتك، كنت من رعايا والدك الإلهى، ومن أنجبوك.. الآن أنت من رعايا الوالد الإلهى، ومن رعاياى أنا الكوهين، لأننى كاهن؛ إلا أن والدك يستطيع أن يعيد شراءك لأنك البكرى المبارك منذ أن أصبحت جنينا، حيث كتب أن الأبدى قال لموسى: «سوف تكرس لى أى بكرى يولد فى بيت إسرائيل، سواء كان إنسانا أو حيوانا». حينئذ، يتناول الأب خمس قطع من الفضة، أو خمسة أشياء من الفضة، قائلا: «هذا ابنى البكرى، أول من خرج من أحشائى؛ وتطالبنى التوراة بإعطاء الكوهين خمس قطع من الفضة لإعادة شرائه، وهذا أمر صادر من مالك الملك..وها أنا مستعد بكل سعادة أن أطيع أوامر خالقى، وقلبى يملؤه الفرحة». ثم يصطف الأب إلى جانب الكوهين، ويردد: «مبارك من أمرنا بإعادة شراء أولادنا البكر، مبارك الذى

جعلنا نحيا حتى هذا اليوم»؛ وهنا يقدم قطع الفضة إلى الكوهين الذى يقول بدوره: «لقد استملت منك خمس قطع من الفضة، وهكذا تمت إعادة شراء هذا الابن البكر وفقا لشريعة موسى وإسرائيل». ويقترب الكوهين بيده التى تحمل الفضة من جبين المولود قائلا: «هذا يحل محل ذاك، هذا مكافأة مقابل ذلك (ثم يغفر له)، هذا خرج ومنح للكوهين، وهذا الولد سوف يدخل فى الحياة، ويدرس التوراة، ويلتزم بالأوامر الإلهية، كما سيدخل فى الزواج، ويمارس الأفعال الطيبة أثناء حياة والده، ووالدته، وأقاربه، وكل بنى إسرائيل»، ويتلو الكوهين المباركة الكهنوتية، وآيات «كتاب الأنبياء» التى تدعو الإله بحماية هذا الطفل.

حينما يتم ممارسة هذا الطقس فى أماكن أخرى، عادة ما يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ إلا أنه يستمر فى مصر مع ترسيم النبيذ وتوزيع الأعشاب المعطرة التى تدخل البهجة فى قلوب الحاضرين. ثم يضيف الكوهين: «مبارك ذلك الذى فصل هذا الطفل الذى مر بأحشاء والدته، والذى خلق أعضاءه الـ ٢٤٨، ونفخ فيه الحياة، وغلف جسده باللحم، ومنحه العظام، وأمره بالشرب والأكل، وقدم له ملاكين لحمايته داخل الرحم.. أبوه يقول إنه ابنه البكرى، وكذلك تفعل أمه، وقد فتح له الإله ممرا بين الصخور الخمس الموجودة فى بطن أمه..ولذلك أمر بإعادة شراء المولود البكرى ـ للإنسان والحيوان ـ حتى وإن كان مدنسا، بواسطة خمس قطع من الفضة. مبارك ذلك الذى أضفى القدسية على الأطفال البكر من خلال إعادة الشراء».

إنه طقس غريب، يعود إلى الأزمنة الأولى للتاريخ الإنسانى، ويضفى على الأطفال البكر مكانة مميزة.

لن يرتبط هذا الطفل بأى رابط بعد ذلك بالكوهين الذى مثل هذا الدور؛ فالقاعدة تملى بإبقائه مجهلا. أحيانا، تؤدى بعض الأقاويل إلى أن يتعرف شخص بالغ على حمال، أو لاعب فى الموالد الشعبية، باعتباره كان صاحب الحق فى حياته. يذكرنا باستمرار صيام الطفل البكرى فى اليوم السابق لعيد الفصح، وطقس إعادة الشراء، بالثمن المفترض قيام العبرانى المصرى بدفعه من أجل شراء حريته؛ أى وفاة طفل كعربون لانتخابه.

الجميع يمارسون هذه العادة؛ أحيانا على هيئة مسرحية. عند البعض، حينما يكون

الكوهين من الأصدقاء، يتم استرداد قطع الفضة الخمس لاحقا؛ وعند البعض الآخر، يتم الدفع فعليا، حيث تجمع حصيلة هذه العمليات فى صندوق مشترك لجميع «كوهانيم» المدينة حتى يعاد توزيعها فيما بينهم.

من احتفالات الحياة

هناك احتفالات أخرى أكثر ظرفا، وشعبية، وثراء بالأطعمة، تصاحب مولد الطفل. فبعد أيام من الميلاد، تجتمع السيدات لإعداد «المفتقة» المشهورة بإدرار لبن الأم؛ وهى الوجبة التى تتكون من مزيج من كميات البلح، والزبيب، والبندق، واللوز، والفستق، والعسل، الذى يطهى طويلا حتى يصل إلى قوام متماسك. تقدم هذه المربى إلى الأهل، والأصدقاء، والعملاء لإشراكهم فى هذا المولد، وحضورهم ذلك الفعل العلنى فى مصر، أى إرضاع الطفل.

فبالأسلوب نفسه الذى عادة ما يجعل سكان البيوت يفتحون أبوابهم على مصاريعها أمام الجيران، يمطر المجال الخاص، الفضاء العام بكمية من المعلومات تظل سرية فى أماكن أخرى؛ فدعوات الختان، ودعوات الطعام، تعلن بصوت مرتفع عما يعتبر من الخصوصيات فى مناطق مغايرة.

بعد شهور من الولادة، تبرز الأسنان الأولى التى تجلب هى الأخرى نشاطًا غذائيًا؛ إذ يجتمع الأهل والأصدقاء من جديد حول وليمة توزع فيها أطباق «البليلة» التى سيتمكن الطفل من التوقف عن تناولها لصالح غذاء أكثر تماسكا.

وحينما يصبح الطفل على وشك المشى، تقوم جدة، أو عمة مسنة، بوضع يديها تحت أبطيه، وتصحبه إلى الباب حيث تدندن: «تاتا تاتا خطى العتبة»، بينما تحيطهما النظرات المتأثرة للحضور. لو تعثرت خطوات الطفل، تعاد العملية إلى أن يخطى الطفل تلك العتبة، أى إلى أن يستطيع أن يترك تلك الحجرة التى تجلس فيها والدته التى ما زالت تترقبه بكل قلق وحب.

الأحجبة

نظرا لأن حسد الجارات الغيورات، أو النساء العاقرات، أو القريبات تعيسات الحظ،

يمكن أن يصيب هذا الكنز (الطفل)، والتأثير على مصيره، ووقف نموه وإزدهاره، يتم اللجوء إلى الأحجبة.

صحيح أن «بن ميمون» قد أدان تلك الممارسات، إلا أن هناك من جاء بعده ليمنح الحق ليهود الشرق - وأكثرهم جهلا - فى حماية أنفسهم من التأثيرات الشريرة وشيكة الانقضاض على ما يعتبره هؤلاء الرجال والنساء أثمن ما لديهم، أى أطفالهم. وهكذا، تلجأ الأم التى أنجبت حديثا إلى وضع الأحجبة فى حجرتها لحماية المولود من الحسد. بعض هذه الأحجبة عبارة عن مجرد أوراق من كراسة ملصقة على قطعة حديد، ويكتب عليها تشكيلات متعددة من الحروف؛ كما تتكون أحجبة أخرى من البرديات الفاخرة التى تنص على اسم الطفل المراد حمايته.

كما تعد «الخرزة الزرقاء» من الوسائل الأخرى لتفادى الحسد، حيث تستعمل على هيئة «دلاية»، أو حلق، أو خاتم.

لو قيل عن طفل إنه جميل، ترى مباشرة الأصابع الخمسة لليد اليمنى ممدودة فى اتجاه الذى تفوه بهذا التعليق، وتطلق الأم تعبير: «خمسة وخميسة»، كما تبصق عدة مرات لإبعاد الحسد المرتبط بالغيرة المحيطة بطفلها. أما إذا مرض الطفل، أو أبدى الطبيب المعالج بعض التشاؤم، فإنه يتم استشارة أهل الخبرة؛ فهم يفسرون الأحلام، ويقرأون الطالع فى فنجان القهوة والبخور، كما يعدون «العمل» الذى لا يخفق. على غرار أمسيات أيام الجمع والأيام السابقة للأعياد، تمتلئ حينئذ البيوت برائحة البخور المصرى النافذة، حيث يتم تمرير المبخرة حول رأس وجسد المريض، مع ترديد ترانيم غير مفهومة. وتلجأ الأمهات أيضا إلى طرق العلاج التقليدية، مثل رش القهوة الناشفة على الليمون لحالات الإسهال، وارتداء فروع المرجان لمناهضة الحسد المستمر.

فى حالة تفاقم المرض، تظل هناك إمكانية تغيير اسم الطفل، حيث يقوم الحاخام يوم السبت بإجراء هذا التغيير فى إطار احتفالية كبرى. ذلك أنه لو كانت مهمة ملاك الموت تتمثل فى قتل «مراد بن سعد»، فإنه لن يتعرف عليه تحت اسم «نسيم» أو «حاييم بن سعد». وهكذا يتم التحايل على الموت. ولكن، لن يكون بوسع أحد بعد

اليوم الرجوع إلى الاسم القديم، أو الإفصاح عنه. ألا يقال إن هناك من غير اسمه حبا فى زوجة أو طفل؟

بعد الشفاء، يقوم المريض بالحج فى حارة اليهود حيث يضىء القناديل فى جميع المعابد التاريخية بالحى، وكأنها عودة إلى نقطة البداية؛ وأحيانا ما يحمل معه مبلغًا كبيرًا من المال لتوزيعه على الفقراء والمتسولين.

إذا كانت هناك امرأة عاقر، فإنما تذهب لتنام ليلة فى معبد «رب موشى» بحارة اليهود، أو فى معبد «بن عزرا» بالفسطاط.

أما فى حالة ولادة طفل ذكر بعد عشر سنوات من الانتظار والتوسلات، فيطلق عليه اسم «معتوق»، وتثقب إذنه التى ستحمل طوال حياته حلقا يشير إلى أنه جاء نتيجة لمعجزة.

نهى الموت

حينما يظهر الطفل نجاحا لافتًا فى دراسته، يعلن الخبر بكل الحذر الواجب؛ ويستقبله الأب بتلك العبارة التى تشير إلى حبه العميق: «تقبرنى يا رب!» (أى أن يجعلك الرب أنت الذى تضعنى فى القبر).

لا ينبغى أن يقوم رجل وشقيقه، أو أب وابنه بتلاوة جزء من «أسفار موسى الخمسة» خلال القداس نفسه، أو ارتداء «السيفر»، أو إظهاره فى العلن؛ فقد يولد ذلك الغيرة والحسد.

إذا حدث أن توفى فردان من الأسرة نفسها، يتم ذبح فرخة كغفران، وتدفن رأس وأرجل الحيوان إلى جانب المتوفى الثانى.

حينما يتم مغادرة منزل أو شقة بسبب الموت، يمتنع الساكن القديم عن تخطى عتبته لمدة سبع سنوات. وإذا ما انتقل إلى مكان آخر، تلطخ جدران ونوافذ المنزل الجديد بدماء فرخة مع ترديد العبارة التالية: «هذا محل ذلك».

عند الإعلان عن وفاة، ينبغى أن يتناول متلقى الخبر كوبًا من الماء؛ كما تطلق عبارة «عشتم» عندما يعطس أحدهم، وتشد حلمة أذنه.

إنها محاولات مستمرة لإبعاد الموت.

بيد أن إطلاق كلمة «الموت» أثناء مناقشة يقابل على الفور بعبارة «تف! تف!» كناية للبصق على الكلمة، وعلى ملاك الموت الذى يحوم حولنا وقد يستفزه مجرد النطق بهذه الكلمة.

فالميت هو ذلك الذى لم يعد قادرا على غناء «هاليلويا»؛ وهو الذى يفقد تلك الخاصية التى تميز الحى، وتعطيه القدرة على نداء الله لتمجيده.

والميت عبارة عن ذكرى وأسف؛ ومن ثم، من غير اللائق أن نتحدث عنه، أو نهرع إلى المدافن كما يفعل يهود المغرب. فاليهودى المصرى لا يذهب إلى المدافن سوى اليوم السابق لـ«كيبور» لوضع قطعة حجر على مدافن أمواته. كما يمتنع عن إحضار الزهور (كما هى العادة عند المسيحيين)، أو تناول الطعام بجوار الأموات (وهى عادة إسلامية)، بل يكتفى بتلاوة الصلوات، وترديد الابتهالات، مطالبا غيره من الزوار أو المتسولين الذين يزدحمون فى المكان بتشكيل مجموعة من الذكور فوق سن ١٣ سنة حتى يكتمل النصاب اللازم لتلاوة الآيات.

وهكذا، تمتلئ جميع مدافن المدن والأماكن النائية فى هذا اليوم بخليط ممن تبدو عليهم علامات الأناقة، ومن الفقراء، وصغار البرجوازيين، والحرفيين، أو رجال الأعمال الذين جاءوا لتقديم واجبهم باعتبارهم أحياء أتقياء.

غير أن مدافن البساتين بالقاهرة ـ التى تعود إلى القرن الأول، وأقر بن طولون هذا الامتياز فى القرن العاشر ـ بعيدة عن المدينة إلى درجة أن كبار القوم كانوا قد أسسوا خط مواصلات منتظمًا حتى يتمكن الناس من الوصول إليها. وهو الخط الذى يعد أولى إرهاصات المواصلات الحضرية التى أطلقتها أسرة «سوارس» بنجاح كبير، حتى أنه كان يستعمل تعبير «حنركب سوارس» عند الإشارة إلى استعمال الترامواى فى القاهرة.

إنها نتيجة غريبة لصناعة الموت التى تعود بلا شك إلى الأزمنة السحيقة فى التاريخ المصرى.

غير أن الموت يصطبغ عند اليهودى المصرى بحالة نادرة من التقشف؛ فبمجرد

التأكد من الوفاة، يقوم الأقرباء بإلقاء كل المياه الموجودة بالمنزل، ثم يبلغون «هبرا كاديشا» (الأخوية المقدسة) التى تتولى إجراء الطقوس اللازمة. عادة ما يتم دفن الجسد فى الليلة نفسها؛ حيث يوضع الجسد فى تابوت بسيط يحمله الأقرباء على أكتافهم حتى المدافن. لم يسمح باستعمال عربة الموتى لجزء من الطريق إلا مع نهايات القرن التاسع عشر.

فى الإسكندرية، كان الجسد يوضع فى معبد «إلياهو هانابى» (النبى إيليه) لتلاوة الصلاة عليه، على الرغم أن هذا الطقس كان يعتبر وثنيا. فقد ارتفع الجدل حول تلك الممارسة منذ أيام «ابن ميمون»، وتم حظرها نهائيا فى عام ١٨٩٣.

أما فى القاهرة، فتجرى العادة على تلاوة «قديش» عند مغادرة المنزل، وإعادة تلاوته فى كل مرة يمر فيها الموكب على معبد، أو يتوقف قليلا. عند الوصول إلى المدافن، يودع الجسد على الأرض مباشرة بعد لفه فى الكفن. هناك بعض اليهود الأوروبيين أو المتشبهين بالغرب، الذين كانوا يتغاضون عن ذلك ويدفنون أقربائهم داخل تابوت فاخر؛ غير أن يهود مصر كانوا يعتبرون ذلك أمرا مرفوضا.

بعد العودة إلى المنزل، يتم تناول وجبة من البيض المسلوق والحمص، خالية من اللحم والنبيذ. لقد تمزقت ملابس الأهل المقربين فى المدافن، بعد أن تليت عبارة: «مبارك الذى يمنح العدالة والحقيقة»؛ وهم الذين سيمتنعون عن أى عمل مأجور على مدى أسبوع. وحفاة، سوف يجلسون، ويأكلون، وينامون على الأرض مباشرة خلال هذه الفترة. أما الرجال، فسيطلقون لحيتهم لمدة شهر أو حتى سنة، فيما سترتدى النساء الملابس السوداء وتمتنع عن ارتداء المصاغ أو استعمال العطور.

على مدى أسبوع، يلتف حول أسرة المتوفى/ المتوفاة الأصدقاء، والأقارب، وأعضاء المعبد الذى كان يتردد عليه.

كما يتم سريعا تجهيز «مصطبة» للمدفن لا تحمل سوى اسم الشخص الميت. سوف يتم لاحقا إضافة الارتفاع إلى هذه الأحجار، مع وضع بيوت من الشعر تتغنى بحكمة، وكرم الشخص المتوفى. ومع ظهور البكوات والبارونات اليهود على الساحة المصرية، ستتحول تلك الأحجار إلى أبنية ذات طراز مختلط، وأحواش واسعة تشير ـ حتى مشهد الموت ـ إلى الانقسامات والفروق التى تميز الطائفة اليهودية فى مصر.

قد يقوم من يريدون تكريم موتاهم بإهداء أحد المعابد لـ«سيفر» مغلف بعلبة من الخشب الثمين المغطى بالقطيفة أو حتى بقطع الفضة المكتوب عليها اسم المرحوم أو اسم صاحب الإهداء.

انفصال الأجساد

فيما بين المعرفة المنسية أو الذاكرة المفقودة، تكتشف فجأة صعوبة الإجابة على السؤال التالي: «من هو اليهودى المصرى؟»

تتمثل الإمكانية الأولى فى تقديمه على هيئة الشخص المنغرس فى شبكات مؤسسية متعددة تسمح له بالعيش فى اكتفاء ذاتى تام؛ ففاعلية قادته تقدم صورة قد تكون استثنائية من الدينامية الداخلية والتجانس مع الوسط المحيط عن تلك الطائفة المغروسة عند مفترق طرق الحضارات، والطرق البحرية والتجارية.

أما الإمكانية الثانية، فتشير إلى وصف الطبقة العليا ليهود الإسكندرية والقاهرة التى تأرجحت الحياة الفكرية لأفرادها فيما بين الجرأة والرغبة فى الإبهار، والارتباط اللامتناهى بنضال الشعب المصرى، والسعى العارم للإندماج فى الغرب، والتفانى الكبير لمصالح الطائفة، والأنانية الشرسة.

وهناك إمكانية ثالثة تحتمل إعادة تشكيل نمط حياة، ومعتقدات الكتلة الأكبر من اليهـود.

وبهذا الصدد، يمكن التذكير بأنه فيما بين ١٨٦٣ و١٩٥٦، هناك ٢٠٤ عملا كتبه وأصدره بالقاهرة باللغة العربية مؤلفون يهود؛ وأن أول كتاب طبع فى القاهرة صدر باللغة العبرية فى عام ١٥٥٧؛ ومع ذلك، عديدون من كانوا لا يتصورون حتى فكرة القراءة أو الحديث باللغة العربية، وكثيرون من كانوا عاجزين عن فك شفرة الحروف العبرية.

كما يجدر بنا الإشارة إلى أن جزءًا مما نعرفه اليوم حول يهود مصر، وأسلوب حياتهم، وصل إلينا من خلال الجدل والممنوعات التى أحاطت تقاليدهم. وهكذا يكـفر الـ «رادباز» فى القـرن السادس عشر «أولئك الذين يستعملون سجادة الصلاة على غرار الـمسلمين والقرائين، ويـؤدون الصلاة وهم حفاة». وفى القرن التاسع عشر،

تم فى الإسكندرية تحريم تعـدد الزوجات، وزواج الفتيات غير البالغات؛ هذا، وقد ظل تعدد الزوجات مسموحا به فى القاهرة إذا أخفقت المرأة فى إنجاب الأطفال لمدة عشر سنوات. وحينما قام الحاخام «مسعود حى بن سيمون» فى عام ١٩١٧ بإعداد قائمة بيهود مصر، اكتشف باندهاش أن كثيرين اختاروا أسماء وألقابًا عربية.

وطالما بقيت عمليات لفت النظر تلك قائمة فى ظل مجتمع مصرى ينقسم إلى مجموعة متنوعة من الطوائف الدينية التى تحظى جميعها بحق التحكم فى أحوالها الشخصية، فإنها لم تتناقض مع هيكل اليهودية المصرية؛ بل مالت فى معظم الأحيان إلى تعميق هذا الهيكل مع إبراز الفروق الداخلية فيه.

ذلك أنه منذ تولى محمد على حكم مصر، وسحق الثورة العرابية، ثم اعتلاء الملك فؤاد الأول للعرش، شهد إجمالى اليهود تغييرات كبيرة بداخلهم، أدت إلى تخليصهم من الأمية، ومن وفيات الأطفال، ومن بعض البؤس المرتبط بالحياة الحضرية؛ وعلى أقل تقدير، لن يصابوا بتلك الآلام بالحدة نفسها التى تنقض على مواطنيهم المسلمين. ورويدا رويدا، يتوقف يهود مصر من أن يكونوا أقلية وطنية دينية، ليتحولوا إلى أقلية دينية يتم تشبيهها بالأقليات الأجنبية. فقد جاء زمن تشجيع عقد العلاقات مع المجتمعات الأوروبية، خاصة تلك المنفتحة على المجتمع العربى الإسلامى.

وكلما انحسر هذا البعد العربى، أصبحت صورة اليهودى المصرى مبهمة. ومن ثم، يتحتم على كاتب التاريخ أن يبذل جهودا مضاعفة حتى يميز ملامح وجه أبطال تاريخ ولى. فمهما كانت الزاوية التى يضع نفسه فيها، يبدو الشخص الذى أمامه وكأنه هجين تشير حركاته باستمرار إلى ما يلى: «انظر إلى جلبابى، إننى مصرى؛ انظر إلى سترتى، إننى أوروبى».

هل كان يمكن لنموذج جديد من اليهودى المصرى أن يشق طريقه وسط كل التناقضات، والولاءات، والتنازلات التى كان يقوم فيها بدور الممثل والجندى؟

فالواقع أن يهود فيلة، أو الإسكندرية فى عصر «فيلون»، أو كفر الدوار أيام صلاح الدين الأيوبى، أو المحلة الكبرى تحت المماليك، والمنصورة فى ظل محمد على، والقاهرة تحت حكم فؤاد الأول، أو طنطا أيام محمد نجيب أو عبد الناصر، يختلفون عن بعضهم البعض، ويمثلون مجموعات لا يجمع بينها سوى تلك التسمية المزدوجة: يهودى من مصر.

نظرة أخرى

بقلم: إيفيت شماش[1]

من أجل استمرار الولاء للتقاليد التى نذكرها هنا، كان ينبغى الابتعاد عن النظر فى القضايا المتعلقة بالنساء؛ أو على الأقل عدم التعرض لها؛ أى إبقاءها كما هى العادة خارج نطاق الأنظار، أو الحديث، وبعيدا عن الحياة العامة.

ومع ذلك، فلا يمكن القول إن النساء غائبات، بل هن موجودات بالفعل بجانبنا فى المشهد الخلفى ـ أو فى الدور الأول كما هو الحال فى المعابد ـ حيث يشاهدن الأمور فى صمت، ولكن دون سكوت. فعلى غرار أخواتهن المسلمات، هن مقنعات أيضا؛ إلا أن هناك صعوبة أكبر فى خلع هذا الخمار الذى يحمل فى طياته آلاف المحظورات المرتبطة بدينهن وتقاليدهن، لأنه غير مرئى.

ومن هنا، فإن بعضهن سيمررن بمرحلة من القطيعة البطيئة أو العنيفة ـ ولكنها مؤلمة فى جميع الأحوال، وتحمل رائحة الخيانة ـ من أجل خلع هذا الحجاب ورفع أصواتهن.

ما الذى تنظر إليه تلك النساء القابعات فى الدور الأول من المعبد من وراء المشربية التى تحميهن من نظرات الرجال؟ إنهن يلقين بنظراتهن على الأزواج، والآباء، والأبناء، والأشقاء، وهم يوثقون فى مشهد دقيق وشعائرى علاقاتهم بالله سبحانه وتعالى.

ذلك أن أسلوب هؤلاء الرجال ـ سواء كانوا من الأتقياء أو من المصلين المبرمجين،

---

(١) كانت «إيفيت شماش» تبلغ ١٧ سنة من العمر عندما تركت فى العام ١٩٥٥ مدينة الإسكندرية التى ولدت فيها، متوجهة إلى باريس للدراسة فيها لمدة سنة. غير أنه نظرًا لأحداث السويس، لم تتمكن من زيارة مصر مرة أخرى إلا بعد ٢٥ عامًا.

ممن يرتلون صلواتهم بصوت مرتفع أو يهمهمونها لأنفسهم، فيما بين شفتيهم الساكنتين أو المترنحتين ـ يبرز أمامنا العلاقة التى تربطهم بربهم وبديانتهم. فيمكن أن نرى هذا، ونشعر به؛ إذ يشكل جزءًا لا يتجزأ من تلك المجموعات من الرجال المصلين، والذين يضاعفون من مقتضيات الطقوس وفقًا لما لديهم من معرفة تعود إلى قديم الزمان، والتى أخذت تنتقل دون هوادة من الآباء إلى الأبناء.

يحمل هذا الرجل على جسده علامة العهد الذى يربطه بالرب وبآبائه. إنه يهودى، وهو يعلم ذلك تمامًا، وهو يتأهب طبيعيًا فى إحلال المكان المحدد له.

أما المرأة، فهى موجودة فى الدور الأول وهى تشهد كل ما يجرى تحت عينيها. هل يمكن القول إنها تشعر بالإقصاء؟ لم تعد تعرف بالضبط، فقد تعودت طويلا على هذا الحال.

وتتذكر...

إنها تتذكر وهى طفلة حينما كان لا يزال من الممكن لها الدخول فى هذا المكان المحدد للرجال، وكيف كانت تشعر بالغيرة فى تلك اللحظة من القداس الذى يقوم فيه الأب بضم ابنه تحت حماية «التاليث»؛ فما هو السر الذى كان يدور بين الأب والابن تحت خمار الصلاة المشترك؟

ما ذلك التحالف السرى الذى يتم بينهما؟ هذا ما ستجهله دائما.

كل ما تعرفه أنها كانت تشعر بتلك الغصة دائما فى هذه اللحظة، وأنها أدركت هذا المشهد الاحتفالى باعتباره يحمل معانى الاستبعاد المؤلمة.

بعدما تصبح هذه الفتاة الصغيرة أما، سوف تنسى هذه الفجوة، ويمتلئ قلبها بالفرح والإعجاب عندما تنظر إلى ابنها خلال ذات الطقوس الدينية مرتميًا فى أحضان عباءة الصلاة التى يرتديها والده. فهذا هو المدخل الذى سيدمجه فى المجتمع خلال مراحل حياته المختلفة ـ من الميلاد إلى البلوغ ـ والذى ربما قد تستطيع هى الأخرى الاندماج فيه بطريقة كاملة.

على أنه إلى حين حلول زمن الأمومة، وخلال كامل طفولتها ومراهقتها، سوف تشهد الجهد المتواصل الذى كان يبذله الآباء فى إتمام تربية أولادهم بالأصول

الدينية؛ فكانت تراهم ـ وهم فى حالة من التواطؤ العجيب ـ يتوجهون معًا إلى المعبد للبقاء فيه أوقاتًا طويلة من أيام السبت، بل كانت قد ترى بعض الأبناء المعاندين الذين يتلقون الضرب المبرح، ويخضعون لأشكال من العقاب كوسيلة لاسترجاع ذاكرتهم المنهارة.

إلا أنها لم تفهم سبب عدم مطالبة الفتيات بالجهد نفسه؛ ففى هذا الشعب اليهودى ـ المسمى بشعب الكتاب المقدس ـ كان الرجال يبقون بناتهم خارج الكتاب والنص المقدس؛ ومع ذلك، كانوا يطالبونهن بأن يكن يهوديات، وينتمين إلى هذا الشعب. فكان عليهن البحث عن انتمائهن لليهودية فى الفراغات البيضاء التى تتخلل النص المقدس.

وكانت تلك النساء قد لاحظن بالقدر نفسه من الاندهاش ذات المستوى من إنعدام المساواة فيما يتعلق بالأهمية التى يوليها الأهالى فى تلقين العلم لأولادهم من الذكور؛ إن بلادة الفتاة فى الفصل لم تعن كثيرا، فهى لا تحتاج ـ فى كل الأحوال ـ إلى رصيد فكرى مهم من أجل إعداد نفسها لتأدية وظيفتها كامرأة، ومن الأفضل أن تبقى فى مطبخ المنزل فى إعداد الطعام بجانب والدتها. إلا أن الوضع كان يصبح مأساويا حينما لا ينجح الولد فى دراسته. حينئذ، تبذل الجهود الخارقة: من الدروس الخاصة، إلى التهديد، أو تقديم المكافآت. هكذا كان الأهل يبذلون كل ما فى وسعهم، وأحيانا ما يفوق قدراتهم.

كما نرى الأهالى يكرسون الإمكانيات لإقامة تلك الاحتفاليات الفاخرة التى تتم على شرف ابنهم بمناسبة كل من عملية الختان، وارتداء «التفللين». فهذا الطفل الذى تحيط به كل مظاهر التكريم، والعطف، ويقف فى قلب تلك الاحتفالية، قد بلغ ١٣ سنة من العمر، وهو يدخل بكل مظاهر الأبهة فى ذلك المجتمع الذى يشكله الرجال، وهو يعد منذئذ أحد أفراد «المنيان» (نصاب ملزم من عشرة ذكور يبلغون ١٣ سنة على الأقل من أجل إتمام إقامة الطقس). فلقد أصبح رجلًا وحصل على الحقوق.

إن الوضع مختلف تمامًا عند دخول البنت سن البلوغ، حيث يتم ذلك فى قدر كبير من السرية والكتمان، وأحيانًا فى حالة من الاضطراب والخجل، فالمراهقة قد انقضت عليها على أنه المصير المكتوب لها.

بأنه قد تم فى يوليو وأغسطس بيع كل ما يملكونه بالمزاد العلنى. كان يستمع أغلبهم لتلك الأخبار وهم لا يعبأون بشىء ويجدون هذا من الأمور العادية. أما ما يعجزون عن فهمه، فهو الضرب والتعذيب.

فى مساء يوم ٥ يونيه، كان الضابط «النوبتجى» فى قسم بوليس الموسكى قد أحضر من محل الجزارة الكُلاَّب الذى تعلق فيه الذبائح. بمجرد أن يصل أحد اليهود، كان يأمره بالوقوف وظهره للحائط، ثم يضع الكُلاَّب بين كتفيه ويشده إلى أسفل، فيتمزق كل شىء: القماش، واللحم. كما تم جلد امرأة جاءت لتحتج على اعتقال زوجها. أما فى حالة «ج.ك.» الذى كان يحمل معه مبلغا مغالى فيه (١٧ جنيها)، فقد قام الضابط بتقطيع الأرقام المسلسلة للنقود، ثم أعاد الرزمة إلى المسجون بعد دهس نظارته على الأرض.

وعلى نفس المنوال، تم احتجاز المحامى «ز» البالغ ٦٩ سنة يومى ٥ و٦ يونيو دون أى طعام أو مياه، وذلك فى مكان ضيق مساحته لا تزيد على خمسين سنتيمترا مربعا؛ فمن سوء تصرفه أنه سأل عن السبب فى القبض عليه.

لقد تم أيضا فى ذات قسم الموسكى اغتصاب الطفل «ى» على يد اثنين من رجال الشرطة بناء على أوامر الضباط. وقد شهدت والدته هذا المنظر، فانطلقت مرعوبة إلى السفارة الإسبانية، حيث اتجه على الفور السفير الإسبانى إلى قسم البوليس وأظهر غضبا شديدًا لا يمت بِصلَة عن التقاليد الدبلوماسية، ثم انتزع هذا الطفل من زنزانته. كان يوجد أيضا فى أقسَام البوليس الأخرى عديد من الشبان الذين لم يتعدوا ١٨ سنة من العمر. لم يكونوا إسبانيين، ولم يثيروا سوى غضب هؤلاء الذين كانوا يقومون بمقاومتهم.

وفى قسم مصر القديمة عندما طلب أحد الأطباء البالغ ٧٣ سنة أن يتحدث تليفونيا مع محاميه، تم اصطحابه بكل أدب إلى كابينة التليفونات التى لم تكن كذلك. لحقه فى هذا المكان أحد المسجونين العاديين، وأحكم رجال الشرطة إغلاق الباب. سمع اليهود الموجودون فى الزنازين الأخرى صوت أنين يصدر من هذا المكان على مدى ساعات طويلة. ثم خرج الطبيب العجوز، ممسكا بسرواله فى يده؛ لم يقل شيئا؛ إلا أن زملاءه سمعوه يبكى طوال الليل.

لقد اكتشفت عندئذ عالمًا جديدًا مليئًا بالمحرمات والمحظورات.

واكتشفت حينئذ أنها ليست طاهرة ـ وفقا لما قيل لها ـ وأن عليها الابتعاد من جميع الأماكن والأشياء المقدسة، وكذلك من الرجال.

ألم تضطر إلى سحب ملابسها من الدولاب العائلى ووضعها فى مكان آخر؟ ألم يأت إلى علمها أن الشابات القرائيات كن يطردن من المنضدة العائلية لتناول الطعام بعيدًا عنها، مع استعمال أدوات الطعام الخاصة؟ هل كان يتوجب على هؤلاء النساء الاختفاء والإنزواء تمامًا بعض أجزاء الشهور من السنة خلال تلك الفترة المخجلة.

وعلمت تلك المرأة لاحقا أنه كان يترتب على الأزواج الأتقياء خلال تلك الفترات أن يتفادوا أية علاقة تلامسية بزوجاتهم، إلى حين يقمن بالاستحمام وفقا للتعاليم الدينية للتطهر قبل الإلتقاء بهن. لم يفكر هؤلاء الرجال إطلاقًا فيما كانت تعنيه تلك الممارسات من إذلال للنساء حينما يرون أزواجهن يهرعون لاغتسال أياديهم لو لامست ـ عن غير قصد ـ الزوجة التى لا تزال غير طاهرة.

الواقع أن دخول الإناث عالم النساء البالغات لم يكن عيدا بالنسبة إليهن؛ ومع ذلك كان يغمرهن السرور مع التغيرات التى تطرأ على أجسادهن، والإحساس بالتشبه بمن هن أكبر سنا، والانتماء أخيرا إلى الجماعة النسائية.

ولكن عندما تدق ساعة المراهقة، هل تقدم لهن البدائل أمام اختيارات حاسمة؟

لقد فتحت المرأة عيونها اللامعة على عالم مضى عليه آلاف السنين أخذت الإغراءات الغريبة تنهشه ببطء؛ وهنا اكتشفت بدهشة كبيرة مصير من سبقها من النساء.

كانت هؤلاء النساء قد اندمجت أغلبيتهن فى القالب المحدد لهن. فالجدات، والأمهات يحكين ذلك دون توقف، وعلى مر أجيال طويلة: أى أنهن تركن المدرسة فى سن مبكرة، أو لم يذهبن إليها أصلا، ثم مكثن بالمنزل حيث قمن بالأعمال المنزلية، وتعلمن صناعة الحلوى الرفيعة، والتطريز وأعمال الإبرة.

كما اهتممن اهتماما مبكرًا بإعداد «الجهاز»؛ فيم كانت تحلم تلك الفتيات بينما يمضين أمسياتهن فى تطريز أغطية الأسرة والستائر والمفارش؟ وهنا لابد من التساؤل

إذ ما كان من شأن تلك الملابس الداخلية الشفافة، أطقم النوم المصنوعة من قماش «الموسلين» والمطعمة بالتطريزات، إخماد تمردهن وكبت غرائزهن؟

هل كانت تلك الفتيات هادئات أو مضطربات وهن ينتظرن فى صمت اختيار أهاليهن للعريس المناسب؟ كن يعلمن جيدا أن لا كلمة لهن فى هذا الاختيار، كما كن مدركات للجهود التى يبذلها الأهل ـ بل التضحيات على حد قول البعض ـ من أجل الإنفاق على الجهاز، وتوفير مبلغ المهر؛ إنهن على علم تام بكل هذا الذى يعود إلى قديم الزمن.

وعموما، كيف كان يمكنهن اختيار الخطيب بينما مكانهن شبه الدائم هو المنزل، ولا يعرفن من المدينة سوى طريق الذهاب إلى المدرسة، أو طريق المحلات والأسواق التى يرتدنها مع أمهاتهن.

ومع ذلك، تشعر هذه المرأة أنها أوفر حظا من بعضهن اللاتى ينتمين إلى الأوساط الأفقر ـ والأقرب إلى العادات الإسلامية ـ ويجدن أنفسهن متزوجات عند سن ١٢ سنة على الرغم من الأوامر الدينية؛ أو تجد نفسها أحيانا مجبرة على القيام بالخدمة المنزلية عند الآخرين.

لم يكن من المتصور أن تعمل تلك الفتيات اللاتى ينتمين إلى الطبقة الغنية أو المتوسطة فى أى عمل مأجور؛ على أن بعضهن قد حاول خوض تلك المغامرة ـ سواء تحت وطأة الظروف الاقتصادية، أو نتيجة للتطور الهادئ فى الأعراف والعادات ـ حيث مارسن مهن التدريس، والخياطة، ولاحقا أعمال السكرتارية أو الطباعة على الآلة الكاتبة. وفيما عدا بعض الاستثناءات النادرة ـ خاصة فيما يتعلق بالنجاح ـ نجد هنا أو هناك سيدة أعمال، ومديرة مشهورة لمدرسة؛ إلا أن التجربة كانت قصيرة عادة، وكثيرا ما تتوقف بسبب الزواج الذى يضع حدا لهذه الاستقلالية.

ذلك أن عمل السيدة المتزوجة يعرض سمعة زوجها للخطر، فماذا يقول «الناس» الذين قد يفكرون أنه لا يكسب ما يكفى! كما أنها تعلمت دائما أن دورها يتمثل فى خدمة الزوج والأطفال.

والواقع أنها كانت تخدمهم، ولا تفعل سوى ذلك. ولكنها كانت تعلم أيضا أن السيد الحقيقى ليس الرجل، بل هو عمله. ففى هذا البلد الذى لم يكن يعرف التأمينات

الاجتماعية، أو البدلات الأسرية، أو إعانات البطالة، أو مكافآت الشيخوخة والوفاة، كان عمل رب الأسرة ـ بكل ما يتضمنه من متاعب ومسئوليات، من فترات مزدهرة أو راكدة ـ هو الذى يسعد أو يتعس الأسر. كانت النساء هن المعنيات فى المقام الأول، بل كن عبيدا لهذا العمل على غرار الرجال.

لقد قبلن باستمرار واقع أن كسب عيش الرجل ـ أيا ما كان ـ هو أهم من أى شىء آخر؛ ولذلك، كن يحرصن أن يجد الرجال دائما داخل أسرهم أفضل الظروف التى تصون قوة عملهم.

وهكذا، كان يمكن مشاهدة النساء يخرجن من بيوتهن ساعة الغداء حاملات وجبة، وهن يتوجهن نحو تلك الأحياء التى تعج بالحرفيين، لتقديم الطعام إلى الزوج أو الأب الذى تمنعه ظروفه المهنية من مغادرة المحل. ثم الرجوع بعد توقف قليل للعناية بمنازل هؤلاء الرجال.

والحقيقة أن المنزل هو مجالهن الخاص الذى يسيطرن عليه بجدارة من خلال القيام بالأعباء المنزلية، وإدارة الأسرة، وتربية الأطفال. ولا أحد كان يفكر فى اقتسام السلطات الخاصة بهن، وعلى الأخص رب العائلة. على أنه أحيانًا ـ بل وكثيرًا ـ كانت هناك حماة غضوبة تعيش فى نفس الدار معها، وعندئذ كان على الزوجة المجردة من كافة وظائفها، والمحرومة من صلاحياتها كأم، أن تطيع هذه الحماة طاعة عمياء، وتدين لها بالخضوع الكامل. قد يستمر هذا الوضع لسنوات طويلة، ذلك أن عمليات التمرد كانت نادرة أو يتم قمعها منذ البداية، كما كانت الفضائح ممنوعة.

وحتى حينما تصبح الحياة غير محتملة، فلا تفكر هذه المرأة فى الطلاق، أو يلوح هذا الهاجس أمامها كمجرد احتمال. فالطلاق لا يليق. ثم أين تذهب وماذا تفعل؟ ألم تصب النساء القليلات اللاتى جرؤن على هذا بوصمة عار عامة، مع إثارة غضب أسرهن ضدهن؟

وسواء كانت المرأة بحماتها أو بدونها، فليس لها سوى طريق واحد مفتوح أمامها وهو «العناية بالبيت» وإنجاب الأطفال. أما العلاقة الزوجية والحب فليست سوى أحلام تافهة تطويها سريعا تحت وطأة القيم الأبدية المهيمنة والمسيطرة.

وبالتالى، فمن الطبيعى أن تكون الأمومة هى السمة الغالبة والتى لا تتوقف عن

العطاء. ألم تشعر هذه المرأة بطريقة غامضة أن وظيفتها كأم ستضفى عليها الاعتراف، بل الاحترام؟

سوف تتجنب إذن الأطفال، ولكن هل هذا اختيار حقا؟ أم أنه من الأمور الطبيعية وفقا لنظام الحياة.

حينما كانت تنجب الأطفال، يتولد بداخلها قلق جديد؛ فهى تحتاج إلى ابن، بل إلى أبناء. إنها ترتعش خوفا؛ فهى تعرف أنه يحق للرجل فى القاهرة أن يتخذ زوجة ثانية لو أخفقت هى فى إنجاب ذكر بعد عشر سنوات؛ وقد قام البعض بذلك بالفعل. كما قام آخرون بتطليق تعيسة الحظ. وحتى إن لم تصل الأمور إلى هذا الحد، فالويل للمرأة التى لا تعرف إنتاج غير البنات! فهى ـ بطبيعة الحال ـ المسئولة الوحيدة عن الوضع. وهكذا تتساقط على رأسها التهكمات، والتوسلات، والشكاوى، والتهديدات، مما يدفعها إلى الحمل من جديد سعيا إلى أمل جديد.

وتستمر الحياة على مر الأيام وعلى مر الأعياد.

فكانت الأعياد الدينية ـ مثل الشباط ـ تولد محطات راحة على مدار العام، تتسم بالسكينة والتقوى. إنها لحظات متميزة، ولحظات لقاء، تتخلل التقاليد وكأنها علامات على الطريق؛ وربما كانت تمثل للمرأة المعبر الوحيد لليهودية.

ولكن، هل كان يدرك أحد كل الجهود المضنية التى بذلتها على مدى أيام كى تكون جاهزة عند الساعة الحاسمة، وتقدم لأسرتها تلك السكينة الدافئة؟ إنها كانت تخفف تعبها فى مشاهدة النظرات اللامعة، وتستقى فى صمت قوة جديدة من أجل المرة المقبلة.

غير أن أيامها لم تكن عبارة عن كد فقط. ففيما بين عيدين، أو يوم سبت، وبعد تأمين رفاهة أسرتها، كثيرا ما كانت تجد المرأة بعض الوقت للمشاركة فى الحياة الاجتماعية التى تدور فى الأمسيات مع غياب الرجال.

عندئذ، تبدأ دائرة الزيارات التى تحكمها قواعد معقدة ولكنها دقيقة؛ فكان يتم زيارة خالة، أو قريبة، أو جارة، أو أحد المعارف، دون إخطار سابق؛ إلا أن أولئك كن بطبيعة الحال فى انتظار هذه الزيارة حيث إنهن على دراية بقواعد اللعبة أيضا.

كانت تسمى هذه الزيارات «زيارات الواجب»، مما يعنى ضمنيا أنها إلزامية. إلا أن وجوههن لم تكن تظهر أى شكل من الضغوط، ويتسبب ذلك فى شعور الزوج أو الطفل بالحيرة، فهم لا يعرفون إن كن يستمتعن بها أم لا. هل كانت مجرد عمليات تبادل تقليدية، أم أنها عبارة عن اعترافات سرية يتم همهمتها داخل الصالونات الحميمة؟

ونظرا لهذه الحيرة فيما يمكن أن يقال خلال تلك الجلسات الخلوية الغامضة، ربما كانوا يفضلون أن تجتمع النساء فى إطار أحد الاجتماعات الشهيرة للعب الميسر، والتى كن ينظمنها بالتناوب.

ما بين لعبة «الكونكان»، و«بولا»، و«أشترى»، ترتفع الضحكات، وتوزع قطع الحلوى، وتتناقل قطع النقود، وتدور الأحاديث بينما ترتشف النساء القهوة؛ هناك حموة الفوز أو الخسارة، وتوتر السكوت، وانفجار الصرخات. إنها جلسات الترفيه المقبولة والتى تعتبر تافهة بما يكفى لتلائمهن. ذلك أنه لا بد من منح بعض الترفيه لأولئك النساء، وملء أوقات فراغهن، ومنعهن من التفكير فى أوضاعهن. إذن، لماذا لا نقبل بهذا الأسلوب الذى يمثل صمام أمان حقيقى مع منحهن الانطباع أنهن يستمتعن، دون أن يهدد ذلك الهيكل التقليدى للأمر الواقع.

كان يمكن أن تستمر هذه الأوضاع لأجيال طويلة.

ولكن، انتهزت هؤلاء النساء فى يوم من الأيام الفرصة التى أتاحها تطور التاريخ؛ فقررن إرسال أطفالهن فى مدارس اللغات الفرنسية، والإنجليزية، أو حتى الإيطالية.

أما الآباء المنهمكون فى أعمالهم وممارساتهم الدينية، فلم يهتموا بصفة عامة بالتربية الدنيوية لأطفالهم، ومن الأرجح أنهم غيروا المجرى التقليدى فى هذا المجال؛ إذ أن المدرسة من شأن النساء، والنساء اخترن الغرب. ما الأمل الدفين الذى كان يحركهن آنذاك؟ هل كن مدركات أنهن يمنحن هكذا لأطفالهن وسيلة للهروب من المصير الذى كان من نصيبهن؟ أم أن الأمر يختصر على تأثير التدفق التاريخى، مع عدم الوعى بكل أهمية هذا المنحى الجديد. وإن كان بوسعهن التنبؤ بكل تداعيات هذا التعليم، هل كن سيتمسكن بذلك الاختيار الحاسم؟ ربما لن نعرف أبدا الإجابة على هذا السؤال.

ومهما كان الأمر، نجد المراهقة الجديدة التى تخرجت مؤخرا من هذه المدارس،

وتحمل فى جعبتها قدرا هائلًا من المعرفة، تلقى نظرة نقدية وصارمة على ما خلفها؛ ففى ساعة الاستعداد للمستقبل، قامت بمساءلة الماضى مطولا، ولم تجد فيه سوى تناقض مع حاضرها. فهل كان يمكن لها أن تجد لنفسها مكانا فى عالم القدماء؟

مع اللغة الجديدة، تعلمت ثقافة جديدة، واكتشفت قيما جديدة تتناقض تماما مع ما أرادت الأجيال السابقة أن تنقله إليها؛ وهى لا تفهم لماذا ينبغى أن تختار لنفسها طريقًا مرسومًا مسبقا.

لقد تعلمت معانى المساواة والحرية، الثورة والعدالة؛ ودرست كتابات جورج ساند ومارى كورى؛ وهكذا أصبح الوقت متأخرا للرجوع إلى الوراء؛ لا يمكن تأمين الاستدامة، لا يمكن تكرار الحلقة التقليدية إلى الأبد.

إلا أن هناك من حولها تشققات أصبحت تهدد الكيان الجديد؛ فبدأ الأولاد الدخول فى الجامعة، بينما لم يكن ذلك متاحا بعد للفتيات. غير أن عديدات منهن سعين إلى البروز فى مجالات جديدة؛ فكن يعملن، ويختلطن مع الفتيان، ويناضلن فى الحركات السياسية، ويتحدين المحظورات الدينية، ويرجعن إلى بيوتهن فى وقت متأخر من الليل.

كن يتقدمن إلى الأمام بكل إصرار، بعيون وآذان مصمتة حتى لا يضعفن أمام المآسى التى يعيشها الأهل.

كن يحلمن بمستقبل مختلف، ويرغبن فى بناء عالم جديد..

إلا أن القدر كان قد رسم فى مجرى التاريخ حتمية الرحيل.

فى الدور الأول من المعبد، تطل المرأة، وتنظر، وتتذكر؛ لديها القدرة على الشهادة، والخروج من الصمت، ومنع النسيان.



آثـــــــار

بقلم: شارل نواوى[1]

«إنها حديقة يمكن من خلالها مشاهدة البحر الذى انبطح تـحت أشعة الشمس الـحارقة، وقد عصفت به تلك الرياح التى تحرر روائح شجر الجوافة والياسمين بقدر ما تثير أتربة المدينة».

فى هذا المشهد، نرى رجلا ذا بشرة داكنة، يرتدى جلبابا من القطن الأبيض الناصع، ويغطى رأسه طربوش من اللباد الأحمر تتدلى منه أهداب حريرية سوداء؛ وهو يقوم بمساعدة طفل يبلغ أربع سنوات على تعديل وضع العجلة الأمامية لدراجته الثلاثية الحمراء اللون التى أهديت له على التو بمناسبة عيد ميلاده.

كان الحديث آنذاك يجرى باللغة العربية حول هذا الحدث؛ هناك بعض الزهور المسحوقة على الأرض، وإحدى عجلات الدراجة شبه ملتوية.

فجأة، استولى القلق على الطفل حول التفسير الذى سيقدمه لأهله عند عودتهم.

تلك هى الرهبة التى تجتاح الإنسان أمام ما للذاكرة من سلطان، حتى نراه قد تغاضى تماما عنها. على الرغم منه، يصبح فريسة لها، وينتابه إصرار دفين للاستمرار فى اقتفاء الأثر الذى فتحته أمام عيونه.

كان صوت فتحية الجميل هو الذى هدهد طفولته؛ وفتحية ابنة إبراهيم ـ حارس المنزل ـ الذى ما زال موجودا فى الأزاريطة. كما اصطبغت باللون الأصفر الصور

---

(١) ولد شارل نواوى بالإسكندرية عام ١٩٤٤؛ ووصل إلى فرنسا فى ١٩٤٨ مع أولى موجات الهجرة وعاد إلى الإسكندرية فى عام ١٩٧٨؛ وتنقسم أنشطته المهنية الحالية ما بين علم النفس والرياضيات.

الفوتوغرافية التى يحتفظ بها إبراهيم بكل حب فى ألبوم لحمايتها من التلف؛ ذلك أنهما لم يلتقيا منذ ثلاثة عشر عاما.

حينما كانت تمطر، يتذكر إبراهيم أنه كان يأوى أطفال البيت الثلاثة تحت معطفه الواسع ليسير بهم هكذا فى شوارع المدينة، مع الحرص على تفادى برك المياه. غير أن متعة التواجد تحت هذا الجناح الحامى لم يكن لها مماثل سوى الرفس بشقاوة عند الالتفاف حول البركة لرش من يسير بجانبك. كما ضمت هذه الطقوس اللقاء المنتظم ببائع «قمر الدين»؛ فسواء كان الجو ممطرا أو جميلا، كان موجودا جميع الأيام، عند ناصية الشارع، وهو يرتدى قبعة كبيرة، حاملا أوعيته التى تثير رؤيتها البهجة فى عيون الأطفال.

كان سيمثل الإخفاق فى تأدية الواجب إهانة شديدة عند اللقاء الجديد مع الحارس؛ إلا أنه تم تدارك ذلك بتثبيت هذه اللحظة إلى الأبد من خلال التقاط صورة معا على السطح.

كانت الشمس ساطعة فى الإسكندرية هذا اليوم؛ وقد ارتدى إبراهيم جلباب المناسبات، كما جعل ذلك الرجل ـ الذى أصبح أوروبيا وعرفه فى صباه ـ يرتدى واحدة هو الآخر. متكئان على السور، وقفا أمام العدسة لتأبيد هذه اللحظة.

حينما عاد إلى البلد الذى يعيش فيه حاليا، اكتشف الرجل بدهشة كبيرة أن بكرة الفيلم ظلت خاوية؛ فتعمقت الهاوية فى هذا اليوم، وكأنه لن يبقى أى أثر لهذا اللقاء الذى طالما ترقبه؛ أو كأنما لا ينبغى العودة بأى دليل على تلك القصة المتفردة. فالأدلة، والآثار، والذكريات ينبغى أن تظل هناك، فى حضن رياح وأضواء الإسكندرية.

ويظل الحلم هو الملاذ الأخير.

ينتابنا انطباع غريب حينما نستمع إلى صوت هذا الطفل وهو يتحدث لغة لم يبق منها لديه سوى كلمات بسيطة، تشكل الخيوط الواهية التى ترسم له الطريق إلى لغته الأم. تلك اللغة هى أيضا إشارة بالاعتراف؛ ذلك أن لا الزمن، ولا استحالة الممارسة قد نجحا فى القضاء عليها فى الذاكرة. إنه الاعتراف بالأصول المفقودة التى تفتح أمام هذا الرجل الطريق إلى تاريخه.

إنه ما زال قادرا على تمييز اللكنة العربية المصرية عن أى لهجة عربية أخرى، حتى وإن كان لا يستطيع دائما استيعاب المعنى.

لقد أصبحت هذه اللغة ـ التى تحدثها منذ طفولته المبكرة ـ هى اللغة الممنوعة مع الرحيل والفراق. إنها لغة السر، لغة ما لا يسمع، وهى أحيانا لغة الحب، ولغة المال، كما أنها أخيرا اللغة التى يمكن الاستماع إليها دون فهمها.

لقد تطلب الأمر مرور سنوات طوال، بعيدا عن المعابد المصرية، بعد تبخر أى أثر حقيقى، حتى يجرؤ المرء على مد الأذن يوم «كيبور» أثناء المزادات الخاصة بـ«السيفر». كان الحوار الدائر بالعربية بين القائمين على القداس والجمهور يتخذ طابع النقاش العائلى. وبينما تعلن مبالغ المبيعات باللغة الفرنسية، كانت تتم أمام عيون الحاضرين إعادة تشكيل لمشهد مضى؛ فكأنك ترى أمامك خان الخليلى أو بورصة الإسكندرية.

فى أيام الأعياد ـ وهى الوحيدة فى السنة التى يجتمع فيها جزء من أعضاء الطائفة ـ كان الأطفال يتنصتون ببهجة إلى هذه اللغة المجهولة، وهم يشاهدون اللقاء السنوى الذى قد تنعقد فيه الزيجات، أو المعاملات التجارية.

إنهم كانوا يترقبون اللحظة التى يجتمع فيها أفراد الأسرة الواحدة تحت «تاليث» الأب للحصول على المباركة، وهم معزولون عن بقية العالم تحت تلك الخيمة التى تفردها أذرع الأب؛ وبداخلهم خوف من الإنطلاق فى الضحك أمام حركات الوجه الكوميدية لأحد الأشقاء؛ كانوا يحلمون بالحياة هناك، وبالأصوات والروائح التى عرفوها فى الماضى.

يعلمون أنهم سوف يجدون تلك الروائح بعد انتهاء القداس، على هيئة مأكولات وحلويات. بعد تناول القهوة الأولى التى تشير تقليديا إلى نهاية الصيام، تبدأ سلسلة الذكريات؛ وتتناوب على مر الكلمات أسماء الأماكن، أو الشوارع، أو الأصدقاء الذين أصبحوا يعيشون فى أقصى أطراف العالم.

كان يؤدى تكرار كل هذه الأسماء إلى إعادة إحياء الأصوات التى يدل مجرد تذكرها على مدى حجم النسيان.

ومع ذلك، كان لا بد أن يبقى منها شيء، إن لم يكن فى الواقع، فإنه فى الحلم.

مع هذا الفقدان، وتبخر اللغة الضائعة، يخفت أيضا مذاق الكلمات الساخرة، وطعم الأمثال ذات النكهة اللاذعة، والمعانى الدفينة للتعبيرات التى تحول الجملة البسيطة إلى قصة فلسفية. إنه أصبح كالمصاب بالصمم الذى يذهب إلى المسرح، ولم يعد يمتلك سوى عينيه لمتابعة النظرات أو الدموع، والذى يتأخر عن الآخرين فى التصفيق؛ فهو زمن انعدام التفاهم.

اللغة الضائعة والمنسية هى لغة الطفولة، والكلمات الأولى، والترددات، والخطوات الأولى؛ إنها اللغة التى سبق أن قيل فيها كل شيء.

كتب «ابن ميمون» ـ القادم من كوردو والذى كان يكتب بالعربية ـ «تتحدث التوراة بلغة البشر». لا يمكن أن تضيع تلك اللغة، أو تنسى. إلا أن المفارقة التاريخية أرادت أن تكون أول ترجمة للكتاب المقدس إلى الإغريقية منذ ٢٣ قرنا، قد تمت فى مصر بسبب فقدان اللغة الأصلية. واستطاع الـ ٢٥٠,٠٠٠ يهودى ـ الموزعون آنذاك على امتداد نهر النيل ـ أن يظلوا فى إعلان عن يهوديتهم بفضل وجود هذه النسخة المترجمة. يمكن أن نتفهم نسيان فرد معزول، أبعد عن جذوره منذ نعومة أظافره، للزمن الذى تحدث فيه لغة ما؛ إلا أن هشاشة شعب بأكمله يطرح سؤالا جهنميا. ذلك أن هذه اللغة كانت أكثر من مجرد مجموعة كلمات وقواعد؛ إنها كانت عبارة عن الرباط الذى يوحد كل إنسان مع الكلمة الإلهية، وتفرق بين الطاهر والدنس، وتميز بين الكافر والمؤمن. ما الرياح التى يمكن أن تتسبب فى هذا الفقدان؟

ربما توجد الإجابة فى العقاب الذى أصاب «هانانيا»، بطل أحد الأساطير «الهاسيدية» الذى فقد لغة «التوراة» بسبب إفراط استعماله لها لصالحه الخاص؛ أى باعتبارها علم الخطاب بدلا من أن تكون الحكمة حبا فى الحكمة. أم أننا ينبغى أن نصدق مقولة أن الجنين فى بطن والدته يتلقى «التوراة»، ولكنه حينما يظهر إلى الحياة، يقترب منه ملاك يلمس شفتيه، فينسى كل شيء.

بالأمس فقط، كان يهود مصر يجوبون بين مجموعة متنوعة من اللغات: الفرنسية، والإسبانية، واليونانية، والتركية، والإيطالية، وهى اللغات التى تضع الحدود بين الطقوس والأطعمة المختلفة؛ وكأنما تشكل لكل واحدة منها مجالاً محددًا مشتركًا؛

وكأنما من المستحيل أن نتحدث اليوم عن «يهودى مصرى»، بل فقط عن «يهود مصر» الذين توطدت وحدتهم بحكم الهجرة والشتات، وهى الوحدة التى لم تكن ظاهرة فى الواقع المعاش هناك.

فقد تعددت وتنوعت نقاط الاختلاف؛ وفيما عدا مسألة اللغات، احتلت العلاقة بمصر إلى جانب الوضع الاجتماعى أهمية كبيرة. فإذا ما استثنينا الانتماء الدينى، لم يكن هناك ما يفرق البرجوازى المصرى، سواء كان مسلما أو قبطيا أو يهوديا. وبالطريقة نفسها، لم يوجد تمايز بين فقراء اليهود، وتجارهم، ومهنييهم عن أقرانهم من الديانات الأخرى.

كان يسمح هذا التعدد اللغوى لكل يهودى فى مصر ببلورة مكان آخر بطريقته الخاصة. هذا المكان الآخر كان يتحدد بكل من المكان الجغرافى (فرنسا، إيطاليا، أسبانيا..) والزمن. ومع إسناد الأصل إلى مكان آخر غير مصر، كنا ندعى الغربة فى المكان ذاته الذى تدور فيه حياتنا، وحيث ولدنا؛ وكأن التجذر فى مصر أمر لا يطاق، على الرغم من أنه مسند بأدلة كثيرة. فالتاريخ عليه تبرير استعمال لغة أخرى غير العربية، عادة مختلفة عن عادات الجار، جنسية أخرى أصبحنا اليوم نشعر بمدى هشاشتها هنا فى فرنسا. وتعود هذه الهشاشة إلى أن مشكلة الجنسية بالنسبة ليهود مصر كان لها طابع شبه خيالى. ففيما عدا الحالة الحدية لـ «إيطاليى» الحارة، اتسمت أسطورة الجنسية فى أحيان كثيرة بشكل الكذب التقى الذى لا يمكن التخلى عنه. وعلى الرغم من كشف هذا الكذب آلاف المرات، فإنه ما زال قائما. فسواء تعلق الأمر بهجرات خيالية، أو بقوانين وقرارات مزعومة مصنوعة كليا من أجل القضية (مثل قرارات «كريميو» الشهير التى لا تنطبق إلا على يهود الجزائر)، كانت الأصول الأوروبية تسمح بالاطمئنان حول الجهة التى يمكن التوجه إليها لو برزت الحاجة إلى السفر. لقد أثارت قضية حصول بعض العائلات اليهودية المقيمة فى مصر منذ عدة قرون على جنسيات أجنبية فضيحة كبيرة فى منتصف القرن التاسع عشر. وقد اتضح أن المسألة تتعلق بسعى بعض رجال القوم إلى «شراء» مناصب شرفية (كقناصل أو نواب قناصل) من بعض القوى العظمى الأوروبية التى لم يكن لها تمثيل فى مصر، أو كان تمثيلها ضعيفا. كانت هذه الحماية الفاضحة تضفى عليهم عددا من الامتيازات، وخاصة إمكانية استثناء أطفالهم من

التجنيد، وعدم الخضوع للقضاء المحلى، والاستمتاع بنوع من الحصانة أمام السلطات الأمنية للبلاد.

ومع ذلك، كان اليهود فى بيتهم فى مصر منذ قرون. فقد عوملوا كمواطنين كاملى الأهلية من قبل البلد بأكمله، كما عانوا من المضايقات أيام الأزمات.

تتكاثر الأمثلة التى تلقى الضوء على حبهم لهذا البلد وللغته على الرغم من الصعاب. وهكذا تدارس بدقة «ابن ميمون» فى كتابه «دليل التائهين» الفروق التى قد تؤدى إليها اللغات بين شخصين، والمثال الذى يقدمه لنا له مغزى خاص، فهو يقول متوجها لمريديه: «اعرف أن الذى لا يفهم اللغة التى يتحدث بها رجل يستمع إليه، غالبا ما يعلم أن ذلك الرجل يتحدث، ولكنه يجهل ماذا يقول. ولكن الأخطر من ذلك هو أنه يسمع أحيانا كلمات لها معنى معين فى لغة المتحدث، ولكنها قد يكون لها ـ بالصدفة ـ معنى معاكس فى لغة المستمع، بينما يعتقد هذا الأخير أن لها المعنى نفسه الذى يظنه. فعلى سبيل المثال، لو استمع عربى إلى عبرى يقول «ابعد» سيعتقد أن الآخر يتحدث عن شىء يراد إبعاده، بينما يريد العبرى فى الواقع أن هناك شيئًا يعجبه وأنه يريده».

من غير العجيب فى وضع متناقض ومزدوج كهذا، أن يكون يهود مصر قد اختاروا لغة ثالثة فى العصور الحديثة على أقل تقدير.

لقد دفعهم حبهم للعربية إلى أن يجعلوها لغة الحب التى تعبر عن تلك الكلمات التى تسمع فقط من قبل الزوج، أو الزوجة، أو الأطفال. كما جعلها اليهودى لغة العقل.

فلم يعد يحصى اليوم عدد المفكرين اليهود الذين كتبوا وتحدثوا بالعبرية والعربية فقط.

ففى جدله مع القرائين، بدأ «سعادية» بترجمة النص المقدس وتعليقاته إلى العربية حتى تستطيع الجماهير استيعاب مصادر الوحى «التلمودى» من أجل التصدى لمزاعمهم.

أما «ابن ميمون»، فقد جاءت كل أعماله باللغة العربية.

ويقول ج. سوارس فى كتابه «الذاكرة المنسية»:

«كما يرتفع بجانبنا صوت خفيض ـ بعد أن يكون الأطفال قد دخلوا الفراش ـ ليتلو

علينا متعات قصيدة لعمر الخيام. وأحيانا ما يثير الكتاب المنسى خطأ إلى جانب السرير خيال الطفل أمام رقصة الحروف الغريبة التى تملأ عيونه بإعجاب لا نهائى».

«فى الشد والجذب ما بين العربية وتلك اللغة الأوروبية الأخرى، خلقوا نسيجا من اللغات؛ فهذه الفرنسية المبدورة بتعبيرات مصرية لا تشبه من قريب ـ بطبيعة الحال ـ لغة فولتير».

«إن المنفى الذى يجعل المرء يترك جزءًا من لغته الأم يدعه بلا صوت ولا طريق. يضعه هذا الفقدان فى وضع بينى، وفى مكان محظور الاقتراب منه على مستوى التاريخ والزمن».

ماذا نقول عن ذلك الطفل الذى غادر توًا سيدى جابر ليصل إلى باريس، فيسمع فى أول درس للتاريخ أن أجداده كانوا من بلاد الغال، وأن بونابارت سافر إلى مصر كى يعيد إحياء هذه الأرض العتيقة؟

لقد مرت سنوات طويلة، وأصبح الطفل رجلا يدفعه احتياج ملح إلى العودة، ولو مرة واحدة، إلى البلد الذى يأتى منه ولا يعرفه.

لم يكن فى وسع ثلاثين عامًا من الاستماع المنتبه لهذه القصص إلا أن تدفعه لمواجهة واقع لم يعد مماثلا لواقع الماضى.

لقد انتابه شعور غريب بالمألوف بمجرد أن فتح الحاخام أبواب معبد «إلياهو هانابى»؛ فظل متسمرا على الباب، مستوعبا بعينيه هذا الفضاء الملىء بتاريخ، وأمل، أى الأمل فى أن يرى من جديد هذا الزحام الحى الخاص بليالى الأعياد فى الأمسيات الدافئة للإسكندرية.

وكأنما كل شىء، وكل دكة، وكل قطعة حجر قادرة على إعادة إحياء كلمة، أو صوت، أو صورة فقدت اليوم.

فى مكان آخر من المدينة، تنتظره المدافن المحاطة بحائط رمادى، وهى الزيارة التى وعدته به الذاكرة قبل سنوات طويلة مضت.

هذه المقابر المرصوصة جنبا إلى جنب فى صمت آليات فعلية للرجوع بالزمن والنسب إلى الوراء؛ إلا أن الكل يعلم أن ميزتها الأساسية هى الصبر. إنها مغلقة

بأكوام من أوراق الشجر الناشفة ومن الزهور اليابسة؛ وهى أحيانا مواربة، فتحيى إلى ذاكرتنا الفراغ الذى تركه قريب بكيناه فى الماضى، أى أنها تقدم مشهدًا لعزاء عفا عليه الزمن.

عند مفترق طريقين، يفاجأ الزائر بحوار يرتفع من بطن الأرض؛ ولمن يعرف كيف يستمع، فإن هذا الحوار عبارة عن مناقشة بين والدتين تتحدثان عن نجاح زواج ابنة إحداهما، أو جدل حاد يدور بين رجلين حول صفقة من الأقمشة المستوردة من إنجلترا ومحجوزة بميناء الإسكندرية بسبب أحدهما. لحسن الحظ، جاء بطء إجراءات الإدارة المصرية لينقذهما من الانفصال؛ ولكن، أين كان يمكنهما الذهاب، حتى وإن كانا متخاصمين؟ إنهما جنبا إلى جنب منذ ٢٥ سنة، ولا يعلم أحد كم سيظلون بعد؟

أطراف هذه الحوارات وحدها هى التى تعرف لمن تتحدث؛ فالأسماء المحفورة على اللافتات النحاسية المثبتة على الحجر خلعت منذ زمن، وسقوط الأمطار مع أشعة الشمس طمست أسماء الراقدين فى القبور من على الآثار المخضرة المتبقية من المعدن. لمزيد من التأكد، من الأفضل الرجوع إلى سجلات الطائفة التى تشير إلى مواقع القبور فى المدافن اليهودية الثلاثة بالإسكندرية. كما تحكى تلك السجلات تاريخ هذه الطائفة التى أصبحت موزعة اليوم بين عدة قارات.

لقد استدعى الأمر خروج اليهود من مصر للمرة الثانية فى التاريخ.

فقد غادرت من جديد تلك الأسماء ـ التى كثيرا ما أتت من أماكن أخرى ـ إلى أراض مغايرة، ربما لأسباب غير معروفة لديها. وبعد أن مرت هنا على امتداد بضعة أجيال، أخذت من جديد طريق المنفى. وفى حين يرحلون بسلام، فإنهم يصلون محملين بكل التشوهات والآلام التى تصاحب المغادرات الكبرى التى لن تعرف طريق العودة.

يحكى لنا التاريخ أن أكبر كارثتين يخشاهما اليهودى هما الاندماج والإبادة الجماعية. فى هذا الانتقال من لغة إلى أخرى، تعمل لغة الملجأ المضيف على محو أسمائهم؛ وهو ما يعد إشارة أولى إلى إعادة الانغراس، وليس الاندماج. وتحت ضغط هذه اللغة الأخرى، يسعون ـ بمحض إرادتهم ـ إلى إخفاء أى لكنة، أو مط فى التعبير، يسمح لمن أمامهم باستيعاب الاسم الغريب منذ الوهلة الأولى؛ إنه إذعان المنفى، وإبادة الاسم.

فهذا الاسم الذى يدلل على الأصل هو الذى يفرق بين الداخل والخارج؛ وهو منغرس فى اللغة التى تشكل جزءًا لا يتجزأ منها؛ إنه الشيء الذى يتعذر ترجمته، وحتى إن كان يكتب بالطريقة نفسها فى جميع اللغات، فإن طريقة نطقه هى التى تحدد أصول صاحبه. أحيانا ما يكفى تغيير مجرد حرف واحد أو صوت واحد فى الاسم حتى يصبح مقبولا؛ ومن هنا تظهر نقطة ارتكاز جديدة لخلق تاريخ جديد، وأصل جديد يشطب على الأصل السابق بجرة قلم.

فلنحك مرة أخرى قصة ذلك اليهودى من نيويورك الذى غير اسمه مرتين؛ فمن «فيلكشتاين» أصبح «جونز»، ثم تحول إلى «سميث» نظرا لأنه لم يعد يحتمل السؤال الأبدى: «وقبل هذا، ماذا كان اسمك؟».

فيما قبل، كان «أبراهام» يسمى «أبرام».

إنه وهم «تأسيس» سلالة جديدة.

هناك زمنان بالنسبة لأبراهام فى تحول اسمه: زمن الرحيل، وزمن الانتساب.

إنها أسطورة الأصل التى تفتح الباب إلى تأسيس شجرة نسب جديدة بدون نسب سابق؛ وهى وحدة الإنسان أمام مصيره، فى مواجهة التاريخ الذى يفرض عليه. فالمنفى يخلق انتسابًا جديدًا من خلال فقدان أكثر الأمور انغراسا بداخلنا، أى فقدان بلد المولد و«بيت آبائنا».

إلا أن المفارقة بالنسبة ليهود مصر أن أسس تلك اليهودية، وجذور جزء من هويتهم، يقع عند حدود الفضيحة. فهؤلاء اليهود الذين قضوا حياتهم وتاريخهم فى مصر، وأثروا وتأثروا بها، لم يصبحوا يهودا إلا لأن أجدادهم كانوا عبيدًا فيها منذ عشرات القرون، وخرجوا منها.

يذكرنا تاريخ يهود مصر برقصة مترددة لما تحتويه من خروج وعودة. ويبدو الأمر كأن هناك دائما ذيلا لا يسمح بالانتهاء.

غير أن وجود هذا الذيل هو الذى يضعنا اليوم فى المنفى؛ فآثار تاريخنا التى ما زالت حية، وبقايا بيوتنا، ومعابدنا، ومدافننا هى التى تجعل منا آخر الشهود على هذا الماضى.

لم يعد هناك طائفة ليهود مصر، وسوف ينتمى ـ أو لا ينتمى ـ أطفالنا المولودون فى فرنسا إلى الطائفة اليهودية فى فرنسا.

تدفعنا الرغبة العارمة فى تقديم شهادتنا حول ما يتداعى بوتائر متسارعة وسط رمال الصحراء إلى القيام بعودة متخيلة. فهذا المنفى هو الدين الذى ندينه إزاء تاريخ مصر، وهو الثمن الذى طلبه منا هذا البلد كل مرة من أجل إعادة تسجيلنا فيها. من يدرى إن كان ما نعتقده الآن إقامة مستمرة ليس سوى مجرد حالة من العبور فى إطار الحركة الكونية للزمن، وإن كانت مصادفات منفانا لن تشهد بروز «جوزيف» آخر سوف يستقبل أجيالًا تبحث عن مرفأ من السلام. إلا أنه لو حدث ذلك، سيكون علينا مواجهة الرحيل مرة أخرى.

ومن عجائب التاريخ أن موعد أكبر هجرة لليهود ـ أى مغادرة ٣٠٠,٠٠٠ يهودى من إسبانيا فى عام ١٤٩٢ ـ يتناسب مع اكتشاف أمريكا، وكأنه بمجرد أن يغلق باب، هناك باب جديد يفتح.

اليوم، بعد ٢٥ سنة من الشتات، اندمج أغلبية يهود مصر إلى هذا الحد أو ذاك فى البلدان التى استقبلتهم.

ولكن، هناك إمكانية قراءة مختلفة لهذا الشتات؛ فقد نسجت خيوط جديدة على امتداد العالم، ورسمت مسارات جديدة من أمريكا الجنوبية إلى إسرائيل، من لوس أنجلوس إلى نيويورك، ومن لندن إلى روما مرورا بباريس، لوزان، أو ميلانو؛ وهكذا تشكلت خريطة جديدة تتخللها عديد من نقاط التعارف.

من لا يتذكر من الرئيس السابق لطائفة القاهرة أنه حمل معه عددًا من «السيفر» إلى الطرف الأقصى للكوكب من أجل بناء معبد جديد طبقا للطقوس المصرية؟ يحمل هذا المعبد اسم «حاييم ناعوم أفندى». ومن ينسى ما قام به فلان أو فلان باصطحاب وابور «البريموس»، أو كنكة القهوة فى حقائبه؛ ذلك أن القهوة لا يمكن تذوقها إلا لو صنعت فى هذا الوعاء. من يستطيع أن ينكر أن أى شىء تم اجتذابه من مصر فى خضم سرعة السفر لا يحرك فينا بحر من الذكريات؟

لا يعنينا البكاء على المصير المحتوم لليهود فى بحثهم الدائم عن ملاذ، ولا أن نطلق النواح على آلامنا الماضية؛ بل ما نريده قبل كل شىء هو اقتلاع هذا الخجل الذى

يحيط بسرنا؛ وهو الخجل من تاريخ لا يشبه تاريخ البلد الذى استضافنا، والخجل من لغة وطقوس لا تشبه ما نمارسه يوميا، والخجل أخيرا من اختلافاتنا.

كم أحب أن أرى اليوم وجوه آبائنا أو أجدادنا وهم يتلون مساء عيد الفصح صلاة «الهجادة» التى تقول: «أنا الرب الذى أخرجتكم من مصر».

لقد تم هذا الخروج اليوم؛ وأصبح الأمل فى العودة مفقودا لعقود طويلة قادمة. لا يمكن أن ينكر أحد أن هناك روابط جديدة خلقت على مدى ٢٥ سنة من المنفى؛ كما أعيد تشكيل عديد من نقاط الالتقاء الجديدة، وعقدت زيجات بين يهود من أصول مصرية، كما تشكلت الشراكات. وتقدم لنا مناسبات الزواج، والوفاة، والميلاد، فرصا للتجمع مرة أخرى حول موائد طعام تذكرنا وجباتها بطعم الطفولة؛ وتنطلق الألسن معبرة عن نفسها بالعربية بطريقة طبيعية تماما.

هل هو خطر النسيان وتلاشى أى أثر هو الذى يدفعنا للكتابة اليوم؟

كل امرىء يتعامل مع هذا النسيان بطريقته الخاصة وفى الوقت الذى يناسبه. البعض يحاول ـ فى قرارة نفسه ـ أن يبعد طيفه يوما بعد يوم؛ وعلى العكس، هناك آخرون يطوقون إليه بكل خلجاتهم.

لا داعى لوجود تعليم مقنن حتى يسمع أطفالنا عن هذا الماضى الذى سينتقل بطريقة شفهية ـ غصبا عنا ـ من خلال مجموعة متشابكة من الكلمات، والحركات، والنظرات. وربما سيستطيع أحد هؤلاء الأطفال يوما أن يكتب «مذكرات يهودى من مصر ولد فى فرنسا».



ملحـــق

مضغوطون بين المطرقة والسندان، بين استعمالهم من قبل نظام ملكى متهالك وسلطة ناصرية «كان عليها» الدخول فى طريق حرب التحرير (مع الانتصارات التى نعلمها فى عامى ١٩٥٦ و١٩٦٧ على الجبهة المصرية الإسرائيلية، وأيضا فى اليمن..)، تم دفع يهود مصر إلى الخارج فى عام ١٩٥٦، أو على أقل تقـدير تم طـرد من يستمتعون بالوصاية الفرنسيـة أو البريطانية. ثم تبعهـم بعد ذلـك من يسمـون بالمحليين؛ أى المواطنين السابقين للإمبراطورية العثمانية (وهو ما كان يجعلهم بـدون جنسيـة من وجهة نظر القانون الدولى). كما أدت إجراءات التأميم التـى تمت فى بدايات الستينيـات وأصابت شريحة كاملة من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ـ سواء من اليهود أو غيرهـم ـ إلى توليد عملية رحيل عامة فى صفوف الأقليات؛ مما انتهى بتصفية الطائفة اليهودية من أعضائها. وأخيرا، مع حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، تم اعتقال أكثر من ٣٠٪ من اليهود الباقين الذين كان يبلغ عددهم آنذاك ٣٠٠٠؛ وذلك فى ظروف حبس بشعة. قام أحد الكتاب ـ الذى يرغب أن يظل مجهولا حتى اليوم ـ بوصف تلك الظروف فى مجلة «إكسبريس» الفرنسية.

عند إعادة قراءة تلك الصفحات، لا يسعنا سوى التساؤل كيف أمكن للشعب المصرى أن ينتج تلك الدمى الدموية التى كررت المأساة الفائقة التى وقعت قبل ٢٥ سنة، على هيئة ما يمكن اعتباره كوميديا سوداء.

هل كان يتوجب علينا إغلاق هذا الملف بينما تمثل مصر اليوم، كما كان الأمر دائما، بلد الكرم والتحضر؟ تشير إلينا الخبرة أن أى صمت تجاه جزء من التاريخ لا يمكن أن يؤدى سوى إلى إعادة تكراره بنمط قد يكون متنكرا فى زى آخر إلى هذا الحد أو ذاك، وسيطرته على أذهان من شاركوا فيه وسلالتهم فيما بعدهم. ونحن جميعا، من منفيين وسكان فى هذا البلد، مرتبطون بقواعد أخلاقية مشتركة تجعلنا لا نستجيب لإغراء الصمت والنسيان.

وها هو نص المقال:

اليهود فى ظل حكم عبد الناصر[١]

هذا الرجل الذى يضع على رأسه «كاسكيت» أحمر اللون، ويرتدى اللباس العسكرى الكاكى، وذو الوقفة البريطانية، يبدو كالممثل الذى يؤدى دور الضابط. حينما يمر الرجل بالزنازين فى سجن «القلعة»، يقف له الرقيب، وكافة رجال الشرطة، والمسجونون، وحتى عامل القهوة فى وضع من الاستنفار. فهو فى الواقع أحد كبار الضباط الذى أراه منذ أن جرى القبض علىّ وإيداعى معتقل «أبو زعبل»، بعد أن وضعت حرب السويس أوزارها. لقد أصدر هذا الرجل الأمر بالإفراج عنى بعد أن احتفظ فى جيبه بكل من جواز السفر وبطاقة الطائرة الخاصة بى.

فتحت أبواب القلعة أمامى حيث خرجت حرًا فى الهواء الطلق، وأشاهد القاهرة أمامى والتى لم يطرأ عليها أى تغيير وكأنما لم يحدث شىء ما. هناك أطفال يلعبون كرة القدم فى عرض الطريق العام، كما يلقى الراديو علينا بأعلى ما لديه من صوت أخبار وأحداث. كانت الأتوبيسات تمر عبر شوارع المدينة، تطلق من جوفها عند كل منحنى مجموعات من الرجال والنساء الذين يتناثرون على الأرصفة. عندئذ، شاهدنا (أنا والضابط) أحد بائعى الجرائد يرفع عاليًا إحدى الجرائد أمام المارة وهو يصيح بأعلى صوت: «الخونة!»؛ إنهم المسئولون عن الهزيمة الذين سوف تتم محاكمتهم. وعلى أحد الجدران أمامى، أرى عبارة شبه ممسوحة تعود إلى ما قبل الأحداث: «قريبا سوف نفتتح فرعا لهذا المحل فى تل أبيب».

اتجهنا نحو التاكسى الوحيد المنتظر فى الموقف؛ نظر السائق إلى معصمى وابتسم لى ابتسامة عريضة، وأخذنا نتموج يمينا ويسارا فى نفس اتجاه الخط العربى.

لا شىء يجعلنا فى عجلة من الأمور بعد الآن؛ فقد كان أمامى ما يكفى من الوقت كما كان الحال أيضا فيما مضى. إننا الآن فى «دِرب اللبانة»، الحى القديم الذى كان يضم بين جدرانه عديدًا من الكتاب والفنانين جاءوا إليه قادمين من كافة أنحاء البلاد.

(١) هذا هو نص المقال الذى تم نشره فى مجلة «الاكسبريس» L'Express الفرنسية فى عددها الصادر فى ٢٥-٣١ ديسمبر ١٩٦٧، والذى أعيد نشره بإذن من المجلة.

إن هذا الحى هو المركز الذى كان يضمنا جميعًا. إنه يعنى بلوغنا سن العشرين. يربت الضابط على ركبتى ويقول لى «معلهش»، مما يجعلنى أتساءل ماذا كان سيقول لى لو تمت مقابلتنا فى سجن أبى زعبل.

أعلم أنه كان يجب أن تدور عديد من الأمور بطريقة مختلفة، وهو ما كان يتطلب القليل: قليل من الحظ مع بعض المصادفات حتى تأخذ الأمور مسارا آخر. أيا ما كان الأمر، فكل شىء على ما يرام، حيث أصبحت تضم مصر منذ هذا الصباح مصريا أقل، وذلك دون أن تطلق إسرائيل طلقة واحدة من سلاحها... وهو ما يذكرنى بقصة «أرثر مايير» غداة مبارزته مع «درومون»، فهل كان يلزم اندلاع حرب لإخراجى من هنا.. كل شىء يحتاج إلى إعادة؛ وليس من السهل أن تكتشف بعد مضى ٣٠ سنة من عمرك أن كل الإمكانيات التى تخيلتها ليست سوى شوارع مسدودة. امتنعت عن الرد على كلمة الضابط التى قالها لى خشية أن تؤدى أية نبرة فى صوتى، أو كلمة زائدة، إلى غلق آفاق المستقبل الذى يلوح أمامى، والذى سوف يتراجع إلى الخلف كلما تقدمت نحوه.

تم القبض علىَّ فى ٢٥ يونيه بأمر صدر تليفونيا؛ المتصل بى هو الضابط «كامل داوود» من المباحث العامة، وذلك فى ليلة الجمعة ٢٣ يونيه. حدد لى موعدًا للقائه فى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى؛ وقد انتظرته بالفعل، ولكنه لم يحضر، فاتصلت به مساء يوم السبت واتفقنا على أن نتقابل فى اليوم التالى.

صباح يوم الأحد، قبل التوجه كالعادة إلى النادى، ذهبت إلى القلم السياسى. كان هذا الضابط فى انتظارى، وأحسست بالغريزة أنه سوف يلقى القبض علىَّ. أخذ ينطلق فى الضحك ملقيا المثل القائل «ابدأ يوم الأحد»، ثم تساءل فى تهكم «منذ متى كان القبض على الناس تليفونيا». قدم لى فنجانا من القهوة وسألنى إذا كان بوسعى أن أقدم الدليل على إننى مصرى الجنسية، وعندما جاء ردى ايجابيًا كان تعليقه انه لابد أن لدى شهادة إثبات جنسيتى المصرية. هنا شعرت بنوع من الانتصار لأن حيازة شهادة إثبات الجنسية هى الدليل على أن مالكها لم يكن على الدوام مصريا. لقد كنت مصريا قبل أن تولد مصر نفسها، عندما كان الجميع لا يزال عثمانيا؛ ومن ثم لم يكن من شأنى أبدا أن أقدم أى دليل على ذلك لأن المصريين الحقيقيين هم مصريون واقعا، كما كان الوضع تمامًا مع الهنود الحمر الذين هم الأمريكيون الحقيقيون.

عندئذ قال الضابط إننى حقًا من هذا البلد، ثم استأذننى ليغيب بعض الوقت، وأخذ يرتدى سترته العسكرية .. وأخيرا وجدت نفسى بعد قضاء ساعة من الزمن فى صحبة أحد اليهود من أعضاء مجلس الشيوخ الذين تسيطر عليهم فكرة الطعام «الكاشير» (المسموح به دينيا)؛ كما لحق بنا يهودى من كبار الملاك العقاريين، بينما يقودنا ثلاثة من رجال الشرطة فى سيارة حكومية قديمة للغاية سلكت الطريق بثبات من يعرفه معرفة جيدة.

وعندئذ صاح عضو مجلس الشيوخ قائلًا «سوف تتعطل تلك السيارة قبل مرور عشر دقائق، إننى أعرف ذلك جيدا». كان قد سبق أن أجريت حديثا صحفيًا مع هذا الرجل المتقدم فى السن عندما كانت القاهرة تتجه مباشرة نحو الظلام الحالك. منذ الثورة، كان يتم اعتقاله فى جميع المناسبات، ولكن ـ كما هو الحال فى هذه المرة ـ بعد وقوع الأحداث. تم القبض عليه فى عام ١٩٤٨ بعد الاتفاق الرابع على وقف إطلاق النار. وفى عام ١٩٥٦، قبض عليه ليلة رأس السنة، وظل فى السجن حتى مشارف عام ١٩٥٧. كان على علم تام بما يدور فى السجون، ويعد سجن أبو زعبل من سجون النجوم الثلاثة فيما يتعلق بالتعذيب والاضطهاد. كما لم تعد الأمور على ماكنت عليه فيما قبل فى كل من ليمان «طره»، وسجن القناطر، وسجن القلعة. لم يكن يعرف معتقل «الواحات»، ولكنه يعلم أنه يتم «بناء سجن جديد فى «وادى النطرون». وراح يقول: «سوف يصير الوضع كما هو عليه فى المؤسسات العامة، وفى الخطة؛ أى العودة للعصور الوسطى، والفوضى داخل أبنية حديثة جميلة».

هنا تتعطل السيارة، وحيث إن أيدينا لم تكن مقيدة بالحديد، نزلنا أنا وعضو مجلس الشيوخ وأخذنا بدفع السيارة إلى الأمام مع رجال الشرطة الثلاثة الذين وضعوا بنادقهم أرضا فى حراسة المالك العقارى للقيام بتلك المهمة .. حتى انطلقت السيارة مرة أخرى.

يقول لى عضو مجلس الشيوخ هذا أنه لا يجب أن أقلق كثيرا لأنها مجرد لحظة صعبة ستمر؛ كما يضيف أن ما يحدث له طابع مصرى متسق تماما لأنه يتسم بالعبثية الخالصة. فهو يرى أننا عبثيون مثلما يتسم الفرنسيون بالعقلانية؛ فالعبثية هى حياتنا وأرضنا المجسدة.

أراه يتوتر كثيرا وينهرنى حينما أقول: «ما أهمية اعتقال ٣٥٠ يهوديًا وذات العدد من المسلمين وبعض المسيحيين فى ٥ يونيه مقارنة بالكارثة الكبرى التى وقعت للبلاد؟»

يشتد هياج الرجل وهو يؤاخذنى عما قلت: «ما صلة ذلك بالكارثة؟ ما الصلة بين سجناء الحرب، واللاجئين، والمواطنين الذين يقال لهم أنهم مثل الآخرين، وهم كذلك حقا؟ هناك ضباط قرروا ـ قبل ٥ يونيو ـ القبض على ناس لأنهم يهود، أو ناس مشاكسون مثلى، أو لأنهم بهائيون أو من شهود يهوذا؟ وسوف ترى أننا سنظل هنا، ولن يتحرك أحد من أجلنا، وسيقع على الصليب الأحمر وبعض السفراء العمل معا من أجل إنقاذ عبد الناصر من تلك الورطة التى وقع فيها».

هنا يؤكد المالك العقارى الذى يرافقنا على ما يقوله عضو مجلس الشيوخ. أنه يعرف تمامًا اليهود الذين لا يزالون فى مصر، إنهم ظلوا فيها لأنهم مصريون؛ وكان لاينبغى تركهم أحرارا وفقا لقواعد الفاعلية والواقعية السياسية. فمن المعروف أنه فى مجال السياسة، حينما لا يتحتم قتل العدو، عليك أن تغدقه باهتمامك. أتعرفون ما يقوله الشعب منذ القبض على اليهود؟ يقول إن اليهود الوحيدين الذين تمكن عبد الناصر من القبض عليهم هم اليهود المصريون. ثم أضاف: «إللى ما قدرش على الحمار، قدر على البردعة».

قص علينا عضو مجلس الشيوخ كيف أن كلًا من سوريا والعراق كانا قد طالبتا جمال عبد الناصر من خلال الجامعة العربية بالتخلص من هؤلاء اليهود؛ وقد وعد عبد الناصر بذلك. ومن المفارقات أن انزعاجه منهم يعود إلى ذلك الحين؛ فهو متوتر من أولئك اليهود الباقين، الذين يدعون عدم فهم الرسالة ولا يريدون أن يفهموا أن وجودهم غير مرغوب فيه. لا يرغب اليهود فى المغادرة؟ فلنضعهم فى السجن الذى أصبح كالمجارى التى تلقى فيها السلطات كل ما تريد التخلص منه. لا شك أن هذا دليل آخر على عدم قدرة النظام.

عندئذ نسمع المالك العقارى يتساءل لماذا علينا أن نخص بالسخط رجال الشرطة دون غيرهم من المؤسسات مثل هيئة البريد، والصناعة، وشبكة المجارى التى هى فى أسوأ الأوضاع. إنه يعتبر أن القبض على الناس يعود إلى نزوع السلطة للسيطرة، وهو

من خصائص العاجزين. تلقى لنا عمليات القبض العشوائية تلك الضوء على مغزى حرب الأيام الستة، أكثر مما تستمد تفسيرها من تلك الحرب.

معنا محاسب يهودى يتساءل إذا كان ستتوافر له فى «أبو زعبل» إمكانية الحصول على الطعام «الكاشير»، مما يدفع عضو مجلس الشيوخ إلى رفع أكتافه. يقص علينا أحد الجنود أن الإسرائيليين (الذين يسميهم «اليهود») كانوا قد فتحوا أبواب ليمان «الطور» عندما اجتاحوا سيناء؛ وهو الليمان الذى اعتقل فيه شقيقه لمدة عشر سنوات بسبب اتهامه بالانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين.

يظهر الليمان أمامنا فجأة وهو منغمس فى الأرض الخصبة؛ البناية عبارة عن مكعب فحمى تتخلل حوائطه القضبان الحديدية.

عندما نتأهب للدخول فى هذا السجن، يتقدم إلينا أحد الضباط ضاحكا، وذراعه ممتدة إلى الأمام، ناطقا: «أهلا وسهلا»؛ أرد عليه التحية، ثم أسمع صوتًا يصرخ، إنه صوتى أنا. جلس عضو مجلس الشيوخ والمالك العقارى على الأرض، وهما يخلعان ملابسهما بينما يصفر فوق رؤوسهم سعف من النخيل. وهنا يقوم أحد الضباط بضغط ظهرى إلى القضبان الحديدية سائلا عن اسمى الذى أتفوه به؛ فإذ به يطبق بيديه على رقبتى، فلا أحد هنا يحمل اسمًا؛ هنا لا مكان للأحذية، وللأسماء، ولساعات اليد؛ لا أحد من حقه أن يحمل مجرد لقب؛ كل ما هو متاح هنا هو أسماء نساء.

يصيح ضابط آخر أمرا، فنهرول فى حلقة مفرغة، حتى يقوم الضابط الذى اهتم بأمرى بالعمل على أن نقع فوق بعضنا البعض، فتتهاوى علينا الركلات وضربات سعف النخيل. نعاود الجرى، والحق أن عضو مجلس الشيوخ أسرع منى، ولكننا أصبحنا متساوين فى الجولة الثانية؛ إنه يحاول أن يقول لى شيئا ولكنه لا يستطيع ذلك لأن طاقم أسنانه قد انتقل من مكانه.

بعدئذ، يسألنا الضباط إذا كنا نعرف ضباطا يعملون فى الطيران، ويستفسر عن الدخل الذى نحصل عليه؛ وهنا يفيده عضو مجلس الشيوخ بأنه يمتلك ١٨٠٠ فدان تم وضعها تحت الحراسة، ومعاشًا يبلغ ٤٥ جنيها؛ فيركله أحد الضباط ويسأله: «من أنت؟».

بدون تردد يجيب الرجل: «أنا زنوبة».

يقول انه يعرف كل تلك العادات، فقد كان فى هذا السجن فى العام ١٩٥٦ . «وماذا أنت أيضا؟» « أنا لوطى»، ثم يوجه الكلام إلى: «وأنت؟»، حينما أرد عليه إننى لا أعرف، يركلنى فى قصبة الرجل ويقول لى «أنت أيضا لوطى واسمك خدوجة». ثم يقوم هذا الضابط بتفتيشى، ويجد دخان السجائر الذى يسكبه ببطء على رأسى. يجىء أحد كبار السن، ويقوم بحلق رؤوسنا، ثم تبدأ عملية التنكر بحيث أصبح منظرنا ـ بأقدامنا الحافية، ورؤوسنا الحليقة، والسراويل الواسعة التى تتدلى عليها السترات الطويلة ـ «كالكومبارس» المكسيكيين الذين ضلوا الطريق. عندما أصل إلى باب الزنزانة أودع زنوبة؛ يهمهم الأخ المسلم الذى يوصلنى إلى زنزانتى إننا لسنا نحن اللوطيين، بل يعلم الجميع من هم اللوطيون.

وعندما نلقى بنظرنا من خلف القضبان، نرى فى الزنزانات المواجهة لنا من يوجهون إلينا الإشارات المبتذلة والقبيحة؛ وهنا يشرح لى زملائى إن تلك هى أبجدية أبو زعبل. ثم يسألنى زملائى ماذا يفعلون من أجلهم «فى الخارج»، وما إذا كان الصليب الأحمر يعرف عن أحولهم. أبلغهم إن الإسرائيليين على قرب من أبو زعبل، ولكن كل القاهرة تساند عبد الناصر حيث توجه كل نظرها نحو موسكو؛ وهنا يتساءلون أين هم الإسرائيليون الآن على وجه الدقة، وعندما أجيب عليهم يضحكون بصوت عال ويقولون «إنها علامة سيئة، بل سيئة للغاية».

كل شىء له معنى لديهم؛ فعندما يقلل الضابط من ضربه، فإنما يكون لهذا مغـزى معيـن؛ كما أن زيادة كميات الشوربة علامة جيدة؛ ويعتبر التزحلق فى مراحيض المياه من أفضل العلامات.

يقوم هؤلاء المعتقلون بإرشادى حول أسلوب التعامل فى المعتقل، وكيف يتوجب وضع الأرجل عند النوم، والاستفادة بقدر المستطاع من المساحة المتاحة على الأرض للنوم. ويوجهوننى حول كيفية تفادى الاشتباك بأجساد الآخرين من النائمين بجوارك، وإعداد بطانيتى مع استعمال الطبق الكبير بديلا للوسادة.

يعتبر هؤلاء المعتقلون وجودهم هنا طبيعيًا. ويجب أن أكون شديد الحرص، حيث لا ينبغى إغضاب الضباط الذين يتولون تربيتنا؛ فحينما يسألون «أين تعتقد أنك موجود؟» علىَّ الإجابة حتى الثمالة أننى فى بولندا، والتحلى بتعبير التائه، وربما التحدث باللغة البولندية إن أمكن؛ أى التفوه بكلام لا معنى له.

نسمع الآن صوت الأذان؛ إنهم الإخوان المسلمون الذين يسجدون ويركعون. هنا أيضا نرى أطيافًا تركع وتسجد، كما لو كان الحائط عبارة عن مرآة كبيرة؛ من هذه الأطياف فى زنازيننا؟ إنهم القراءون الذين يصلون ووجوههم موجهة نحو مكة، حفاة الأقدام مثل المسلمين.

بعد قليل، حينما سينتهى المسلمون والقرائون من الصلاة، سيبدأ اليهود «السيفاراديم» و«الأشكيناز» فى أداء الصلاة ووجوههم تتوجه نحو القدس. كل صباح، ومساء، وليل، ينطلق النداء المستفز «شماع إسرائيل» الذى ينتقل من زنزانة إلى زنزانة. يدعى الضباط عدم السمع، بينما يتبادل الإخوان المسلمون نظرات ذات مغزى مع المصلين.

حتى منتصف سبتمبر، كان يوجد فى أبو زعبل ٣٥٠ يهوديًا من بينهم ١٨٥ قرائيا، بينما كان أغلبية الآخرين من «السيفاراديم» مع أقلية من «الأشكيناز». فى شهر ديسمبر، لا يزال هناك مائتا يهودى؛ فقد نجحت تدخلات الصليب الأحمر وسفارتى فرنسا وإسبانيا فى دعم الإفراج عن ١٥٠ يهوديا فيما بين يوليو ونوفمبر. بيد أن سفير إسبانيا اضطر إلى الرجوع لفترة محاكم التفتيش ليضفى على اليهود «السيفاراديم» أصولًا إسبانية وتزويدهم بجوازات سفر، كما قامت فرنسا بجهد كبير أيضا فى هذا الشأن.

بالإضافة إلى اليهود، كان يوجد فى «أبو زعبل» ٧٠٠ من الإخوان المسلمين الذين استمروا فى هذا المعتقل فترات طويلة تتراوح بين خمس سنوات وعشر سنوات وصولا إلى اثنتى عشرة سنة دون محاكمة أو توجيه تهم إليهم. من هؤلاء الإخوان المسلمين من هم فى سجن القناطر حيث يلقون معاملة قاسية للغاية. فى شهر نوفمبر، تم الإفراج عن ألف من الإخوان المسلمين وما زال هناك ٤٥٠٠ منهم فى السجون المصرية. ومما يلاحظ أنه يوجد فى «أبو زعبل» ـ علاوة على الزنازين المخصصة لليهود ـ ما هو مخصص للمسمى «بالنشاط المعادى» للنظام حيث كان بها عدد من الرجال الموالين للغرب، إلى جانب زنزانة مخصصة لـ«شهود يهوذا»، وأخرى للـ«بهائيين». فى شهر أغسطس، تم إحضار ٧٠ مسلما من غزة ورجال «المشير» الذين تم حبسهم فى الزنازين الواقعة بالدور الأول. من بين هؤلاء، كان هناك مصطفى عامر ـ شقيق عبد الحكيم عامر ـ الذى قام بقطع شرايينه بعد عمليات التعذيب الأولى. كما قام أحد الإخوان المسلمين بالانتحار فى شهر أكتوبر بواسطة سكين مسروق من المطابخ.

أما بشأن ما كان يتم فى «تأديب» سجن أبو زعبل، فإن توزيع المعتقلين على الزنازين وفقا لأصولهم العرقية، أو لمعتقداتهم كان يخفى تقسيما أقل اصطناعا، ودواعى للتقارب أكثر ملاءمة للواقع، حيث كان هؤلاء المعتقلون ـ حرصا على المحافظة على أنفسهم، وعلى الإبقاء على علاقتهم بالواقع ـ يعملون على إعادة تشكيل مجتمعاتهم الخاصة كما كانت لا زالت موجودة على بعد بضعة كيلومترات من هذا المعتقل.

ومن الغريب أيضا والمثير للدهشة أنه لم يبرز أى تقارب سياسى بين المعتقلين أثناء وقت «الفسحة»؛ فتشكلت المجموعات هنا أيضا وفقا للانتماءات الاجتماعية والمهنية ـ وخاصة اللغوية ـ وليس بناء على الانتماءات الدينية.

لم تتضمن زنازين اليهود، والمسلمين، والمسيحيين، سوى ما يقرب من عشرين معتقلا ينتمون إلى الطبقات العليا (لا بحكم مواردها، بل بحكم مستواها الاجتماعى). كان يلتقى هؤلاء أثناء «الفسحة» من يونيو إلى سبتمبر؛ وعلى الرغم من ثيابهم البالية، ومنظرهم الكئيب، فهم يتحدثون بطريقة طبيعية عن دورات لعبة «الجولف»، ويثرثرون كأنهم فى حفل استقبال، ويثورون بطريقة راقية من منطق الاعتقال المستفز.

كان أحد المعتقلين من هؤلاء القوم يصيح بأعلى صوت «ليس الغباء من الأمور التى أحسن القيام بها»؛ وهو الذى جلب معه كتابين باللغة الفرنسية من تأليف أحد كبار الكتاب الفرنسيين (حيث جرى حجزهما فى مكتب إدارة المعتقل). أما الأستاذ «ز» المحامى، فكان ينظر إلى هؤلاء اليهود الفقراء، ويتأفف قائلا: «علىَّ التفكير أننى وسط فقراء قومى حتى أتحمل هذا الوضع». ومن جهة أخرى، قام أحد المعتقلين المسلمين ـ وهو وزير سابق ـ بتوظيف أحد أفراد سكرتاريته السابقين ليتولى القيام بغسيل الملابس الداخلية والخارجية لأصدقائه اليهود. وفى وقت «الفسحة»، أجد «سين» يقترب منى ليقول: «ألا تجد نفسك أنيقًا للغاية فى هذا الزى الذى ترتديه؟». كل هذا كان شديد العبثية.

ولكن ما كان أقل عبثية هو ذلك التلاقى بين «صغار اليهود» والإخوان المسلمين؛ صحيح أن صفوف الإخوان المسلمين ضمت محامين وأطباء، ولكنهم لم يتوجهوا إلى أندادهم من اليهود، بل إلى صغار القرائين.

هل يعود هذا إلى التناغم اللغوى، أو التمـاثل فى العادات، أو الشعور بتطابق الهوية فى التقوى؟ هل شعر الإخوان المسلمون بالانبهار تجاه هؤلاء اليهود الذين يشبهونهم

كالإخوة، ويتحدثون بلغتهم، ويصلون مثلهم؛ وهم الذين سبق لهم إحراق الكنائس اليهودية؟ كان قادة الإخوان المسلمين يلتقون كل ليلة حول الزنازين اليهودية حيث يتبادلون الحديث من خلال القضبان الحديدية مع من كان الأستاذ «ز» (المحامى) يطلق عليهم اسم إخواننا «على أرضية المعبد».

كما لم يتوجه الإخوان المسلمون إلى ذويهم من الموالين للغرب. كانوا يقدمون النصائح لليهود، ويعلمونهم تفادى آثار الزيارات الفجائية التى يقوم بها الضباط، ويؤدون دور الحكم عند نشوب المنازعات، ويتحدثون عن أم كلثوم، وعن أسرهم بتلك الحميمية المصبوغة بالأدب التى تميز صغار البرجوازيين فى المدن العربية.

انتظمت علاقات «صغار اليهود» بالضباط بالقدر نفسه الذى نشأت فيه علاقات الإخوة مع الإخوان المسلمين الذين يعدون أعداءهم التقليديين. ففى مصر، يشارك الزى الرسمى، والجهات الإدارية، والكلمات الطنانة، فى عقد اتفاقيات سرية؛ وهى اللعبة التى دخل فيها «اليهود الصغار» منذ البداية.

لم يفطن اليهود المميزون إلى الأمر مباشرة؛ فـ«اليهود الصغار» والإخوان المسلمون لم يعبروا عن غضبهم أبدا، بل كانوا يجدون الضرب والتنكيل من الأمور الطبيعية تماما. وهذا على الرغم من أن الأسابيع الأولى كانت قاسية.

كان لا بد أن أتحلى بحد أدنى من المنطق حتى أكتشف ذلك مباشرة؛ صحيح أننى كنت قد لاحظت أنه حينما يبادر الضباط بالضرب، يكون صراخ اليهود مبالغا فيه، ومتسرعا؛ كما أن تقطيب الضباط لحواجبهم كان مغاليًا فيه، وأن صوتهم كان جهوريًا وخطابيًا إلى حد كبير. ذلك أن زعزعة كرامة السجان تعنى تقريبا زعزعة القانون، على حد قول كافكا.

كنت قد لاحظت أن تلك التكشيرات تتسم بالعبثية، مضيفة هكذا إلى سلسلة الأعمال العبثية التى توالت منذ شهر مايو؛ والواقع أنه كانت هناك عملية جادة، شبه مأساوية، تجرى هنا. لقد وصل «اليهود الصغار» إلى معتقل أبو زعبل وهم شبه عراة؛ فهاهم قد سُلموا لأعدائهم الإخوان المسلمين، ولضباط الأمن الذين يحق لهم قتلهم فى المعتقلات. وبالتالى، فإن إفراغ تلك المسرحية المأساوية من مضمونها، وتحويلها إلى تمثيلية مضحكة يعنى فى الواقع الانتصار فى تلك العملية. لم أصل إلى تلك النتيجة

إلا قبل أيام معدودة من الإفراج عنى، بعدما علمت ما الذى تم هنا قبل اعتقالى.

كل شىء بدأ فى شهر مايو قبيل الحرب، وقبل العقبة؛ ففى بداية الشهر، تم تسليم خطاب أولى بالوضع فى أجازة غير محددة إلى اليهود المرتبطين بالمؤسسات العامة، أو الذين يعملون موظفين فى الدولة؛ ثم استلموا خطابًا آخر بفصلهم، مع القيام بتجميد حساباتهم فى البنوك.

وعندما أعلن جمال عبد الناصر، رافعا يديه إلى الأمام، فى مؤتمره الصحفى: «نقول لليهود... فلتأتوا .. «لم يشعر اليهود بالقلق من أن عبد الناصر لم ينطق ـ للمرة الأولى منذ خمسة عشر عامًا ـ «تعبير «الصهاينة» أو «التابعين لدولة اسرائيل» بل استعمل كلمة «اليهود». إنهم على علم تام بكل هذا، فلا مكان هنا لحيلة قانونية. ولما تم حصار «العقبة»، كان لابد أن تندلع الحرب. إنهم يعرفون اليوم تمامًا إنه سيلقى القبض عليهم كما كان عليه الوضع فى العام ١٩٤٨، وعام ١٩٥٦، فى معسكر «الهاكستيب» أو فى العباسية، حيث كانت ما زالت تتسم المعاداة للسامية باللياقة. لن يتوقف الأمر هذه المرة فى أن يقدموا للجهات الأمنية ككباش فداء، فيتركوا كل شىء وراءهم من سيارات، وشقق السكن، والسجاجيد، التى يتسلمونها لمنفعتهم الخاصة رجال قسم ٩٤. ألن يصبح أقصر الطرق من السجن إلى باريس ذلك البيع بالمزاد العلنى فى شارع النمر من قبل أحد أعضاء الطائفة الإسرائيلية لصالح شريكه فى الظل، الجنرال شعراوى، مدير الشئون اليهودية؟ ولكن هناك شيئًا آخر، فما هو؟

فى عام ١٩٤٨، كان هناك فى مصر ٧٦,٠٠٠ يهودى، ما زال منهم اليوم ألفان، بمن فيهم من أطفال ونساء. لم يحدث منذ ١٩٤٨ أن طرد أحد منهم خارج البلاد، دون أن يكون عليه قبول الاستيلاء على كل ما يملك، ونهب كافة أمواله، وهو ما يتم بتنظيم من البوليس السياسى. ولا أحد يسأل كبار رجال البوليس من كان المالك السابق للسيارة التى يستعملونها، أو الشخص الذى كان ساكن الشقة التى يقيمون فيها الآن. ففى صباح يوم ٥ يونيو، قامت مجموعات كبيرة من رجال البوليس السرى بترك مكاتبها، والانتشار فى أرجاء المدينة. وكانت الجملة المعتادة التى يرددونها: «المسألة عبارة عن خمس دقائق فقط؛ إنه مجرد إجراء، وسوف تعودون بعد خمس دقائق».

عند خسوف الشمس، كان هناك أكثر من ٣٠٠ يهودى مكدسون فى أقسام الشرطة،

تاركين وراءهم كافة أعمالهم، ونساءهم، وأطفالهم الذين لن تصلهم أية أخبار عنهم قبل نهاية شهر أغسطس؛ وسوف يرتفع عددهم سريعا إلى ٣٥٠.

«خمس دقائق»، تلك هى العبارة نفسها التى سمعها ذلك الشخص الأعرج، وهذا الطبيب اليهودى الذى كان يقوم بإجراء عملية جراحية لسجين بسجن طره، وهذا الذى كان يركن سيارته. كما قيلت نفس العبارة لكبير حاخامى الإسكندرية، وللسيد «م. هـ» الذى كان يستعد لإعداد حقنه لوالدته التى تحتضر بينما زوجته فى حالة وضع؛ وهو الذى سوف يضع الحقنة فى الماء المغلى ليذهب بمصاحبة الشرطى، ولا يعلم عن وفاة والدته إلا وهو فى سجن أبو زعبل؛ خمس دقائق من الثامنة صباحا حتى الليل لـ ٣٥٠ يهوديًا لا أكثر؛ فهى الحصة التى خصصتها الجهات الأمنية.

كما استدعى الأمر فى مستشفى الأمراض العقلية بالإسكندرية إلى البحث عن قميص ليرتديه «م.س»، فلا يصح أن يصحبه الشرطى وهو يرتدى قميص المجانين. حينما وصل الرجل إلى أبو زعبل، استعاد فجأة بعض عقله، فقال للطبيب الإخوانى الذى تعاطف معه: «لا يا دكتور، ليس فى إمكانك أن تفعل شيئا من أجلى، فأنت هنا منذ ثلاث عشرة سنة، أنت إذن أشد جنونًا منى».

أما «د.هـ.»، المجنون هو الآخر، فكان يعتبر نفسه الله؛ و كنا ننام جنبًا إلى جنب فى «العنبر رقم ١٧»؛ كان يستيقظ ليلا ممسكا بالقضبان الحديدية للباب وهو يصيح: «أنا رجل حر!»؛ ويوميا، كانت تحل بنا أزمة حقيقية وقت الصلاة: «لا صلاة، لا صلاة، أقول لكم توقفوا عن الصلاة، أنا الرب».

لم يترك سوى خمس دقائق من الوقت للإخوة «ب» الذين التقطهم الثلاثة رجال البوليس وهم لا يزالون يؤدون امتحانهم فى القاعة الكبرى بكلية الطب. كما منحت خمس دقائق لذلك المتسول «م» الذى كان يمارس نشاطه أمام قسم شرطة باب شرق بالإسكندرية، فاختصر الأمر بالنسبة له إلى الانتقال للجانب الآخر من الحائط.

ولكن، لم يكن الجميع مثل هذا المتسول. فهناك من ترك الأموال، والسيارات، والمكاتب الخاصة، والشيكات التى تنتظر التوقيع، وكانوا يختفون هكذا. هذا، على الرغم من أنهم على وعى تام بأن كلمة «خمسة» باللغة العربية قد تعنى خمس دقائق أو خمس سنوات. إنهم لا يزالون فى أبو زعبل. لقد علم جميعهم على وجه التقريب

بأنه قد تم فى يوليو وأغسطس بيع كل ما يملكونه بالمزاد العلنى. كان يستمع أغلبهم لتلك الأخبار وهم لا يعبأون بشىء ويجدون هذا من الأمور العادية. أما ما يعجزون عن فهمه، فهو الضرب والتعذيب.

فى مساء يوم ٥ يونيه، كان الضابط «النوبتجى» فى قسم بوليس الموسكى قد أحضر من محل الجزارة الكُلاَّب الذى تعلق فيه الذبائح. بمجرد أن يصل أحد اليهود، كان يأمره بالوقوف وظهره للحائط، ثم يضع الكُلاَّب بين كتفيه ويشده إلى أسفل، فيتمزق كل شىء: القماش، واللحم. كما تم جلد امرأة جاءت لتحتج على اعتقال زوجها. أما فى حالة «ج.ك.» الذى كان يحمل معه مبلغا مغالى فيه (١٧ جنيها)، فقد قام الضابط بتقطيع الأرقام المسلسلة للنقود، ثم أعاد الرزمة إلى المسجون بعد دهس نظارته على الأرض.

وعلى نفس المنوال، تم احتجاز المحامى «ز» البالغ ٦٩ سنة يومى ٥ و٦ يونيو دون أى طعام أو مياه، وذلك فى مكان ضيق مساحته لا تزيد على خمسين سنتيمترا مربعا؛ فمن سوء تصرفه أنه سأل عن السبب فى القبض عليه.

لقد تم أيضا فى ذات قسم الموسكى اغتصاب الطفل «ى» على يد اثنين من رجال الشرطة بناء على أوامر الضباط. وقد شهدت والدته هذا المنظر، فانطلقت مرعوبة إلى السفارة الإسبانية، حيث اتجه على الفور السفير الإسبانى إلى قسم البوليس وأظهر غضبا شديدًا لا يمت بصِلَة عن التقاليد الدبلوماسية، ثم انتزع هذا الطفل من زنزانته. كان يوجد أيضا فى أقسام البوليس الأخرى عديد من الشبان الذين لم يتعدوا ١٨ سنة من العمر. لم يكونوا إسبانيين، ولم يثيروا سوى غضب هؤلاء الذين كانوا يقومون بمقاومتهم.

وفى قسم مصر القديمة عندما طلب أحد الأطباء البالغ ٧٣ سنة أن يتحدث تليفونيا مع محاميه، تم اصطحابه بكل أدب إلى كابينة التليفونات التى لم تكن كذلك. لحقه فى هذا المكان أحدِ المسجونين العاديين، وأحكم رجال الشرطة إغلاق الباب. سمع اليهود الموجودون فى الزنازين الأخرى صوت أنين يصدر من هذا المكان على مدى ساعات طويلة. ثم خرج الطبيب العجوز، ممسكا بسرواله فى يده؛ لم يقل شيئا؛ إلا أن زملاءه سمعوه يبكى طوال الليل.

في مساء يوم ٨ يونيه، أعلن الدكتور محمد فايق في الإذاعة أن أوائل السجناء الذين قبضت مصر عليهم سيصلون في نفس الليلة إلى محطة القاهرة؛ وأنه إذا كان في قبضة إسرائيل بعض السجناء المصريين فليس لمصر أن تحسدها على أي شيء.

المذهل حقًا أن المسجونين الذين وصلوا تلك الليلة إلى محطة القاهرة لم يكونوا سوى أولئك المصريين الذين قامت إسرائيل بالقبض عليهم، ولكن لا أحد من الصحفيين أو رجال الشرطة أدرك تلك الحيلة.

لقد أخذت «النكتة» تنتشر انتشارا واسعا منذ يوم ٥ يونيه، وهو ما يعد علامة سيئة. إذ أن «النكتة» من أقدم الأسلحة السرية التي يلجأ إليها الشعب المصري ضد جميع أنواع القهر. فجدران الأهرامات مغطاة بحروف هيروغليفية ساخرة في لغة غامضة. وكان الشعار الذي يشير إلى الشرطة هو (مباحث الترويج والتهويش) لأن «النكتة التي يتم اكتشافها تعني المؤامرة التي تم الكشف عنها» .

لقد كان من شأن النكتة التي أطلقها الدكتور محمد فايق أن تدفقت الحشود نحو محطة القاهرة؛ ففي السادسة مساء يوم ٨ يونيه، هبط من قطار الإسكندرية طابور طويل من كبار السن، والأطفال، والمعاقين الذين كان قد تم اعتقالهم يوم ٥ يونيه بالإسكندرية؛ إنهم ينزلون مثنى، مثنى، وفي أيديهم القيود الحديدية؛ ثم يقرفصون على أرض رصيف رقم ٢، بينما تندفع عليهم بقوة الجماهير المحتشدة حولهم، والتي أصبحت الشرطة عاجزة عن كبحها.

في أول الطابور كان هناك الحاخام الأكبر، وكل من رئيس، ونائب رئيس، وسكرتير عام، الطائفة اليهودية بالإسكندرية. ثم يليهم أطفال المدارس، ومرضى مستشفيات المجانين، وكذلك أحد من الصم والبكم، والتربي الرسمي الذي أصبح هو نفسه قريبا من الموت، والذي حرمته الشرطة من الرجل الخشبية دون الارتكاز إلى أية قاعدة قانونية في هذا الشأن.

جدير بالذكر أنه بفضل رد الفعل السريع لأحد الضباط، نجا من الرجم هؤلاء اليهود القادمون من الإسكندرية. تم تكديسهم في اللوريات المصفحة التي انطلقت بسرعة كبيرة وقد أطفئت أنوارها، متجهة نحو أبو زعبل؛ وهكذا يبدأ ليل السكاكين الطويلة.

المحامى «ز» هو الذى سيحكى لنا عن ليل السكاكين الطويلة؛ فقد وصلت اللوريات إلى أبى زعبل والليل قد أسدل ظلامه، وكان الضباط ينتظرونهم على باب الشاحنات حيث أمروهم بالقفز على الأرض؛ فلما نفذوا هذا الأمر وهم مقيدون إلى يد شخص آخر، أخذوا يرتطمون على الأرض بينما الضرب ينهال عليهم من كل جانب؛ ثم تم الزج بهم فى حوش المعتقل حيث ظلوا فى وضع القرفصاء أمام فوهات المجارى من الثامنة مساء حتى السادسة صباحا. كان يمر عليهم كل ساعة أحد الضباط ويضربهم بسعف النخيل، كما تم صلب كبير حاخامى الإسكندرية على باب مدخل المعتقل، وتم ضربه حتى فقد الوعى تمامًا. بعد هذا الضرب المبرح، كان يأتى أحد الضباط ليتسلق ظهورهم، ويسير جريا عليها ذهابا وإيابا؛ فإذا ما اتكأ أحدهم على كتف الآخر، فإنما يكون عقابه هو الضرب. عند الساعة الثالثة صباحًا كان عديد من هؤلاء اليهود قد فقد الوعى.

وبحلول الساعة الرابعة صباحا، أعد الضباط طاولة كبيرة وضع عليها عديد من سكاكين المطبخ الطويلة. عندئذ، قال الحاخام الأكبر «إنهم سوف يقومون بذبحنا .. بلغوا الجميع بإقامة الصلاة». فأخذ جميع اليهود يهمون بالصلاة حيث استمروا على هذا الوضع حتى الفجر.

بعد السكاكين، تم إحضار أوان كبيرة مليئة بالمياه الساخنة، بينما يظل اليهود فى صلواتهم. لا ندرى إن كان ما يلى نابعا من نوع من الهلوسة الجماعية؛ إلا أن المحامى «ز» يؤكد أنه رأى فى هذه الليلة شابتين تضحكان بأعلى صوت عندما كان يقول أحد الضباط «هل يحلو لكما أن تذبحا أحدا منهم؟ » وكان الدكتور «ج» أكثر تأكيدا، فلقد سمع أحد الضباط يقول لإحدى تلك السيدات «لا شك إننى قد أحسنت بدعوتكم هنا لتروا اليهود على هذا الوضع، أليس كذلك؟»

عند الفجر، دق جرس التليفون فى مكتب قائد المعتقل. عندئذ، تم إدخال اليهود فى الزنازين ـ وهم لم يتوقفوا عن الصلاة ـ حيث استغرقوا فى النوم حتى المساء دون شراب أو طعام.

فى تلك الليلة، حوالى الثالثة صباحًا، أخرج الضابط «عمرو» من الصف المدعو «ى.د»، وأمره بالذهاب إلى الدور الأول وهو يلاحقه بعصاه. فى ظلام الزنزانة، وقع

«ى.د» على الأرض حيث يهم الضابط بضربه، ثم يقفل باب الزنزانة ويأمر أحدا قد يكون مختبئا فى ركن من الزنزانة: «هيا اغتصبه يا مرجان!»

الزنزانة حالكة، ومرجان اسم سودانى؛ سيظل «ى.د.» مترقبا طوال الليل التى سيعتبرها أطول ليلة أمضاها فى حياته؛ وعندما حل الفجر، فهم أن الضابط كان يخدعه، إذ وجد نفسه بمفرده فى الزنزانة؛ حينئذ، فقد الوعى؛ وهى القصة التى أضحكت الضباط كثيرا فيما بعد.

إن جلادينا هم: «رشاد» المسمى بالصاعقة و«عمرو» المسمى بهتلر، و«رفعت»، و«عبد اللطيف»، و«عصام» الضخم بصوته المخنث، و«عبد العال سلومة». هذا هو «رفعت» الذى يأتى إلينا ثلاث مرات يوميا ليجعلنا نقفز، ونجرى، ونصيح بأعلى صوتنا «إننا من اللوط» واضعا عصاه على تفاحة آدم رقبة كل مسجون حتى الشهق، فتبدأ قهقهته ترن عاليا. لقد عودنا «رفعت» على دقة الساعة التى يتم فيها ضربنا حتى إننا كنا نشعر بالقلق فى الأيام التى لا يأتى فيها إلينا.

أما الضابط «عمرو» (المسمى هتلر)، فهو الذى علق ـ ليلة حضورنا ـ حاخام الإسكندرية الأكبر وذراعيه فى وضع الصليب، وأوسعه مائة ضربة بعصاه وهو يقول له « لقد تم صلبك، أيها اليهودى».

وكان الضابط «عصام» هو الذى يصدر الأمر للمعتقلين بالوقوف كل واحد منهم أمام الآخر ليصفع بعضهم البعض على وجهه. لقد قمنا جميعا بصفع المسنين، كما قمنا جميعا «بالنزهات» وأنوفنا فى عجيزة هذا العجوز نقيب المحامين أو هذا الطبيب المسن؛ كان يطلق اسم «السلسلة» على تلك المهزلة. و«عمرو» أيضا هو الذى حشر كل مجموعة مكونة من ٧٠ فردًا فى زنازين لا تسع إلا لثلاثين مسجونا. وهو الذى جعل الأستاذ «ز» يؤدى أغنية الأطفال «قطتى صغيرة»، ويأمر الدكتور «ج» ـ المصاب بالسل فى المفصل ـ بركل الأرض وهو يردد «دو، رى، مى، فا، صول، لا، سى، دو».

وكان الضابط «رشاد» يجبرنا على الجرى ونحن نصيح «أنا لوطى.. أنا اسمى زنوبة...»؛ ولكن «عصام» المخصى الذى كان يطلق على المرضى من اليهود عبارة «المسخوطين»، ووجه فى يوم بأحد الفلسطينيين المسلمين يصيح فى وجهه «تقول إنهم مسخوطون يا ابن فرعون؟! إنهم هؤلاء اليهود الذين أجبروك على الركوع! ما الذى كنت سوف تنعتهم به إذا انتصرت فى الحرب..».

لم أشاهد الضرب يلاحق الزنزانة رقم ٢٢ إلى أن تم نقل ثلاثة معتقلين إلى العيادة الطبية، على إننى كنت حاضرا عندما قام أحد رجال الشرطة بإلقاء مائة جلدة حزام على المعتقل «ج. ب» بأمر من الضابط بالضرب حتى يتوسل المسجون للعفو عنه؛ إلا أن «ج. ب» ظل صامدا، لا يتفوه بكلمة حتى فقد الوعى. حينذاك، قال الشرطى: «لدى ابن فى سنك، أدعو من الله أن يشبهك».

فى صباح كل يوم، قبل تناول طبق الفول الذى يعده الإخوان المسلمون بكفاءة كبيرة، يتسلق أحدنا المرحاض محاولا التقاط شذرات عن بعض الأخبار التى كانت تذاع من راديو الضباط. فقد كنا على جهل بما يحدث، وكأننا مفقودون فى أعالى البحار. عندما كنا نسمع نداء «انتباه» يتصاعد من الزنازين القريبة من السلم، كنا نفهم أن العاشرة صباحا قد حلت. ولا تسمع حتى الساعة ١٢ ظهرًا سوى تلك الهتافات التى لا تنقطع: «يحيا ناصر»، «تحيا الثورة العربية»، «فلتسقط أمريكا وتحيا فرنسا».

كانت الزنازين تهتز بشدة من صوت الأناشيد الجماعية لأغانى الأطفال؛ وكان الأصدقاء يصفعون وجوه بعض؛ كما ترى مجموعات مكونة من ٥ إلى ٦ مساجين لا يرتدون سوى اللباس الداخلى، يهرولون حتى انقطاع النفس فى دهاليز المعتقل؛ وحينما يأتى الدور علينا، كان نصيبنا الضرب المبرح الذى ينبغى تلقيه بكل امتنان حتى تستكين الأمور.

الضابط «عمرو» هو الذى أخذ يضرب الصغير «ى» ضربًا مبرحًا لأنه قد اتخذ الزنزانة حماما للسباحة، متسلقا فوق أحد الجرادل المقلوبة ثم يرتمى علينا. كنا نحتج على هذا الوضع؛ وكان والده المحبوس فى الزنزانة نفسها يعبر عن استيائه، ثم يجهش بالبكاء. كان الطفل ـ الخارج من عيادة نفسية ـ قد تجرأ بجعل «عمرو» المسمى «هتلر» يشاهد كوبا من الماء يحتوى على حبة فول، وزهرة، وذبابة قائلا: «لقد وضعت بالأمس حبة الفول والزهرة فى الماء، انظر ماذا قد فعلت؟» وكان يشير إلى الذبابة، هذا وقد ظل الصغير «ى» يومين فى العيادة الطبية من أجل ذبابة.

صباح ذات يوم، دخل «رشاد» المسمى بالعاصفة الزنزانة، متصديا الأمر لاثنين من الشباب وقع عليهما الاختيار بالمصادفة ليخلعا ملابسهما، ثم أمر أحدهما بالانحناء وأمر الآخر باغتصاب زميله. كنا نرى هذا المشهد، وهنا أخذ أحد الشابين فى البكاء

بحرقة شديدة «لا أستطيع ذلك، إنه أخى»؛ نظر «رشاد» بملء عينيه إلى والدهما الموجود معنا وقال له: «لم تر شيئا، أليس كذلك؟»، فرد الأب ـ وسعفة النخيل مصوبة بين عينيه ـ إنه لم ير شيئا.

أما ميزة الضرب المبرح فهى أنها تبقى الزنازين فى حالة من السكون التام لمدة ساعة كاملة. كان يجرى ذلك ثلاث مرات يوميا، كما لو كان إحدى الشرائع أو نوعا من الصلاة الساكنة.

يدخل «عمرو» (هتلر)، و«رفعت»، و«رشاد» إلى الزنازين، ويضربون، بينما يئن اليهود؛ فبفضل عصاه السحرية، كان المارد العربى يحول هؤلاء الممثلين الثانويين إلى الجيش الإسرائيلى الذى يطلب الرحمة. وهكذا قال رشاد (الصاعقة) يوما إلى أخوين مر بينهما ليلحق بسرعة أحد المسجونين «إننى موسى الذى يشق البحر الأحمر».

وهنا أخذ المعتقل الذى يتلقى الضرب يصيح «إنها لعلامة جيدة» حيث لقب الأخوان اللذان مر بينهما رشاد هو «بيسح» الذى يعنى باللغة العبرية «عيد الفصح»؛ وهنا أخذ الضابط يعاقب المعتقل بقسوة، فقد أفسد عليه جلسة الاستمتاع. والواقع أن كلًا من المعذبين، والساديين والمازوشيين، كانوا متواطئين، يتواصلون خلسة من خلال عمليات الضرب.

لقد تمكنت بفضل «ش» الصغير الذى يقوم بالتهريج أثناء علمية الضرب أن اكتشف ـ منذ الأسبوع الأول ـ طقوس تلك المشاركة؛ وقد ذهب «ش» إلى ما هو أبعد من ذلك فى بدايات شهر يوليو؛ فقد نجح فى استيعاب أنه يجب الوصول إلى أقصى حد فى اتجاه الحرية المفقودة وأنت فى السجن من أجل تخطيها.

فى صباح أحد أيام شهر يوليو، بعد عملية من الضرب أشد من سابقاتها، أجبر «عمرو» (هتلر) أحد الشباب على التهام صرصار غارق فى القاذورات؛ اقترب من «ش» طالبا بصوت خافت أن أنظر إلى حذاء عمرو، فوجدته باليا؛ وإذ بـ«ش» يقول بصوت حالم: «أيعقل ضربنا كما يفعل وهو يرتدى مثل هذا الحذاء..» كان «ش» قرائيا، يعمل حرفيا فى محل صياغة، وهو يكاد يكون أميا. هذا الصغير نجح بكل بساطة فى كسر حدة اللحظة؛ فلم يعد «أبو زعبل» جزيرة مفقودة، ولا نحن فى بولندا، وهذا المريد لعبد الناصر الذى يضربنا بأكبر قدر من الشدة ليس إلا مثل باقى البشر.

بعد ضربنا، كان يتحتم على «عمرو» ركوب شاحنة عامة للرجوع إلى منزله، فنحن على بعد ٤٠ كيلومترًا من القاهرة، والمطار الدولى قريب للغاية؛ وهكذا، أعادنا هذا الحذاء المتهالك فى قدم هذا الغول الشرس إلى التقارب مرة أخرى مع العالم الخارجى.

كان «ى.م» يقول «لم يعد الناس بهذا القدر من المعاداة للسامية، حتى فى الأرياف»؛ لم يكن يستوعب إننا كنا فى الأرياف، فى أرياف ذات طابع شديد المصرية رغم القضبان؛ كما لم يدرك أنه يشعر فى السجن بالغربة نفسها التى يشعر بها فى القاهرة منذ انهيار طبقته التى نظمت خطاها على ساعة لندن أو باريس.

فى مساء ذلك اليوم، اتخذ «ش» قراره؛ والواقع أنه هو الذى انتصر فى الحرب الصغيرة الدائرة بأبى زعبل على الرغم أن أحدا لم يعلم هذا. فقد نجح فيما أخفق فيه حتى الآن كل من الصليب الأحمر، والأمم المتحدة، وحقوق الإنسان.

فبينما كان الضابط بمفرده فى آخر حوش المعتقل أثناء الفسحة، انتهز «ش» هذه الفرصة ليتوجه إليه. لم يحدثه عن عمليات التعذيب، ولم يشك من شىء، بل كان يرغب فى أن يعرض على الضابط قضية تتصل بتنظيم المعيشة داخل المعتقل؛ وكان الضابط على كامل الاستعداد للاستماع إليه. أفاده «ش» أن عدد اليهود الموجودين ٣٥٠، ولهم بعض النقود لدى إدارة المعتقل، وأنه يهمهم أن يقوم الضابط بتنظيم مطعم لهم؛ ففى استطاعة هؤلاء اليهود أن يجمعوا ٣٠٠٠ جنيه كل شهر؛ وبينما يرون أن الطعام الذى يعده الإخوان المسلمون هو حقا جيد للغاية، فهم يرغبون فى تحسين الوضع اليومى؛ وهكذا، سيشعر الجميع بالرضاء، وإذا جاء الصليب الأحمر يوما، سيجد أن اليهود يعاملون معاملة حسنة.

لم يشهد هذا المساء ضربا؛ بل توقف الضرب تماما. وبعد يومين، فتحت علينا أبواب السماء بتدفق أكثر من ٥٠ كيلو من الطماطم، و١٠٠ كيلو من الفلفل الأخضر، وكميات من الفاكهة والخضروات التى كانت إما غير ناضجة أو متعفنة؛ وهى التى كنا نتركها تتحلل فى أحد الأركان.

ولكن لا أهمية لكل ذلك، فلقد توقف تلقينا كل أنواع الضرب، وأعيدت إلينا

ساعات اليد، وأصبح من حقنا الحصول على الجرائد، وتلقى الخطابات. ومن سخرية الأقدار أنه تم إدخال الإخوان المسلمين فى الزنازين يوم استلام خطابات من أسرنا، وهم الذين كانوا قد تولوا حمايتنا ـ كما قيل لنا ـ بعدم الإفصاح عن هذا الأمر حتى لا يشعروا بغيرة؛ فبعد مرور سنوات تتراوح بين سبع أو عشر سنين فى هذا المعتقل، لم تكن تصلهم أى أخبار من الخارج؛ أما اليهود، فقد كانوا هنا منذ ثلاثة شهور فقط.

لقد تم الإفراج عنى من أبو زعبل يوم ٤ سبتمبر، وقد أقامت كافة الزنازين الاحتفالات التى تقام عادة فى تلك المناسبة؛ كنت أسمع من زنزانة إلى أخرى من خلال القضبان الحديدية الكلمات التالية: «هل تعرفون أيها الإخوة من سيتركنا اليوم؟ » ويأتى رد الزنزانة الأخرى كالآتى: «إنه أخونا فى الزنزانة رقم ٢٤، مع السلامة يا أخانا العزيز». وهنا جاء نحوى كل من المسلمين والمسيحيين، وأخذوا يمطروننى بالقبلات؛ وفجأة، رأيت الصغير «ش» يطل من أعلى ممر السجن، يغمز بعينيه ويلوح بغطاء رأسه معبرًا عن تحيته؛ عندئذ وجهت إليه سلاما عسكريًا لا مثيل له.

أمضيت بضعة أيام أخرى فى سجن القناطر، ثم بضع ساعات فى القلعة. وفى مكتب الجوازات، طلب منى الضابط «المنشاوى» ـ بشىء من الحرج ـ التوقيع على إقرار التخلى عن جنسيتى، وتوقفت عندئذ أن أكون مصريا، ورحلت بعيدا.

عندما ركبت التاكسى، أخذ السائق ينظر إلى فى المرآة ويبتسم دون أن يستدير بوجهه. لم يتوقف عن إلقاء نظراته على منذ أن دخلنا شارع رمسيس. إنه يعلم جيدا من أين أنا آت وإلى أين أنا ذاهب؛ دون أن يلتفت قال إنه مطرب، وأنه يؤدى أحيانا دور «الدوبلير» فى أفلام محمد عبد الوهاب. لم أجب عليه. أضاف قائلًا وهو يركز نظره على الطريق أن مصر ليست ملكًا لأحد، ثم سألنى: إلى أين أنت ذاهب؟» وعندما أخبرته قال لى «وهل تذهب هكذا».

لقد عبر بإيماءة من رأسه عن رفضه لذلك وهو يقول إنه ليس ثريا ولكن لا يمكن أن أذهب خالى اليدين «هكذا».

أخذ يغنى من أجلى طوال الوقت حتى وصولنا إلى المطار؛ فغنى «وصلنى، وصلنى»، ثم أخذ يغنى «ياريس..»؛ وهو الريس الذى يقول إن هذا البلد ملك الذين يحبونه، وإنه ليس ملكا للفرعون أو للمملوكى.

كان الضابط الذى يجلس بجوارى ينظر من النافذة؛ وحينما وصلنا إلى المطار، نزل السائق. كنت أريد أن أعطيه بقشيشا، فرفض؛ تسمرنا فى مكاننا للحظات دون أن نتحدث؛ قبلنى؛ وبصوت منخفض همهم فى أذنى: «عفوا». وهنا أخذ الضابط يميل نحوى، ثم يتراجع ويستدير بظهره، ثم يعود من جديد؛ لقد شعرت أنه هو الآخر يريد أن يقبلنى؛ إلا أنه قد يكون مجرد وهم من الأوهام التى تنتاب الإنسان بعد انتهاء الأمور.



Bibliographie

يهود مصر فى العصور القديمة

I

Il n'existe pas en français d'étude d'ensemble sur les Juifs d'Égypte dans l'Antiquité.

— Pour la période qui va d'Alexandre le Grand à la conquête arabe (332 av. n. è.-641 de n. è.), il faut renvoyer avant tout aux *Prolegomena* (en anglais) dont Victor TCHERIKOVER a fait précéder le t. I du *Corpus Papyrorum Judaicarum*, Jérusalem et Cambridge, Mass., 1957, pp. 1-111; ils se fondent sur un travail antérieur du même savant, publié pour la première fois en hébreu en 1945, puis réédité par les soins de David ROKEAH, avec des *addenda* et *corrigenda* et un résumé en anglais: *Ha Yehoudim beMizraim betekoufa hahelenistit veharomit leor hapapirologia*, Jérusalem, 1963.

— Dans une perspective plus vaste, toujours de V. TCHERIKOVER, *Hellenistic Civilization and the Jews*, trad. de l'hébreu par S. Applebaum, Philadelphie, Penn., et Jérusalem 1959, 2e éd. 1961 (reste fondamental).

— Tous les problèmes essentiels de l'histoire juive, d'Ezra aux derniers Maccabées, sont présentés par Elias J. BICKERMAN, «The Historical Foundations of Post-Biblical Judaism», chap. 2 de l'ouvrage collectif sous la dir. de L. Finkelstein, *The Jews: Their History, Culture and Religion*, 3e éd., New York 1960, pp. 70-114, et sous forme de livre: *From Ezra to the Last of the Maccabees*, New York, 1962 (plusieurs rééd.).

II

On dispose, pour les travaux concernant l'histoire des Juifs et du judaïsme dans le monde grec et romain, d'un excellent répertoire bibliographique: R. MARCUS, «A Selected Bibliography (1920-1945) of the Jews in the Hellenistic-Roman Period», *Proc. Amer. Acad. of Jewish Research* 16, 1946-1947, pp. 97-181; continué par U. RAPPAPORT, «Bibliography of Works on Jewish History in the Hellenistic and Roman Periods, 1946-1970», *Studies in the History of the*

Jewish People and the Land of Israel (université de Haïfa), t. 2, 1972, pp. 247-231; idem, avec la collaboration de M. MOR, *Bibliography of Works on Jewish History in the Hellenistic and Roman Periods*, 1971-1975, Jérusalem, Université hébraïque — Institut des Hautes Études, 1976, 70 p. (polyc).

La *Revue historique de Droit français et étranger*, dans sa chronique « Égypte gréco-romaine et monde hellénistique », se fait régulièrement l'écho des publications concernant les Juifs d'Égypte et le judaïsme hellénistique.

1. *Colonie juive d'Éléphantine:*

Documents araméens en version française, avec d'amples commentaires, dans P. GRELOT, *Documents araméens d'Égypte*, Paris, 1972. Un corpus des documents araméens d'époque perse est en voie d'élaboration par les soins de B. PORTEN, qui en a publié une première partie en 1974 avec J. C. GREENFIELD: *Jews of Elephantine and Arameans of Syene. Aramaic Texts with Translation*, Jérusalem, 1974, the Hebrew University, Depart. of History of the Jewish People (51 documents avec trad. en hébreu contemporain et en anglais).

Sur les Juifs d'Éléphantine à la lumière de ces documents, voir, en dernier lieu, A. DUPONT-Sommer, « Les dieux et les hommes en l'île d'Éléphantine, près d'Assouan, au temps de l'empire des Perses », *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et des Belles-Lettres*, 1978, pp. 756-772 (avec beaucoup d'indications bibliographiques, p. 759, note 8).

2. *Documents grecs d'Égypte relatifs aux Juifs et au judaïsme:*

— *Corpus Papyrorum Judaicarum*, éd. V. A. TCHERIKOVER avec la collaboration d'A. FUKS, Harvard, Mass., vol. I, 1957 (n^os^ 1-141); vol. II, 1960, (n^os^ 142-150); avec M. STERN, vol. III (n^os^ 451-520). Les inscriptions d'Égypte concernant les Juifs avaient été réunies par J. B. FREY dans le t. II de son *Corpus Inscriptionum Judaicarum. Recueil des inscriptions juives qui vont du IIIe siècle av. J.-C. au VIIe siècle de n. è.*, Vatican, 1952, n^os^ 1424-1539; elles sont reprises avec des compléments et des amendements substantiels par David M. LEWIS en annexe (Appendix I) au t. III du *C.P. Jud.*, pp. 138-166.

— Alexandrie antique et ses Juifs: L. JULLIEN, *Les Juifs d'Alexandrie dans l'Antiquité*, Alexandrie, 1944; A. BERNAND, *Alexandrie la Grande*, Paris, 1966; P. M. FRASER, *Ptolemaic Alexandria*, 3 vol., Oxford, 1972 (beaucoup de détails concernant les Juifs et leurs rapports avec la population grecque).

— Villes et villages d'Égypte habités par des Juifs: liste alphabétique établie par D. ROKEAH, en appendice (Appendix III) au t. III du *C. P. Jud.* (pp. 197-209).

— Pour le monde hellénistique dans sa totalité, de la mort d'Alexandre à la conquête romaine de la Grèce, une synthèse récente: Claire PRÉAUX, *Le Monde hellénistique. La Grèce et l'Orient*, 323-146 av. J.-C., 2 vol., Paris, 1978, avec un chapitre sur « L'hellénisme et les Juifs » (pp. 566-586).

3. *L'onomastique de la diaspora juive d'Égypte:*

— V. TCHERIKOVER, *C. P. Jud.*, t. I, pp. 27-30. Une prosopographie des Juifs d'Égypte d'après les documents (papyrus, ostraca, inscriptions) réunis dans le *C. P. Jud.* est donnée par D. ROKEAH en appendice (Appendix II) au t. III du *C. P. Jud.* (pp. 167-196).

— Ionathas *alias* Apollodotos ou Apollodôros, débiteur insolvable: J. MODRZEJEWSKI, « Servitude pour dettes ou legs de créance. Note sur le C.P. Jud. 126 », *Recherches de papyrologie 2*, 1962, pp. 75-98.

— Épitaphes du cimetière d'El-Ibrahimiyé : textes publiés pour la première fois par Evaristo BRECCIA, «Juifs et chrétiens de l'ancienne Alexandrie», *Bull. Soc. Arch. Alex. 9*, 1907, et réédités par FREY, *CIJ* II, 1424-1431 (*C.P. Jud.*, pp. 138-139).

— Dosithéos, fils de Drimylos : A. FUKS, «Dositheos son of Drimylos : A Prosopographical Note», *Journ. Jurist. Papyr.* 7-8, 1954, pp. 205-209. Aux papyrus dans lesquels on a retrouvé le personnage mentionné par le III[e] *Livre des Maccabées* (1,3), et qui confirment l'historicité de ce récit (*C.P. Jud. I*, 127 a-e), il faut peut-être joindre le *P. Ryland* IV 576 (fin du III[e] siècle av. n. è.) où apparaît un Dosithéos copropriétaire d'un petit bateau ; c'est ce que suggère Hans HAUBEN, «A Jewish Ship-Owner in Third Century Ptolemaic Egypt» *Ancient Society* 10, 1979, pp. 167-170.

4. La Bible des Septante :

— L'ouvrage de base demeure H. B. SWETE, *Introduction to the Old Testament in Greek*, 2[e] éd., 1902. Bibliographie : S. P. BROCK, S. T. FRITSCH et S. JELLICOE (éd.), *A Classified Bibliography of the Septuagint*, Leyde 1973. Parmi les travaux récents citons S. JELLICOE, *The Septuagint in Modern Study*, Oxford, 1968, et le volume collectif publié sous la direction du même savant : *Studies in the Septuagint. Origins, Recensions and Interpretations. Selected Essays*, New York, 1974, ainsi que les études d'Elias J. BICKERMAN, «Some Notes on the Transmission of the Septuagint» (*A. Marx Jubilee Volume*, 1950) ; «The Septuagint as a Translation» (*Proc. Amer. Acad. Jew. Research* 28, 1959) ; «Two Legal Interpretations of the Septuagint» (*Rev. intern. des droits de l'Antiquité*, 3[e] série, 3, 1956), reprises dans ses *Studies in Jewish and Christian History*, I, Leyde 1976, pp. 137-166, 167-200 et 201-224.

— Fragments de la *Thora* en grec sur papyrus, dans des textes écrits par des Juifs et pour des Juifs : Fr. DUNAND, *Papyrus grecs bibliques* (*Papyrus F. inv.* 226) : *Volumina de la Genèse et du Deutéronome*, Introduction, Le Caire, 1966 (Public. de l'Inst. fr. d'arch. orient., Rech. d'arch. de philol. et d'hist., t. 27), et texte dans *Etud. de Papyr.* 9, 1971, pp. 81-150, qui donne (Introduction, pp. 31-32) la liste des manuscrits grecs des Septante émanant certainement des milieux juifs.

— La *Thora* en grec reconnue comme une «loi civique« pour les Juifs dans l'Égypte ptolémaïque : J. MODRZEJEWSKI, *La Codification dans l'Égypte ancienne* (à paraître).

— Droit grec employé par les Juifs : J. MODRZEJEWSKI, «Les Juifs et le droit hellénistique : divorce et égalité des époux (*C.P. Jud.* 144)», *Iura : Riv. int. di Dir. rom. e ant.* 12, 1961, pp. 162-193 (compte tenu des échos suscités par cet article : R. YARON et D. PIATTELLI, *ibid.* 13, 1962, pp. 170-175 et 18, 1967, pp. 121-124) ; idem, *La Loi du ribbit et les papyrus d'Égypte* (à paraître).

— Les synagogues et leurs dédicaces : B. LIFSHITZ, *Donateurs et fondateurs dans les synagogues juives. Répertoire des dédicaces grecques relatives à la construction et à la réfection des synagogues*, Paris, 1967. La dédicace de Schedia, connue depuis longtemps (FREY, *CIJ* II 1440, texte repris par D. M. LEWIS au *C. P. Jud.* III, p. 141), est rééditée par André BERNAND, *Le Delta égyptien d'après les textes grecs*, t. I, Paris, 1970, p. 414 (n° 3) ; celle de Crocodilopolis, publiée pour la première fois en 1939 (A. VOGLIANO, «La dedica della sinagoga di Crocodilopolis», *Riv. di Filol.* 17, 1939), pp. 247-259, n'a pas été remarquée par J.

B. FREY qui ne l'a pas fait figurer dans son *corpus*; cette omission fut réparée par D. M. LEWIS, *C. P. Jud.* III, p. 164, où le texte est donné comme n° 1532 A; nouvelle édition critique: Étienne BERNAND, *Inscriptions grecques du Fayoum*, t. I, Paris, 1975, pp. 16-18 (n° 1). Voir aussi M. HENGEL, «Proseuche und Synagoge. Jüdische Gemeinde, Gotteshaus und Gottesdienst in der Diaspora und in Palästina», *Tradition u. Glaube. Festgabe K. G. Kuhn*, Göttingen, 1971, pp. 157-184; P.-E. DION, «Synagogues et temples dans l'Égypte hellénistique», *Science et esprit* 29, 1977, pp. 45-75.

5. *Littérature judéo-hellénistique:*

— Les textes, en version anglaise, sont facilement accessibles grâce à R. H CHARLES, *The Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament in English*, 2 vol., Oxford, 1913 (réimpr. 1963); les textes grecs sont à consulter dans A.-M. DENIS et M. de JONGE, *Pseudepigrapha Veteris Testamenti Graece*, Leyde, 1964 et suiv.; A.-M. DENIS est également l'auteur d'une *Introduction aux pseudépigraphes grecs de l'Ancient Testament*, parue à Leyde en 1970. Une bonne vue d'ensemble: R. MARCUS, «Hellenistic Jewish Literature», dans l'ouvrage collectif édité par L. FINKELSTEIN, *The Jews: Their History, Culture and Religion*, 3e éd., New York, 1960, pp. 1077-1081. Bonne bibliographie: G. DELLING (et M. MASER), *Bibliographie zur jüdisch-hellenistischen und intertestamentarischen Literatur*, 1900-1970 (2e éd.), Berlin, 1975.

— Les innombrables études consacrées à Philon sont recensées dans les *Studia Philonica* publiées par le «Philo Institute» de Chicago depuis 1972; les lecteurs français peuvent commencer par J. DANIÉLOU, *Philon d'Alexandrie*, Paris, 1958.

— L'historien Démétrios: E. J. BICKERMAN, «The Jewish Historian Demetrios», *Studies for Morton Smith*, t. 3, Leyde, 1975, pp. 72-84, repris dans le t. 2 des *Studies in Jewish and Christian History* du même savant, Leyde, 1980, pp. 347-358.

— Le poète Ezéchiel: K. KUIPER, «Le poète juif Ezékiel», *Rev. ét. juiv.* 46, 1903, pp. 48-73 et 161-177; I. TRENCSÉNYI-WALDAPFEL, «Une tragédie grecque à sujet biblique», *Acta Orient. Hung.* 2, 1952, 1952, pp. 143-163.

— Lettre d'Aristée: édition française, avec une bonne introduction d'A. PELLETIER, *Lettre d'Aristée à Philocrate*, Paris, 1962 («Sources chrétiennes», 89). Pour le problème de la date, U. RAPPAPORT, «When was the Letter of Aristeas Written?», *Studies in the History of the Jewish People and the Land of Israel* (université de Haïfa), t. 1, 1970, pp. 37-50, se prononçant en faveur d'une date haute, à la fin du règne de Ptolémée IV Philopator (222-205 av. n. è.) ou au début de celui de Ptolémée V Epiphane (204-180 av. n. è.). Pour d'autres, la *Lettre* serait rédigée dans la deuxième moitié du IIe siècle av. n. è. (ainsi notamment E. VAN'T DACK, «La date de la lettre d'Aristée», *Antidorum W. Peremans*, Louvain, 1968, pp. 263-278, qui place cette rédaction sous le règne de Ptolémée VIII Evergète II, 145-116 av. n. è.); mais on connaît aussi l'hypothèse selon laquelle la *Lettre* daterait du principat de Titus (mort en 81 de n. è.) «qu'elle à présenté sous le masque de Ptolémée II Philadelphe» (L. HERRMANN, «La Lettre d'Aristée à Philocrate et l'empereur Titus», *Latomus* 25, 1966, pp. 58-77). L'idéologie de la *Lettre* rapportée ici est celle qu'expose V. TCHERIKOVER, «The Ideology of the Letter of Aristeas», *Harvard Theological Review* 51, 1958, pp. 59-85. Sur la *Lettre* comme source historique, beaucoup d'éléments intéressants dans l'étude de F.

Parente, «La lettera di Aristea come fonte per la storia del giudaismo alessandrino», *Annali Scuola norm. super. di Pisa,* 3e sér., 2, 1972, pp. 177-237 et 517-567.

— Le philosophe Aristobule : N. Walter, *Der Thoraausleger Aristobulos*, Berlin, 1964 (Texte u. Unters. z. Gesch. d. Altchristl. Liter., 86).

— Oracles sibyllins : V. Nikiprowetzky, *La Troisième Sibylle. Texte traduction et commentaire*, Paris et La Haye, 1970 ; J. J. Collins, *The Sibylline Oracles of Egyptian Judaism*, Missoula (Montana), 1974 ; idem, «The Provenance of the Third Sibylline Oracle», *Bull. Inst. Jewish Stud.* 2, 1974, pp. 1-18. Le IIIe *Livre des Macchabées* : voir plus loin, § 7.

— La *Sagesse* dite de Salomon : C. Larcher, *Études sur le Livre de la Sagesse*, Paris, 1969.

— Contre la thèse du caractère apologétique de la littérature judéo-alexandrine : V. Tcherikover, «Jewish Apologetic Literature Reconsidered», *Eos* 48/3 (Symbolae R. Taubenschlag, vol. III), 1957, pp. 169-193 (version anglaise d'un article paru en hébreu dans les *Commentationes Judaico-Hellenisticae in memoriam Iohannis Lewy*, Jérusalem, 1949).

— Pour Alexandre Polyhistor, J. Freudenthal, *Hellenistische Studien : Alexander Polyhistor und die von ihm erhaltenen Reste judäischer und samaritanischer Geschichtswerke*, Berlin, 1875, demeure fondamental.

— Joseph et Aséneth : M. Philonenko, *Joseph et Aséneth. Introduction, texte critique, traduction et notes*, Leyde 1968 (Studia Post-Biblica, 13). Pour cet auteur, *Joseph et Aséneth* est «un roman mystique, écrit en grec, à l'époque romaine, par un Juif d'origine égyptienne» (p. 109). Pour une date plus haute, qui fait remonter ce roman à l'époque hellénistique : S. West, «Joseph and Asenath. A Neglected Greek Romance», *Classical Quart.* 24, 1974, pp. 70-81. Mariages mixtes : voir les contributions de Fr. Rausky et J. Mélèze-Modrzejewski au volume *Le Couple interdit* (actes du Colloque de Cerisy-la-Salle, mai 1977, publiés sous la dir. de Léon Poliakov), Paris, 1980, pp. 42-52 et 53-73, et Z. W. Falk, *Introduction to Jewish Law of the Second Commonwealth*, t. 2, Leyde, 1978, pp. 269-275.

6. *Entre Jérusalem et Alexandrie :*

— M. A. Beek, «Relations entre Jérusalem et la diaspora égyptienne au 2e siècle avant J.-C.», *Old Testament Studies* 2, 1943, pp. 119-143.

— Fêtes nouvelles introduites en Égypte : E. J. Bickerman, «Ein jüdischer Festbrief vom Jahre 124 v. Chr.», *Ztschr. f. Neutest. Wiss.* 32, 1933, pp. 233-254 (repris dans le t. 2 des *Studies in Jewish and Christian History*, Leyde, 1980, pp. 136-158).

— Les Maccabées : E. J. Bickerman, *The God of the Maccabees. Studies on the Meaning and Origin of the Maccabean Revolt*, Leyde, 1979 (version anglaise, malheureusement amputée des notes, de l'ouvrage paru en allemand à Berlin, en 1937 : *Der Gott der Makkabäer. Untersuchungen über Sinn und Ursprung der makkabäischen Erhebung*) ; F.M. Abel, *Les Livres des Maccabées*, 2e éd., Paris, 1949 : éd. et trad. en français, avec commentaire et bibliographie, des Livres I et II.

— *Écclésiastique* : T. Middendorp, *Die Stellung Jesu ben Siras zwischen Judentum und Hellenismus*, Leyde 1973.

— Onias et le temple de Léontopolis : R. Mesnil du Buisson, «Le temple

d'Onias et le camp Hyksos à Tell el-Yahoudiyé», *Bull. Inst. Franc. Archéol Orient.* 35, Le Caire, 1935, pp. 59-71, et M. DELCOR, «Le temple d'Onias en Égypte», *Rev. Bibl.* 75, 1965, pp. 188-203. Mise au point par V. TCHERIKOVER, *Hellenistic Civilization and the Jews*, 1959 (déjà cité), pp. 275-281 et *C. P. Jud.* I, pp. 44-46.

7. *Les éléphants de Ptolémée VIII Physcon (ou de Ptolémée IV Philopator?) et les Juifs d'Alexandrie:*

— V. TCHERIKOVER, «The Third Book of Maccabees as a Historical Source of Augustus' Time», *Scripta Hierosolymitana* 7, Jérusalem, 1961, pp. 1-26; idem, *C. P. Jud.* I, pp. 21-23.

— Les Juifs vus par les Grecs: Th. REINACH, *Textes d'auteurs grecs et romains relatifs au judaïsme,* Paris, 1895 (réimpr. Hildesheim, 1963), recueil désormais remplacé par M. STERN, *Greek and Latin Authors on Jews and Judaism*, 2 vol., Jérusalem, 1974 et 1980 (diff. Brill à Leyde). Sur la manière grecque de voir le judaïsme, l'influence grecque sur les Juifs, les rapports entre Juifs et Grecs, voir surtout M. HENGEL, *Judentum und Hellenismus. Studien zur ihrer Begegnung unter besonderer Berücksichtigung Palästinas bis zur Mitte des 2. Jh.s v. Chr.*, Tübingen, 1969, 1973; du même auteur, excellent petit livre (édition anticipée en allemand d'une contribution à la *Cambridge Ancient History of the Jews,* en préparation depuis plusieurs années): *Juden, Griechen und Barbaren. Aspekte der Hellenisierung des Judentums in vorchristlicher Zeit*, Stuttgart, 1976 (les § 9 et 10 concernent les Juifs d'Égypte, pp. 116-144). En français, on lira A. MOMIGLIANO, «Juifs et Grecs», *Ni Juif ni Grec. Entretiens sur le racisme* (actes du Colloque de Cerisy-la-Salle, juin 1975, publiés sous la dir. de Léon Poliakov), Paris, 1978, pp. 47-63, et, du même auteur, *Sagesses barbares: les limites de l'hellénisation*, Paris, 1979, chap. 4 et 5, pp. 87-136 (avec bibliogr., pp. 177-183, et suppl., 188); sur cet ouvrage, qui est la version française d'un livre publié en anglais sous le titre *Alien Wisdom: The Limits of Hellenization*, un bel article de Maurice OLENDER, «Barbarophilie et sagesse grecque», *Le Temps de la réflexion* 1, oct. 1980, pp. 465-470.

— Les Juifs qui «donnent la nausée» aux gens de Memphis: R. RÉMONDON, «Les antisémites de Memphis», *Chronique d'Égypte* 35, 1960, pp. 244-261 (rééd. critique et analyse de la lettre publiée comme *C. P. Jud.* I, 141).

— L'antisémitisme païen dans l'Antiquité: Carlos LÉVY, «L'antijudaïsme païen: essai de synthèse», dans l'ouvrage collectif publié par V. NIKIPROWETZKY, *De l'antijudaïsme antique à l'antisémitisme contemporain*, Lille, 1979, pp. 51-86 (bon inventaire des thèmes antijuifs dans la littérature antique), et J. MÉLÈZE-MODRZEJEWSKI, «Sur l'antisémitisme païen», *Pour Léon Poliakov. Le racisme: mythes et sciences* (sous la dir. de M. Olender), Bruxelles, 1981, pp. 411-441, et version élargie dans *Scripta Classica Israelica*, t. 6, sous presse.

8. *Discriminations fiscales et politiques dans l'Égypte romaine:*

— Carroll A. NELSON, *Status Declarations in Roman Egypt*, Amsterdam, 1979 (American Studies in Papyrology, 19), donnant le relevé des documents relatifs aux groupes privilégiés de la population (déclaration d'*epicrisis* et d'*eiscrisis*) et la liste des personnes impliquées dans ces actes (auteurs de déclarations et candidats).

— Lutte des Juifs pour leurs droits à Alexandrie: A. KASHER, *The Jews in Hellenistic and Roman Egypt*, Tel-Aviv, 1978 (en hébreu, avec un résumé en

anglais ; thèse soutenue à l'université de Tel-Aviv en 1972), et I. VARSAT, *Les Juifs dans l'Égypte grecque et romaine. Aspects sociaux, politiques et institutionnels*, thèse inédite, soutenue à l'université de Paris II en 1975.

— Sur les Juifs et les Romains en général et le statut des Juifs dans l'Empire : J. JUSTER, *Les Juifs dans l'empire romain. Leur condition juridique, économique et sociale*, 2 vol., Paris, 1914 (réimpr. Aalen, 1965), encore utile, mais vieilli sur plusieurs points; E. Mary SMALLWOOD, *The Jews under Roman Rule from Pompey to Diocletian*, Leyde, 1976) et P. VIDAL-NAQUET, «Les Juifs entre l'État et l'apocalypse», chap. 9 du t. II de l'ouvrage collectif sous la dir. de Claude Nicolet, *Rome et la conquête du monde méditerranéen*, Paris, 1978, pp. 846-882 (et bibliogr. pp. 528-539).

9 *L'alabarque Alexander et ses fils :*

— J. SCHWARTZ, «Note sur la famille de Philon d'Alexandrie», *Ann. Inst. Philol. et hist. orient. et slaves* 13, 1953, pp. 591-602. Les documents papyrologiques qui les concernent sont regroupés par A. FUKS au vol. II du *C. P. Jud.*, 418 a-f (Tibérius), 419 a-e (Marcus), 420 a-b (Gaius).

— Sur Tibérius on peut lire E. G. TURNER, «Tiberius Julius Alexander», *Journ. Rom. Stud.* 44, 1954, pp. 54-64, et V. BURR, *Tiberius Julius Alexander*, Bonn, 1955. Sur son édit : G. CHALON, *L'édit de Tiberius Julius Alexander. Étude historique et exégétique*, Olten et Lausanne, 1964 (texte avec un commentaire historique et juridique très détaillé).

— Josèphe et Tibérius : P. VIDAL-NAQUET, *Il buon uso del tradimento*, Rome 1980 (version italienne élargie de l'introd. à la trad. fr., par P. Sanivel, de la *Guerre des Juifs*, Paris, 1977, pp. 7-115 : *Flavius Josèphe ou du bon usage de la trahison*, augmentée de l'article sur «Flavius Josèphe et Masada», paru en français dans *Revue histor.* n° 260, 1978, pp. 3-21), spécialement pp. 44-46.

10. *La révolte juive des années 115-117 :*

— A. FUKS, «The Jewish Revolt in Egypt (A. D. 115-117) in the Light of the Papyri», *Aegyptus* 33, 1953, pp. 131-158 ; idem, «Aspects of the Jewish Revolt in A. D. 115-117», *Journ. Rom. Stud.* 51, 1961, pp. 98-104.

— Le *Ioudaïkos logos* et les mesures répressives qu'il implique : A. SWIDEREK, «Ioudaïkos logos», *Journ. Jur. Pap.* 16/17, 1971, pp. 45-62 (*Sammelbuch* XII 10892-10893) ; J. MODRZEJEWSKI, *Rev. hist. de droit* 50, 1972, pp. 155-156.

— La communauté juive d'Égypte après la révolte : V. TCHERIKOVER, *C. P. Jud.* I, pp. 93-111. Correspondance en hébreu entre deux communes juives dans l'Égypte byzantine : A. E. COWLEY, «Notes on Hebrew Papyrus Fragments from Oxyrhynchus», *Journ. Egypt. Archaeol.* 2, 1915, pp. 209-213 ; V. TCHERIKOVER, *C. P. Jud.* I, pp. 101-102.

— La conquête arabe de l'Égypte : A. J. BUTLER, *The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion*, 2e éd. complétée par P. M. FRASER, Oxford, 1978 (la première date de 1902).

يهود مصر فى ظل الإسلام

FARGEON Maurice, *Les Juifs en Égypte*, Le Caire, Impr. Paul Barbey, 1938.

FISCHEL Walter J., *Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam*, London, 1937.

GOITEIN Salomon D., *A Mediterranean Society : The Jewish Communities of the*

Arab World as portrayed in the documents of the Cairo Geniza, 3 vol. parus, Berkeley & Los Angeles, 1967, 1971, 1978.
— *Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton, 1973.
— *Encyclopedia Judaica*, 16 vol. + suppl., Jérusalem, 1971-1972.
LANDAU Jacob, *Ha-Yehudim be-Mitsrayim*, 1967; trad. angl.: *Jews in Nineteenth Century Egypt*, 1970.
MANN Jacob, *The Jews in Egypt and in the Palestine under the Fatimids Caliphs*, 2 vol., Oxford, 1920.

اليهود فى القرنين التاسع عشر والعشرين

ADLER Elkan Nathan, *Jews in Many Lands*, London, 1905.
AGWANI Mohammed Shafi, *Communism in the Arab East*, London, 1969.
AHMED Jamal Mohammed, *The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism*, London, 1960.
American Jewish Commitee, *American Jewish Yearbook*, Philadelphia, 1938-1942.
— *The Plight of the Jews in Egypt*, New York, 1957.
Annuaire des Juifs d'Égypte et du Proche-Orient 1942, 5702-5703, Le Caire, Société des Éditions historiques juives d'Égypte, 1942.
Annuaire statistique 1907-1961, Ministère des Finances, département des statistiques, Le Caire, 1961.
Aperçu du travail sioniste au Caire pendant les années 1920, 1921, 1922, 1923, Le Caire, 1924.
BAER Gabriel, *A History of Landownership in Modern Egypt, 1800-1950*, London, 1962.
— *Studies in the Social History of Modern Egypt*, Chicago, 1969.
AL-BAHRI Yunus, Huna Barlin: *Hayya al-'arab!* Beyrouth, n.d.
AL-BANNA Hasan, *Majmu'at rusa'il al-imam al-shahid Hasan al-Banna*, n.d.
BARAKĀT 'Ali, *Tatawwur al-milkīya al-zira 'iya fi misr, 1813-1914, wa-atharuha 'ala 'l-haraka al-siyasiya*, Le Caire, 1978.
CATTAOUI Joseph, *Le khédive Ismail et la dette de l'Égypte*, Le Caire, 1935.
— (éd.) *L'Égypte: Aperçu historique et géographique, gouvernement et institutions, vie économique et sociale*, Le Caire, 1926.
CATTAOUI René, *Le Règne de Mohamed Aly d'après les archives russes en Égypte*, 4 vols, Le Caire, 1931-36.
— et CATTAOUI Georges, *Muhammad ali and Europe*, Le Caire, 1952.
CATTAUI PACHA Joseph, *Coup d'œil sur la chronologie de la nation égyptienne*, Le Caire, 1931.
CLELAND Wendell, *The Population Problem in Egypt*, New York, 1936.
COHEN Amnon, BAER Gabriel, (éds.) *Egypt and Palestine: A Millennium of Association (868-1948)*, Jérusalem, 1984.
COHEN Hayyim J., *The Jews of the Middle East, 1860-1972*, New York, 1973.
— et YEHUDA Zvi, *Asian and African Jews in the Middle East, 1860-1972: An Annotated Bibliography*, Jérusalem, 1976.
COHEN Mark, *Jewish Self-Government in Medieval Egypt: The Origins of the Office of Head of the Jews, ca. 1065-1126*, Princeton, 1980.
Comité «Pro-Palestina» d'Alexandrie, *Rapport sur sa gestion du 13 août 1918 au 30 novembre 1927*, Alexandrie, 1928.

Communauté israélite d'Alexandrie, *Rapport général pour l'année 1933,* Alexandrie, 1934.

Communauté israélite du Caire, *Statuts de la Communauté israélite du Caire,* Le Caire, 1927.

Compte rendu du Comité d'assistance aux réfugiés israélites de Syrie et de Palestine, 19 décembre 1914-31 décembre 1915, Alexandrie, 1916.

ETTINGER Shmuel, (éd.) *Toldot ha-yehudim be-artsot ha-islam,* Jérusalem, 1981.

FARAJ Murad, *al-Shu'ara' al-yahud al-'arab,* Héliopolis, 1939.

FARGEON Maurice, *Le Tyran moderne: Hitler ou la vérité sur la vie du Führer. (Un nouveau livre brun),* Alexandrie, 1934?

— *Les Juifs en Égypte depuis les origines jusqu'à ce jour,* Le Caire, 1938.

— *Médecins et avocats juifs au service de l'Égypte,* vol. 1: *Les Médecins juifs d'Égypte,* Le Caire, 1939?

HARARI Edmond, «Quelques réflexions sur les origines, us et coutumes des habitants des quartiers israélites du Caire, par un témoin de son temps», Paris, mai 1980, non publié.

HARKABI Yehoshafat, *Arab Attitudes to Israel,* Jérusalem, 1972.

HARRIS Murray, *Egypt under the Egyptians,* London, 1925.

KRÄMER Gudrun, *Minderheit, Millet, Nation? Die Juden in Ägypten, 1914-1952,* Wiesbaden, 1982.

— «Die Juden als Minderheit in Ägypten, 1914-1956. Islamische Toleranz im Zeichen des Antikolonialismus und des Antizionismus», *Saeculum* 34, 1983, pp. 36-69.

— «Zionism in Egypt, 1917-1948», dans *Egypt and Palestine: A Millennium of Association (868-1948),* éd. par Amnon Cohen et Gabriel Baer, Jérusalem, 1984, pp. 348-66.

— *The Jews in Modern Egypt, 1914-1952,* University of Washington Press, Seattle, 1989.

LACOUTURE Jean et Simone, *Egypt in Transition,* London, 1958.

LAFORGE Michel, *Au fil des jours en Orient: Grèce, Égypte, Pakistan, Jérusalem, 1922-1958,* Bruxelles, 1967.

LAMBELIN Roger, *L'Égypte et l'Angleterre vers l'indépendance, de Mohammed Ali au roi Fouad,* Paris, 1922.

LANE Edward W., *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians,* London, 1860; New York, 1973.

LANDAU Jacob M., *Parliaments and Parties in Egypt,* Tel-Aviv, 1953.

— *Jews in Nineteenth-Century Egypt,* New York, 1969.

— *Middle Eastern Themes: Papers in History and Politics,* London, 1973.

PERETZ Don, *Egyptian Jews Today,* New York, 1956.

PERRAULT Gilles, *Un homme à part,* Paris, 1984.

PHILIPP Thomas, *The Syrians in Egypt, 1725-1975,* Stuttgart 1985.

POLIAKOV Léon, *De l'antisionisme à l'antisémitisme,* Paris, 1969.

— *The History of Anti-Semitism,* vol. 2: *From Mohammed to the Marranos,* London, 1971.

POLITI Elie I., *L'Égypte de 1914 à «Suez»... À travers une existence pas connue des autres,* Paris, 1965.

— (éd.) *Annuaire des sociétés égyptiennes par actions, études financières,* Alexandrie, 1929.

RIZQ Yunan Labib, *Tarikh al-wizarat al-misriya,* Le Caire, 1975.

ROBINSON Nehemiah, *The Arab Countries of the Near East and Their Jewish Communities,* New York, 1951.
ROSHWALD Mordecai, «Marginal Jewish Sects in Israel, Part 1», *International Journal of Middle East Studies* 4, 1973, pp. 219-37.
ROUMANI Maurice M., *The Case of the Jews from Arab Countries: A Neglected Issue,* Tel-Aviv, 1978.
SHILSH 'Ali., *al-Yahud wa-l-masun fi misr. Dirasa tarikchiya,* Le Caire, 1986.
SID Edgar, *Les Derniers Juifs d'Égypte,* Beyrouth, n.d.
SITON David, *Kehilot yehude sefarad we-ha-mizrah ba-'olam be-yamenu,* Jérusalem, 1974.
La Situation des Juifs dans les pays du Proche-Orient, Bulletin intérieur d'information, n° 11, Paris, 1948.
TIGNOR Robert L., *Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882-1914,* Princeton, 1966.
— «The Egyptian Revolution of 1919: New Directions in the Egyptian Economy», *Middle Eastern Studies* 12, oct. 1976, pp. 41-46.
— «The Economic Activities of Foreigners in Egypt, 1920-1950: From Millet to Haute Bourgeoisie», *Comparative Studies in Society and History* 22, janv. 1980, pp. 416-49.

القـرائيـــة

AFENDOPOLI Caleb, *Petchagan Ketab Ha-Dat,* Ramleh (Israël), 1977.
ANKORI Zvi, *Karaites in Byzantium,* Ams Press, New York, 1968.
GAMIL Yossef, *Toledot Ha Yehudim Ha Karaïm,* chez l'auteur, Ramleh (Israël), 1981.
MOURAD FARAG BEY, *Tafsir Al Tawra,* Le Caire, 1928.
— *Diwan Mourad,* I, II, III, Le Caire, 1929.
NEMOY Léon, *Karaite Anthology,* Yale University Press, New Haven & London, 1969.
SZYZMAN Simon, *Le Karaïsme,* l'Âge d'homme, Lausanne, 1980.
TREVISAN SEMI Emanuela, *Gli ebrei Caraiti tra etnia e religione,* Carucci, Roma, 1984.
TROKI Isaac, *Hizouk Emounah* (Faith Strengthened), Hermon Press, 1970.

أحداث الحياة اليومية

ALLIANCE ISRAÉLITE UNIVERSELLE, *vingt-cinquième anniversaire (de l'),* Paris, au siège de la société, 1885.
ALLONY N., «Liste des personnalités du XII^e siècle en Égypte (Guenizah)», dans *Sepher, Zikaron Ben-Zvi* (Itshaq Ben-Zvi memorial volume), vol. I, p. 137 (article rédigé en hébreu).
BEN SIMON Raphaël Aharon, *Nahar Mysraïm* (sur les usages et les lois en cours en Égypte), Na-Amon (Alexandrie), Impr. Farag Haïm, 1907.
— *Sepher Toub Mysraïm* (liste alphabétique des grands rabbins d'Égypte), Jérusalem, Impr. Samuel Ha-Levi, 5668 (1908).
BEN ZEEB Israël, «Te'o'dot 'al beith-Haqebaroth Hayehoudi Haqadoum bé Qahir» (sur le cimetière juif du Caire), dans *Sefounot I,* 1957.
— *Ha-toe'doth Ha-Ebrioth shebeguenizé Haqehila Hayehoudith bé-Qahir*

(documents des *guenizahs* du Caire), Jérusalem, Publications de l'Institut Ben-Zvi, 1964, pp. 263-295.
BUTCHER E. L., *En Égypte*, Paris, Vuibert, 1913.
CLOT Bey A. B., *Aperçu général de l'Égypte*, Paris, Fortin-Masson & Co., 1840.
CONFORT David, *Koré Ha-Doroth* (sur les rabbins d'Égypte et d'Orient — 1650), «Imprimé pour la première fois à Venise en 5506 (1746), sous la direction du rabbin égyptien David Ashkenazi», rééd. à Berlin par Abraham Ben-Asher, 5606 (1846).
DELPUGET David, *Les Juifs d'Alexandrie, de Jaffa et de Jérusalem en 1865*, Bordeaux, Impr. G^ale Émile Crugy, 1866.
ESKANDARANY Yaacoub Daoud, «Egyptian Jewry — why it declined», *Khamsin*, n° 5, 1978.
FARGEON Maurice, *Les Juifs en Égypte*, Le Caire, Impr. Paul Barbey, 1938.
FARHI Noury, *La Communauté juive d'Alexandrie de l'Antiquité à nos jours*, conférence à l'Ouvroir des Écoles de la Communauté israélite d'Alexandrie, sans nom d'éditeur, 1945.
FRANCO M., *Essai sur l'histoire des Israélites de l'Empire ottoman*, Paris, Libr. Durlacher, 1897.
GENDZIER Irène, «Sanoua, Juif et nationaliste égyptien», *Études méditerranéennes*, Paris, mai 1961-1969.
GOITEIN S. D., *A Mediterranean Society*, vol. I: *Economic Foundations*, vol. II: *The Community*, vol. III: *The Family* (travaux effectués à partir des documents de la *Guenizah* du Caire), University of California Press, Berkeley, Los Angeles, London (1967, 1971, 1978).
— «Testaments et déclarations pré-mortuaires», extraits de la *Guenizah* du Caire, dans *Sepher, Zikaron Ben-Zvi* (Itshaq Ben-Zvi Memorial Volume), vol. 1, p. 105 (art. rédigé en hébreu).
GOLB Norman, «The Topography of the Jews of Medieval Egypt», JNES 24, 1965, pp. 251-270.
— «The Topography of the Jews of Medieval Egypt, JNES 33, 1974, pp. 116-149.
— «Étude sur un prosélyte juif qui gagna l'Égypte au début du XI^e siècle *(Guenizah)*», dans *Sepher, Zikaron Ben-Zvi* (I. Ben-Zvi memorial volume) vol. I, p. 85. (art. rédigé en hébreu).
GOTTHEIL Richard, «Some Hebrew Manuscripts in Cairo», JQR, 1905, pp. 630-655.
— A Cairo Synagogue Eleventh Century Document, *JQR*, XIX, 1907.
HASSON Jacques M., *Suez*, Debresse, 1959.
HASSOUN Jacques «Mosaïques égyptiennes», dans *Combat pour la Diaspora*, n° 3, 1980.
— «Accusations de meurtres rituels portées par les chrétiens contre les Juifs en Égypte entre 1870 et 1910 — Symptôme», communication à la société Études juives, févr. 1980.
HAZAN Eliahou, *Sepher névé Chalom (Minhagué Na-Amon* — usages d'Alexandrie), Na-Amon (Alexandrie), Impr. Farag Haïm Mizrahi, 5654 (1894).
HAZAN Schlomo, *Ha ma'alot lé-Shlomo* (sur les rabbins séfaradims), Na-Amon (Alexandrie), Impr. Farag Haïm Mizrahi, 5660 (1900).
— *Shaar Ha-Qadim*, Na-Amon (Alexandrie), Impr. Farag Haïm Mizrahi, 5665 (1895).

IBN DAOUD Yaqub (pseud. de HASSOUN Jacques), «Un rameau vivant: le caraïsme», dans *Les Nouveaux Cahiers*, n° 45, été 1976.

ISRAËL Yom Tob, *Minhagué Mysraïm* (usages d'Égypte), Jérusalem, Impr. Yoël Moshé, 5633 (1873).

KHOURY René, «Note sur les foires et pèlerinages juifs d'Égypte», dans *Hommages à la mémoire de Serge Sauneron*, vol. II: «Égypte post-pharaonique», Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1979, pp. 459-469.

LANDAU Jacob, *Jews in Nineteenth Century Egypt*, New York University Press, University of London Press Ltd, 1969.

LOUCA Anouar, «Abou Nadara», dans *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle*, Paris, Didier, 1970, pp. 153-178.

MARGOULIOTH G., *Megillath Missraim, or the Scroll of the Egyptian Purim, JQR* VIII, 1891/92, pp. 274-288.

MIZRAHI Maurice, *L'Égypte et ses Juifs — le temps révolu*, Lausanne, chez l'auteur, 1977.

MOREH Shmuel, *Arabic Works by Jewish Writers*, Jérusalem, Institut Ben-Zvi, 1973.

MOSSERI Jack, «The Synagogues of Egypt: past and present», *The Jewish Review*, IV, 1913/1914.

POLITI E. I., *L'Égypte de 1914 à «Suez»*, Paris, Presses de la Cité, 1965.

ROTH Cecil, *Histoire du peuple juif*, Stock, 1980.

SAMBARI Yossef ben Ishaq, *Liqoutim Mi-Sepher Dibré Yossef* (extrait du livre *Dibré Youssef*), Berlin, Impr. Zvi Hirsch Itzkavski, 5656 (1896).

SCHEIBER Alexander, «Iggereth lé-Domyat bé-'Enian Melamed Ehad» (lettre de Damiette concernant un enseignant), *Sefounot*, vol. V, Jérusalem, Publications de l'Institut Ben-Zvi, 1961, pp. 461-467.

— «Une lettre inédite de Maïmonide commentée par son fils et son petit-fils» *(Guenizah)*, dans *Sepher, Zikaron Ben-Zvi*, vol. I, p. 137 (art. rédigé en hébreu).

STRAUSS-ASHTOR E., *Toledot Hayéhoudim bé-Mysraïm ou bésouria — Toadot min Ha-guenizah* (histoire des Juifs en Égypte et en Syrie — documents de la *Guenizah*), Jérusalem, Mossad Ha-Rab Kook, 1970.

SZYSZMAN S., «Une visite au Caire», *Vetus Testamentum*, vol. IV, n° 2, Leiden, E. J. Brill, 1954.

TARAGAN Bension, *Les Communautés israélites d'Alexandrie*, Alexandrie, Éd. juives d'Égypte, 1932.

— *Quarante ans d'histoire du judaïsme alexandrin*, Alexandrie, Impr. Léon Palombo, 1947.

TOLEDANO Jacob Moshé, «Bathé Kenessioth Ha-atikim bé-Aleksandria vé-sebiboteha» (les vieilles synagogues d'Alexandrie et de ses environs), *Hebrew Union College — Annual*, XIII, 1938.

TUDELA Benjamin de, *Itinerary of Benjamin of Tudela (XIIe siècle)*, translation and commentary by ADLER Marcus Nathan, New York, Philipp Feldheim, n.d.

YAARI Abraham, *Hebrew printing in the East*, Jerusalem, University Press, 1936.

YEHOUDA Ishaq Yehezkel, «Meguilath Mysraïm», dans *Reshomot*, vol. 5, Jérusalem, 1927.

Ouvrage collectif:

PRATO David, ANTEBI Elie, HAZAN Moïse J., BENZAKEN Félix, EZRAN A., GOLDMAN S., TOLEDANO J., GOAR Edwin, NAHOUM Haïm, WOLFENSOHN Israël, *Huitième Centenaire de Maïmonide,* Alexandrie, Impr. Léon Palombo, 1935.

Anonymes:

Seder El-Tawhid, Alexandrie, 1887.

Annuaire des Juifs d'Égypte et du Proche-Orient, Le Caire, Société des éditions historiques juives d'Égypte, 1943.

Bottin mondain égyptien et du Proche-Orient, 1952.

Rapport sur le rabbinat et la chancellerie (de 1926), Alexandrie, édité par la Communauté israélite d'Alexandrie, 1927.

Revues:

Bulletin de la Société d'études historiques juives d'Égypte, n° 1, Le Caire, Libr. I. Moscato & Co., 1929.

Kadimah, périodique édité au Caire entre 1935 et 1936.

Tribune juive, différents numéros de l'hebdomadaire paraissant au Caire et à Alexandrie.



عن المحرر

جاك حاسون

طبيب نفسي مصري يهودي، هاجر إلى فرنسا مع أهله في سن مبكرة ولكنه كان يحضر إلى مصر بانتظام وأسس في باريس جمعية الحفاظ على تراث يهود النيل. ومن مؤلفاته:

* فيما بين الموت والعائلة (باريس ١٩٧٣ و١٩٧٧)
* مقطوعات من لغة الأمومة (باريس ١٩٧٩)
* الإسكندريات (باريس ١٩٨٥)
* ذات الكتاب - مع عبد القادر خطيبي (١٩٨٥)
* بلاد الهند الغربية (١٩٨٧)
* الشهوات العاجية (باريس ١٩٨٩)
* اغتراب الذاكرة (باريس ١٩٩٠)
* التاريخ الدقيق (باريس ١٩٩٤)
* لصوص الذاكرة (باريس ١٩٩٤)
* عبور الأجانب (باريس ١٩٩٥)
* موضوع الحقد الفائض (باريس ١٩٩٧)
* الإسكندرية وقصص أخرى (باريس ٢٠٠١)







تاريخ يهود النيل

تاريخ اليهود المصريين هو جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر حيث عاشوا جنبا إلى جنب مع المسلمين والأقباط طوال ٢٥ قرناً. ويتناول هذا الكتاب الهام المراحل المختلفة التى مرت بهم منذ العصور القديمة وحتى منتصف القرن العشرين. إن مجموعة النصوص المتميزة التى يقدمها هذا الكتاب شاهدة على مصيرهم وأسلوب حياتهم وعلى فترات ازدهارهم وشتاتهم وانقراضهم.

المحرر جاك حاسون طبيب نفسي مصري يهودي، هاجر إلى فرنسا مع أهله في سن مبكرة ولكنه كان يحضر إلى مصر بانتظام وأسس في باريس جمعية الحفاظ على تراث يهود النيل.

ولد المترجم يوسف درويش عام ١٩١٠ بالقاهرة في أسرة قرائية، فدرس القانون واهتم بالدفاع عن حقوق وحريات الشعب وخاصة العمال. وقد قام بترجمة كتاب «أوضاع عمال الصناعة الكبيرة في القاهرة وضواحيها» تأليف جان فاليه. وكتاب «وثائق من واقع اليسار الماركسي الفرنسي». كما ترجم العديد من الأبحاث والمقالات المطولة من اللغة الفرنسية. وقد أسلم في عام ١٩٤٧ وتوفي في عام ٢٠٠٦ بالقاهرة.





دار الشروق
www.shorouk.com